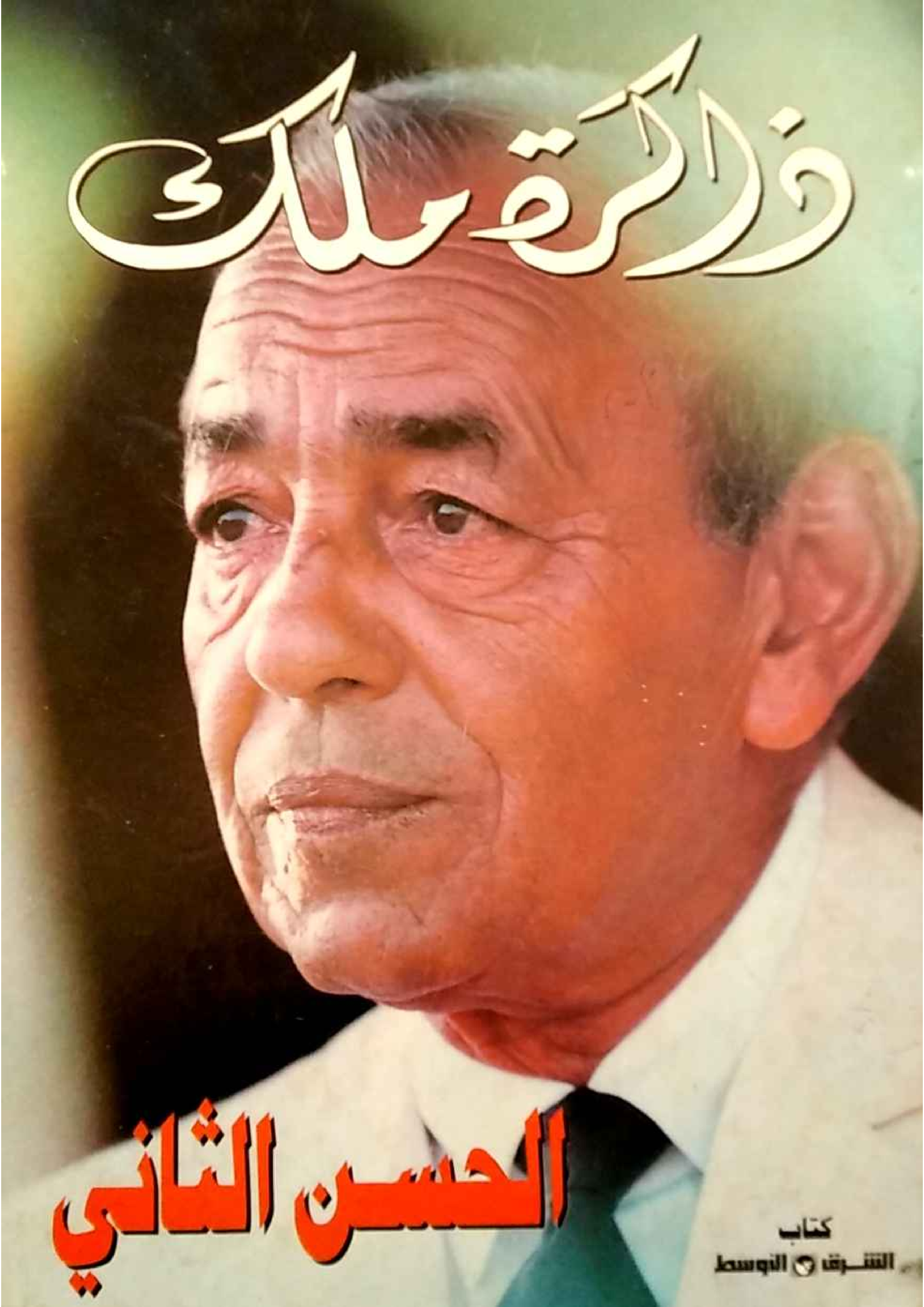

ذاكرة ملك
الحسن الثاني
كتاب
الشرق الأوسط

الطبعة الثانية





الحسن الثاني

أجرى الحوارات: إيريك لوران

مقدمة الطبعة العربية

منذ قرون سحيقة همس هيردیان قائلاً : « من الصعب أن تظل امبراطوراً في صحبة الطبيب » . ولو عرف الامبراطور الروماني الصحافة ، ووسائلها وطرقها ، والحشرية المتوفرة لدى منسوبيها ، لأحال هذه العبارة إلى الصُحافي . فقلما نجا زعيم من حبائل تلك الشقاوة الصحافية وإحراجات الصحافي .

غير أن الملك الحسَن الثاني ، ملك المغرب ، في حواراته الطويلة التي ستتلو هذه المقدمة ، لم ينجُ فقط من الأسئلة التي طرحت ، بل ان العاهل المغربي يبدو للقارئ هو السائل في موقع المسؤول ، لا بل الصحافي الذي عرف كيف ومتى ، وأين يضع جوابه ، ويثير سائله قبل أن يثيره السائل .. إذ تمكن بحذاقته المعروفة عنه ، ان ينقل الشخصيات التي تطرق لها ، والأحداث التي مرت عليه ، وتناولها ، إلى مقعد المسؤول وصار هو السائل .

وذلك في زعمي مرتقى صعب لا يجيده إلا الحسن الثاني :

وهذا أول انطباع بدا لي ، وأن أتشرف بأن أكون من قلة قليلة اتيحت لها قراءة هذا السفر الممتع قبل صدوره .

أما الانطباع الثاني فهو ذلك الزخم من الحرارة التي تختزنها ذاكرة الحسن الثاني العجيبة الفريدة ، فالملك لا يتذكر ، ولا يسرد أحداثاً ، ولا يحاول اقناعك بموقف بأسلوب المتَهَم فحسب ، بل هو يقدم دعواه معززة بالوقائع ، والمرافعات القانونية والأرقام ، ثم يعرف سلفاً ، بثقة المنتصر ، أنك ستصدر حكمك لصالحه .

ذلك لأنه لا يتكلم بصيغة من يأمرك أن تقتنع دون مناقشة .. بل بأسلوب من يقرأ لك المحاضر .. ويبسط لك الحقائق .. وتلك أسهل الطرق إلى الإقناع .

والانطباع الثالث ، أن هذا الكتاب الذي أمامك ليس محاورات صحافية بين صحافي وزعيم عالمي ، إنه رؤية

فلسفية منتقاة ذات بعد فكري، ونهج سياسي، ومنحى اقتصادي واجتماعي، وفضاءات ثقافية، يعجز عنها أبدع الذين فاقوا غيرهم في تبسيط النظريات ولم تواتهم الفرصة للتطبيق.

أما هذا الرجل الذي لعب دوراً مهماً في الدنيا المغربية فيعرف ألغازها، ويحلها على طريقته، وبأسلوبه، حتى صار المغرب جزءاً من تجربته، كما هو جزء من تجربة المغرب، إذ يسبر الأفق العربي، بامتداداته وتشعباته، ويجول في سماء العالم بمداه الواسع ودهاليزه، ويجمع تحليل المنظر، وحصافة المجرب، وإدراك رجل الاقدار... فلا تخونه عبارة ولا تعجزه مسألة، ولا توقفه شاردة. ثم مع ذلك كله يرسم لك خطاً بيانياً من الأفكار والرؤى، ويبسّط لك قروناً كاملة تجمعت في أربعة عقود من الزمن.. في جرعة صغيرة من الفصول.

(2)

والسؤال الذي يُطرح:

لماذا هذا الكتاب، ولماذا التوقيت، ومن سيقرأه؟

فهل من جديد أن تكون زعيماً لأكثر من خمسة وعشرين مليوناً من البشر لكي تملك حقّ تصدير بعضٍ من ذاكرتك إلى القارئ في كل مكان؟

ولعله من الأفضل أن تكون الاجابة من نهاية السؤال.

إذ أنه صحيح أن الملك الحسن الثاني يحكم أكثر من خمسة وعشرين مليوناً من البشر!

لكن هذا البشر الذي يحكمه الملك، إن نظرت إليه في الموقع الجغرافي أو حدقت فيه من خلال هذا التنوع، والتجاذب التاريخي، أو تمعنت فيه بالإطار الحضاري الذي حققه الشعب المغربي طيلة مصارعته مع الحياة، يمثل زخماً وتجربة مميزة، لا يتوفران لكثير من شعوب العالم.

إذاً فالحسن الثاني هو ابن هذه الحصيلة المدهشة من شعب تداخلت فيه الوثنية مع اليهودية مع المسيحية مع الإسلام، ثم تمازجت فيه عناصر متناغمة متنافرة من الشعوب، كونت خلاصة فاعلة سمّت نفسها المغرب!

والمغرب، كالحسن الثاني، لا ينطلق من فراغ، أو يعيش على الهامش، لأنه خارج الفراغ ومتجاوز الهامش. فهو يستند إلى اثني عشر قرناً من الملكية فضلا عن قرون من الانغماس في ثقافات عريقة.

ومن الطبيعي أن يصدر كتاب مثل هذا عنه.

فقبل ستة قرون كان المغرب حقل تعليم وملاحظة للمؤرخ الشهير ابن خلدون، الذي أهدى بدوره للإنسانية

فن كتابة التاريخ، وهندسة علم الاجتماع، حتى قال عنه المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي: «إنه أعظم عمل من نوعه كتبه أي مفكر حتى الآن».

ومن الطبيعي، في سياق التطور التاريخي، أن يقدم الحسن الثاني هذه الإضافة الجديدة في كتاب جديد، يعترف به صاحبه، وهو في قمة المجد والسلطة، ويصارح فيه الآخرين ليساعد المؤرخين على فهم ألغاز ما لا يمكن فهمه في هذا المنحى المتطور الذي يقدم في هذا الكتاب!

ولا شك أن صاحب هذه الإجابات لم يكن يتحدث عبثاً، أو يطلق جزافاً ما قاله... بقدر ما هو ينطلق من قراءة متأنية لـ «فن كتابة التاريخ». ألم يقل في احدى الاجابات إنه لو لم يكن ملكاً لتمنى أن يكون مؤرخاً؟

إنه يدلي بشهادة صادقة وأمام عينيه تجربة الكاتب اناتول فرانس عندما شاهد حادثة أمام بيته، ولكنه استمع إلى روايات المشاهدين.

وهو يدرك بعين الواثق من موقعه في التاريخ أن فرض الرقابة الرسمية على المؤرخ لا يلغي دور المؤرخ، ولا يُسكت صوته، وإنْ ظل هذا الصوت مغلقاً قروناً، فلا بد أن يأتي يوم ينطق فيه القلم بالحقيقة المجردة.

(3)

جانب ثالث يهم من يقرأ هذا الكتاب بالعربية، وهو أن الحسن الثاني في الستينيات كان أحد الزعماء الذين أدركهم ظلم الطفولة الثورية العربية فعوملوا معاملة لا يستحقونها.

ولقد مضى زمن طويل على تلك المعاملة التي تبدلَت بعد فشل تجربة هذه الطفولة بكاملها وسقوطها، ولذا فمن المفيد الإشارة إليها، لإقرار حجم التحولات التي مرت على حياتنا، بعد أن تعرض سيد هذا الكتاب لبعض من مشكلات تلك الأيام بالتفصيل، وروى ماجريات كانت غائبة عن الذهن، وتناول رموزاً ظلت، بحكم الدعاية، متألقة في ثنايا الحلم العربي.

فالحسن الثاني هنا يعيد كتابة جزء مهم من التاريخ العربي، ويعرض وقائع لم يسبق لها أن عُرفت، ولا يجيدها شخص إلا الحسن الثاني.. الذي عاشها، وشارك فيها، ولعب جزءً رئيسياً من أدوارها.. إن لم يكن البطل الرئيسي في معظمها.

إنه يشخّص ويحل رموز اللوحة المغربية المتشابكة التي يبسّطها بطريقة تدعو للإعجاب.

وفوق ذلك كله، فإن ما صارح به القارئ، سواء كان يقرأ العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو الاسبانية، وفي

اللغات التي ظهر فيها هذا العمل. يظل اعترافات تبدو في عصرنا هذا نادرة، خاصة من الزعماء، الخارجين عن دائرة الفلك الغربي.

(4)

أخيراً، لا بد من الاعتراف بأن الملك الحسن الثاني قلّد جريدة «الشرق الأوسط» وساماً تعتز به. وهي تنشر هذا الكتاب إلى قراء العربية وتطبعه وتوزعه. وهو تقليد خصّنا به هذا الرجل الكبير كعادته دائماً، إذ تفضل فأذن لنا بأن نحظى بهذا الشرف.

وأذكر أنه أبدى حرصه على أن يظهر الكتاب بالعربية قبل أية لغة أخرى، إذ قال لي جازماً «أنا عربي ومسلم واللغة العربية أولى اللغات في النشر».

ولا نريد القول إن هذا العمل قد تم في زمن قياسي وفي ظرف أسابيع قليلة. فقد بذلت «الشركة السعودية للأبحاث والنشر» أقصى جهودها، لكي يظهر هذا الجهد، وفي طبعته الأولى، على الأقل، بمظهر مشرِّف يحقق لنا التطلعات. ويؤكد حسن ظن ملك... بحجم الحسن الثاني.

عثمان العمير

تقديم

التقيت بملك المغرب لأول مرة في شهر مارس (آذار) 1992 بمناسبة حديث صحفي أجريته معه. ورغم أنني تابعت قضايا السياسة الخارجية منذ حوالي عشرين سنة فإن اهتمامي بالشؤون المغربية كان حتى ذلك الحين محدودا.

وهناك شيئان أثارا حيرتي: أولهما العلاقات المضطربة الغامضة المشوبة بالفتور في الغالب بين فرنسا ومحميتها السابقة (المغرب). وثانيهما شخصية الملك العلوي المثيرة للجدل. ففي باريس تتضارب الآراء حول شخصية العاهل المغربي وأعماله. فهو يثير في نفس الوقت الرضى البالغ والعداء الممنهج. لذلك فكل صحفي نزيه يود الكتابة بموضوعية في هذا المجال لا بد أن ينزلق في حقل ملغوم، ولا محيص له عن إثارة نقمة الجانبين بحيث توجه له تهمة «التقاعس» أو «التواطؤ».

إن ممارسة العمل الصحفي تنمي نوعا من الشك يظل عالقا بالشخص، ويؤدي إلى رفض التساؤل عمن أنا. غير أن الحسن الثاني الذي يوجد على رأس حكم بلاده منذ اثنتين وثلاثين سنة يعتبر مع العاهل الأردني الملك حسين عميدا لرؤساء الدول الذين مازالوا يمارسون مسؤولياتهم. إن هذه الاستمرارية السياسية طويلة الأمد تحول في نظري دون تقديم شروح مبسطة.

وخلال الساعتين اللتين استغرقهما لقائي الأول بالعاهل المغربي بدا لي متشعب الأفكار بارعا في غالب الأحيان. وعلى أية حال فقد كان في كلامه وسكوته أكثر استرسالا وغموضا من أغلبية قادة الدول الذين التقيت بهم حتى الآن.

ومع ذلك، وعندما تودعنا بعد انتهاء الحديث الصحفي لم أكن أعتقد أبدا أن حديثي معه ستكون له بقية. غير أنه في نهاية شهر يونيو (حزيران) اتصل بي أحد المقربين من جلالته واقترح علي التوجه إلى يفرن حيث يقيم الملك لأتحدث معه في مشروع كتاب.

لقد بدت لي الفكرة مغرية وخطيرة في آن واحد، كما بدا لي أن إنجازها سيكون من الصعوبة بمكان.

وفي يفرن اصطحبني ملك المغرب للقيام بجولة على متن سيارة قادتنا إلى حوض لتربية الأسماك، منطلقين من القصر الذي هو بناية شيدت في مكان مرتفع وسط غابة من أشجار الأرز. كان الحسن الثاني مرتاحا وهو يقود سيارته بنفسه، فدعاني إلى أن أجلس إلى جانبه. وفي الطريق المتعرج جرى بيننا حديث حول شكل ومضمون الكتاب. وقلت له إن الكتاب لن تكون له أهمية ولا مصداقية إلا إذا تطرقت فيه، مع جلالتكم، لجميع القضايا حتى العويصة منها. فأجابني الملك قائلا: «يمكنكم أن تطرحوا علي جميع الأسئلة التي تودون طرحها». وأضاف أنه قرأ وأحب الكتب التي ألفتها حول حرب الخليج، وأن اختياره وقع علي لأنه يود محاورا «جديدا ومحايدا».

واقترح الحسن الثاني أن تبدأ جلسات عملنا يوم عاشر أغسطس (آب). ومع ذلك وعند عودتي إلى باريس لم أكن مقتنعا تمام الاقتناع بإمكانية إنجاز المشروع. إنني لم أكن أشك في إرادة العاهل المغربي، لكنني كنت واثقا من أن بعضا من المحيطين به سيثيرون معه مخاطر نشر الكتاب إن هو أقدم على مغامرة إصداره كما سيحاولون إقناعه بالتخلي بتاتا عن المشروع.

وعدت إلى الرباط في التاسع من شهر أغسطس (آب). وفي العاشر منه استقبلني الحسن الثاني بعد الزوال لمدة وجيزة بقصره في الصخيرات على شاطئ البحر. كنت أحمل معي مخطط عمل مضبوط ومدقق، غير أن ما قاله لي الملك زاد من مخاوفي. فقد شرح لي أنه منهمك في إعداد دستور جديد، كما أنه يتأهب لتغيير الحكومة، الشيء الذي يضطره إلى تأجيل بداية حوارنا لبضعة أيام.

والتقينا في رابع عشر أغسطس (آب). وانطلاقا من هذا التاريخ اتخذت لقاءاتنا شكلا منتظما، مما فاجأ بدون شك المحيطين به. فالملك معروف عنه أنه لا يرضخ للروتين. وفي إحدى الأمسيات قال لي وهو بين المرح والقلق: «أعتقد أن علي أن أنخرط في إحدى النقابات، ذلك أنني لم أعرف أبداً ومنذ غادرت المدرسة الثانوية مواقيت ملزمة بهذا الشكل».

وهكذا وكل يوم، حوالي الثانية والنصف بعد الزوال، كنت أصل إلى أبواب القصر بالصخيرات حيث يفضل الحسن الثاني قضاء أيام الصيف. وحوالي الثالثة كنا نلتقي تحت خيمة لنواصل العمل. وفي المساء، كنت أتوجه إلى

الرباط حيث أجتاز البهو الفسيح الداخلي للقصر قبل أن ألج في التاسعة والنصف قاعة العرش حيث كان يحضر الحسن الثاني بعد وقت وجيز. وفي ظرف بضع ساعات كان العاهل المغربي يغير مظهره تماما بحيث كان بعد الزوال يرتدي اللباس الأوروبي. وفي المساء كان يرتدي الجلابة ويحمل السبحة في يده. وهذه المفارقة تعكس بشكل جلي ازدواجية شخصيته واختياراته. فملك المغرب ذو الثقافة الغربية ظل متمسكا أيما تمسك بجذوره المغربية والإسلامية. كما أنه كان على الدوام الرجل الذي يوفق بين الأصالة والمعاصرة.

لقد كانت جميع لقاءاتنا تتم على انفراد، باستثناء لقاء أو اثنين. وعندما كنت أجلس أمامه لم يكن أبدا على اطلاع سابق على المواضيع التي سأتطرق إليها معه أو الأسئلة التي أود طرحها عليه. ولم يبد الملك في أي وقت من الأوقات رغبة في الخروج عن هذه القاعدة المتفق عليها ضمنيا بيننا.

وفي بعض الأوقات كنت أشعر أنه منقبض، وأوقاتا أخرى، كنت أشعر أنه قلق من بعض القضايا التي كنا نتناولها والتي ربما كانت تشكل بالنسبة له انزعاجا أو حرجا. لكنه لم يتهرب أبدا من التطرق إليها. وطيلة تلك المدة لم يعترضني إلا رفض واحد. وذلك عندما طلبت منه رسم معالم شخصية أوفقير. فرد قائلا: «لن أكون موضوعيا وسأرسم لوحة رديئة».

وهكذا تواصلت لقاءاتنا حتى نهاية شهر أغسطس (آب). ثم استؤنفت لعدة أيام في شهر سبتمبر (ايلول).

إن استجوابا يستغرق كل هذه المدة قد يبدو صعبا. ذلك انه خلال الجلسات قد يتولد وينمو نوع من التواطؤ اللاإرادي غير المعبر عنه بين الطرفين. وأحيانا قد يبدو المستجوب مبهورا بالشخصية التي يستجوبها. وهذه الخطورة المزدوجة قد يتمخض عنها نص في غاية الجمال والإبداع وأعتقد أنه من العسير الزعم بأن هذه حالة هذا الكتاب. خاصة وقد قال لي العاهل المغربي في ختام لقاءاتنا: «لقد كنتم حقيقة ملحاحين».

وعلى امتداد هذه الأسابيع لم أنبهر. ولكنني أحسست على الدوام باهتمام بالغ. والواقع أن الحسن الثاني ليس بالشخصية التي يمكن تحديد معالمها في بضعة أسطر. فقد أبان دائما عن إلمام واسع بالقضايا التي تم التطرق إليها وبرهن على تماسك سياسي منطقي لا يشك فيه أحد في فرنسا. فالرجل له نظرة واضحة وصارمة لدوره ولمستقبل بلاده. إنه تارة يستذكر وأخرى يحلل. وفي الغالب كان بارعا وأحيانا غريبا. لقد كان مرة يقترح ويدقق. وأخرى يفتح أبوابا تؤدي إلى الكشف عن حقائق مذهلة. لذلك يمكن القول إن أي رئيس دولة ممارس لم يذهب أبدا إلى المدى الذي ذهب إليه الحسن الثاني.

لقد تمكنت من طرح جميع الأسئلة التي كنت أود طرحها أو أشعر أن من واجبي طرحها. وفي بعض الأحيان لم

تكن أجوبة العاهل المغربي تقنعني، وأحيانا أخرى على العكس من ذلك كانت أجوبته تنيرني حول أشياء غير متوقعة. أتاحت لي الوقوف على حقيقة لم أكن أتصورها أو أتوقعها.

وعلى أية حال، فعندما أعاد الملك قراءة نص هذا الحديث، بعد الانتهاء من إعداده، لم يدخل عليه أي رتوشات أو تصحيح.

وبسبري لأغوار تاريخ المغرب أدهشتني ظاهرة كانت قائمة على امتداد عهد الحماية وما زالت موجودة إلى يومنا هذا تحت أشكال أخرى هي اندفاع بعض الأوساط في فرنسا بجميع اتجاهاتها السياسية والإديولوجية لإصدار أحكام مسبقة على حقيقة هذا البلد. ذلك أنه لا شيء يشوه الحقيقة في الأخبار أكثر من التبسيط المفرط للأشياء والحكم السريع عليها.

ويشكل المغرب بتاريخه ومآسيه لحمة هذا الكتاب وسداه. ذلك أن هذا البلد شأنه شأن جميع الأمم العريقة، متكامل كتكامل شخصية عاهله.

إيريك لوران

الفصل الأول

والدي وأنا والاستقلال

سؤال : أنتم يا صاحب الجلالة من مواليد سنة 1929 . ماهي الأحداث السياسية الأولى التي كان لها وقع في نفسكم؟

الجواب : تأثرت بحدثين. أولهما مر كلمح البصر. كان ذلك عام 1937 وكان عمري أنذاك ثماني سنوات. كنت برفقة والدي وهو يزور باريس. جاء أصحاب الدراجات النارية لخفر سيارتنا من نزل « ليجل نوار » بمدينة « فونتنبلو » حيث كنا نقيم، وتوجهنا إلى باريس، وعلى طول الطريق المؤدي إلى العاصمة أحاط بسيارتنا رجال الدراجات النارية. وأتذكر أننا، بفضلهم اخترقنا العاصمة الفرنسية بسرعة كبيرة. لقد انتابني، وأنا مشدود إلى نافذة السيارة، شعور غريب قريب من الخيال. كانت الأزقة والشوارع في باريس تكاد تكون خالية من المارة إلا ما كان من قوات كثيفة للشرطة كانت ترابط في عدة نقاط استراتيجية. وعندما وصلنا إلى نزل « كريون » طلبت من أحد المسؤولين أن يخبرني عما يجري، فأنبأني وهو في حالة من القلق أن حركات اليسار ستنظم مظاهرات ضخمة لتأييد حكومة الجبهة الشعبية، في حين ستنظم أحزاب اليمين مظاهرات مضادة. وهكذا اكتشفت واقعاً سياسياً كنت لا أدركه من قبل.

أما الحدث الثاني، الذي أثر في أيضا، فيعود الى سنة 1940 . لقد لاحظت أنذاك لأول مرة حالة قلق تنتاب والدي. كانت الساعة تشير الى الخامسة عشية حين سمعنا عبر أمواج الإذاعة، خطاب المارشال بيتان الذي دعا فيه إلى ضرورة التوقيع على الهدنة. كان والدي يقوم بمقابلة في لعبة كرة المضرب فتوقف فورا عن اللعب وتوجه إلى مقر النادي حيث أحاط به عدد من الفرنسيين وهم يبكون .لقد أصيب والدي بصدمة. أما أنا فقد شعرت أن النكسة التي حلت بفرنسا كانت بالتأكيد تمثل بالنسبة إليه حزنا عميقا.

سؤال : ألم يبد هذا الحدث لوالدكم، في لحظة من اللحظات، وكأنه فرصة سياسية سنحت للمغرب؟ ذلك أني استحضر هنا ما جرى في الهند، حينما استفاد غاندي ونهرو من المصاعب التي تعرض لها الإنجليز. فهل كان ممكنا أن يفكر والدكم، في قرارة نفسه، بأنه قد يكون من الأسهل عليه أن يتفاوض بشأن مستقبل المغرب مع ألمانيا عوض التفاوض مع البلد الذي فرض عليه الحماية؟

جواب : لم تراود هذه الفكرة والدي إطلاقا. لقد رأيته يضع يديه على رأسه وهو يتساءل : ترى! ما هو مصير بلدي؟ كيف سنستطيع التفاوض من جديد مع الألمان بخصوص وضع قائم فرضته الحماية؟ لكن تصوره للالتزام كان لا يتزعزع. وطيلة فترة الاحتلال كانت هناك لجنة للهدنة بالدار البيضاء. وقد عبر أعضاؤها ذات يوم عن رغبتهم في زيارة رياض القصر الملكي بالرباط. وقد اقترح عليهم والدي القيام بتلك الزيارة يوم السبت. ومساء يوم الجمعة توجه إلى الدار البيضاء، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وحضرالزوار فعلا، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام قصر خال. لقد كان والدي حريصا كل الحرص على أن يعرفوا سبب ذلك الفراغ. ومن جهة أخرى فلا سبيل للمقارنة بين الجنود المغاربة الذين حاربوا في فرنسا وجنود البلدان المستعمرة الأخرى. فالجنود المغاربة توجهوا الى فرنسا في أعقاب النداء، الذي وجهه والدي وتمت تلاوته بعد صلاة الجمعة في جميع المساجد، حيث دعا فيه المغاربة الى التجند للقتال بجانب فرنسا. ولهذا السبب كان والدي هو رئيس الدولة الوحيد الذي وشح الجنرال دوغول صدره بوسام « رفيق التحرير ».

سؤال: هل كان والدكم يشعر بعد تلك المبادرات أنه بمجرد انتهاء الحرب سيكون التفاوض بشأن نظام الحماية أكثر سهولة؟ وهل كان يعتمد على تفهم كبير للفرنسيين؟

جواب: كان والدي، قدس الله روحه، رجلا صبورا. وكان صبري لا يرقى إلى صبره. ولم يكن مثلي متفائلا بل كان ذلك الرجل الواقعي حقا، مثلما كان مؤمنا بالعدالة الإلهية. وكثيرا ما كان يقول لي: «لا يمكن لفرنسا، بعد التضحيات التي قدمها المغرب في سبيل قضيتها، ألاّ تصغي إلى خطابنا وألاّ تتفهم مطالبنا». إلا أن رجلا واحدا فقط هو الذي سمع خطابنا وتفهّم مطالبنا... إنه الجنرال دوغول.

ففي سنة 1944 تم التعبير لأول مرة بواسطة عريضة عن المطالبة بالاستقلال. وقد أعقب ذلك قمع دموي قاده السفير بيو الذي كان أنذاك مقيما عاما بالمغرب، بينما كان الجنرال لوكلير والفرقة المصفحة الثانية مرابطين في تمارة بضواحي الرباط.

سؤال: يقال إن الفرقة المصفحة الثانية تدخلت لدعم عمليات القمع.

جواب: أبدا، لم تتدخل قط. فبيو اتصل بلوكلير والتمس منه الدعم والمساندة. فكان جواب لوكلير: «لست هنا لأمارس القمع. ثم إن المغرب استضافنا على أرضه ليمكننا من أن نتدرب على خوض غمار الحرب. إضافة إلى أن هناك العديد من الضباط المغاربة من بين تلاميذي». وهكذا عارض لوكلير كليا السماح بأن يشارك في عمليات الحفاظ على الأمن ولو فرد واحد من جنوده، حتى ولو كان بدون سلاح.

سؤال: وماذا كان موقف الجنرال دوغول سنة 1945؟

جواب: سافرنا إلى فرنسا مباشرة بعد التحرير، حيث قمنا بتلك الرحلة على متن الطراد (لاكلوار). وأنا يومئذ في الخامسة عشرة من عمري. وطيلة تلك الرحلة التي دامت يومين ونصف اليوم، مكثت وحدي في غرفتي بالسفينة أنسخ بيدي مذكرة من نحو أربعين صفحة. يتعلق موضوعها بمستقبل المغرب. إنها المذكرة التي كان والدي يعتزم تسليمها للجنرال دوغول... وهي المذكرة التي حررت بمساعدة أقطاب الحركة الوطنية الذين لم يكونوا قد اعتقلوا بعد. كان ضروريا ألاّ يتعرف أحد على خط أي واحد منهم، لذا أنيطت بي مهمة النسخ. لقد كنت في وضع التلميذ الذي يطبق على نفسه عقوبة مدرسية، أو كأني كنت أتلقّى بسرعة خارقة درسا عظيما في مادة التاريخ. كنا في تلك الفترة نقيم بقصر تاليران، المعروف بالقصر الوردي الواقع بشارع فوش بباريس. وهناك قابل والدي الجنرال دوغول وسلمه المذكرة ذات الأربعين صفحة بعد أن كنت قد أتممتُ نسخها.

قال الجنرال لوالدي: «جلالة الملك، لست في الوقت الراهن إلا رئيسا لحكومة مؤقتة للجمهورية. وعندما ستناط بي مسؤولية تصريف الأمور، فكونوا على يقين من أنني سأولي الاعتبار لهذه المذكرة. ومع ذلك سأبرهن لكم منذ الآن على صدق نيتي. لقد طلبتم يا جلالة الملك ثلاثة أشياء. أولها ألا يبقى بيو مقيما عاما. وسأحقق رغبتكم بعد أيام. وثانيها أن يعود الزعيمان الوطنيان علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني من منفاهما. وأعدك أنهما سيعودان بعد بضعة أسابيع». أما ثالثها فيتعلق بإطلاق سراح الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، بعد ان تعامل مع الألمان طيلة الحرب. وردّ والدي قائلا: «إنني لا أعرفه شخصيا ولكنه ابن عمي، ومكانته الدينية مرموقة. وليس من مصلحة فرنسا في شيء أن تعاقبه. لذلك أرجوكم العفو عنه» فقال دوغول: «لكم ما طلبتم يا

جلالة الملك » .

سؤال : هل تعتقدون أن المغرب كان سيخطو نحو الاستقلال ، بكيفية أسرع ، لو بقي الجنرال دوغول في الحكم؟

جواب : نعم ، بالتأكيد .

سؤال : هل هذا مجرد إحساس منكم أم أنكم موقنون بذلك؟

جواب : لكي يكون ذلك يقينا ، كان يتعين أن يظل الجنرال دوغول مدة طويلة في الحكم ، ليس ذلك فحسب ، وإنما كان يتعين أيضا أن يكون رئيس الدولة الذي سيخلفه من أحد أتباعه . بَيْد أنني أظن أن « الدوغولية » ليست حركة ولا حزبا ، ولكنها قبل كل شيء خلق ، وكيفما كانت درجة المحاكاة عند الأتباع يبدو من الصعب السير تماما على نهج المرشد الأول بعد عشرين سنة من غيابه ، وعلى أي حال فإنني كنت مقتنعا بأن دوغول لو ظل في الحكم لكان سيحقق طفرة نوعية باعتماد إصلاحات مهمة . فمثلا كان سيَحُول دون التدخل المباشر في شؤون المغرب ، وهو التدخل الذي استنكره ليوطي في تقريره المؤرخ بـ 1919 حين تحدث عن الإدارة المباشرة . وأعتقد أن دوغول كان سيعيد المعمرين إلى جادة الصواب ليحول دون تحكمهم في تعيين المقيمين العامين وإعفائهم .

سؤال : ما هو الشيء المستهجن أو الذي لم يكن ليطاق بالنسبة إليكم ، وأنتم في ريعان الشباب فيما يتعلق بالوجود الفرنسي ببلادكم؟

جواب : هل أنتم مصرون على أن أجيبكم؟

تعقيب : نعم .

جواب : طيب ، قبل كل شيء ، كانت هناك ظاهرة العنصرية . فبالنسبة لبعض الفرنسيين كان كل مغربي يسمى محمدا . ولم يكن من حق أي مغربي أن يخاطب بصيغة الجمع بل كانت القاعدة السائدة هي مخاطبة المغاربة بصيغة المفرد .

كان والدي يحرص على أن أعيش كسائر المواطنين . لقد قضيت جميع عطلي في شواطئ الرباط والدار البيضاء ، حيث كنت ألعب كرة القدم ، وأغلب الظن عندي أن ذلك هو ما أتاح لي أن أعاشر أناسا أصبحوا بعد ذلك نزلاء سجون الحماية ، ثم أساتذة جامعيين . وأذكر عن تلك الحقبة أن فرنسيين خاطبوني بصيغة المفرد في مناسبات عديدة . كما وصفوني بغبي ، ورموني بلفظ « بيكو » . ولقد آلمني ذلك لا بوصفي أميرا ولكنه خدشني في وطنيتي . لقد كان ذلك جرحا عميقا لا يحتمل . وبما أنكم رغبتم في التعرف على هذه التفاصيل فها أنا قد طرحتها أمامكم . لكنني أعفيكم من تفاصيل أخرى لا أرغب في التطرق اليها .

واعلموا في النهاية ، أنه اذا كانت هناك صداقة فرنسية مغربية صامدة رغم كل شيء ، فإننا مدينون بالكثير لفرنسيي فرنسا ، فهم الذين أضفوا على هذا الرصيد من الصداقة الطلاء الواقي . ولو ظللنا نتعامل فقط مع فرنسيي المغرب فإن الحالة كانت ستؤول إلى ما لا تحمد عقباه . وذلك رغم الشجاعة التي تحلّى بها بعضهم حين تضامنوا معنا .

سؤال : عندما تقولون « ما لا تحمد عقباه » هل تقصدون أن الأمور كان يمكن أن تتحول الى مواجهة بين الجانبين؟

الجواب : نعم، لأن ضلال المعمرين واستكبارهم ـ وهو ما كان ينطبق كذلك على رجال الأعمال الفرنسيين ـ لم تكن لهما حدود. وعلى العكس من ذلك كانت ثمة فئة خيرة. وهي التي كان يشكلها الأساتذة. لقد كانوا أناسا ممتازين حقا. وكانوا يكوّنون نخبة. لأنهم جميعهم، مبرزون. ثم إن هؤلاء الأساتذة سواء، منهم أولئك الذين كانوا في الأقسام الثانوية أو الذين كانوا في التعليم العالي لم يرتضوا أبدا أن تخدش السياسة الاستعمارية ولو بالنزر اليسير رسالتهم المبنية على تلقين المعرفة. وأذكر أنه في الوقت الذي كان يشتد فيه توتر العلاقات بين الإقامة العامة والقصر لم يكن أساتذتي يتدخلون بأي شكل من الأشكال، بل كنا نشعر بعطفهم علينا. وهنا لا أقصد أساتذة الرباط دون الآخرين. لقد كوّنوا جميعا أجيالا في كبريات ثانويات المغرب.. أذكر مكناس على سبيل المثال. فبهذه المدينة كانت توجد أكبر ثكنة فرنسية. وكان يرابط بها باستمرار ثمانون ألف جندي، وبهذه الناحية كان يعيش أكثر المعمرين رجعية، بل أكاد أقول أكثر ظلامية، ومع ذلك لم يحدث البتّة بثانوية مكناس أدنى مشكل بين الأساتذة وتلامذتهم المغاربة.

سؤال : في أي وقت نشأ الوعي لديكم بأن الاستقلال هو النتيجة الحتمية؟ وبماذا شعرتم؟

جواب : هناك تاريخ مضبوط ظل عالقا بذاكرتي، هو 29 يناير (كانون الثاني) 1944. ففي ذلك اليوم اكتسح جمهور من المتظاهرين شوارع الرباط مرددين شعارات المطالبة بالاستقلال، وبلغني صدى هذه المظاهرات وأنا داخل المعهد المولوي. فتخطيت سوره والتحقت بالمتظاهرين.

وتطورت الأحداث إلى وضع مأسوي حيث قتل من قتل. أما بالنسبة لي فقد أحرج سلوكي هذا والدي وذلك حين استنكرت الاقامة العامة الفرنسية ما قمت به. وأوفدت سلطات باريس «عقيدا» من أعضاء المكتب الثاني حيث أقام بالمغرب ثلاثة أسابيع للتحقيق في أنشطة الأمير مولاي الحسن ومشاعره المعادية لفرنسا. وبشيء من الإحراج قال لي والدي: «ألم يكفك ما أحمله من هموم؟ وبما أنك تطمح إلى تقمص دور الزعيم السياسي، فستدخل بدورك السجن..» فحاولت تبرير موقفي وقلت: «ولكن سيدي...» فأوقفني وقال: «أبداً. لا تقل شيئا، حتى تدرك أن تصرفك هذا ليس مجانيا ولا يسيرا». وأعادني الى المعهد حيث حرمت من الخروج لمدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر. والحقيقة أن الوالد الحنون كان خائفا على ابنه. فقد كنت شيئا ما عنيفا، وكلامي كان يتسم بالحدة. لا تنسوا أنني كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري، وفي مثل هذه السن لا أثر للنسبية في الأحكام. أما والدي فقد كان حاسما في خياراته الأساسية ولكنه كان يتكلم معتمدا لغة المجاز ولم يكن أبدا عنيدا.

لقد ترك يوم 29 يناير (كانون الثاني) بصماته بعمق في ذاكرتي. كان معي يومئذ ثلاثة من رفاقي في المعهد وكنا نصيح بصوت واحد: «سنحصل على الاستقلال». وقلت لهم: «الاستقلال، ما معناه؟ معناه أننا سندير شؤوننا بأنفسنا وأننا سنكون مسؤولين عن كل شيء» فقالوا بنبرات، لا تخلو من الاندهاش: «نعم بالطبع». وأتذكر أني قلت لهم بالحرف: «هذا ما يجب أن يكون، إلا أنكم سترون أن الأمر لن يكون هزلا كما يخيل إليكم.»

سؤال : هل استعملتم لفظ «هزل»؟

جواب : نعم . لقد ضحك رفاقي بينما شعرت أنا بفرح عارم ، مشوب بشعور رهيب . كنت سعيدا لأن الأمور كانت تتحرك . ولكنني كنت مهموما . كانت لديّ فكرة غامضة بعض الشيء عمّا ستكون عليه هذه المسؤولية . ولكنني كنت عاجزا عن تحديد المجال والكيف والوقت . كنت مشغول الفكر بمطالبتنا يومئذ بالاستقلال . لا لأنني لم أكن أريده . وإنما لأنه كان في منظوري يمثل قفزة نحو المجهول .وربما كان شعوري هذا نابعا أيضا من جسامة الإرث التاريخي الملقى على كاهلنا . وهو شبيه بشعور رئيس الأوركسترا وهو يقوم بتسييرها .

سؤال : بالنسبة لتلك الحقبة . ما هي الرؤية - وإن كانت لم تتضح بعد - التي كانت لديكم عن مغرب المستقبل؟ ما الذي كان يبدو لكم أكثر استعجالا من غيره؟

جواب : في الإمكان اليوم تقديم إجابات مقنعة إلى حد ما ، لكنها لن تعكس الحقيقة . لقد كنت في ذلك الوقت أتصور أن حرية المغرب تتجسد في ذهاب المقيم العام الذي عليه أن يترك البناية المشيدة بالرباط فوق هضبة عالية إلى إنسان آخر . هذا كل ما في الأمر .

سؤال : ما هي أول ذكرى لديكم عندما كنتم شابا يافعا في ميدان السياسة الخارجية؟

جواب : بدون شك لقاء ، أنفا سنة 1943 . كنت في الرابعة عشرة من عمري ، وكان اليوم يوم جمعة بعد الزوال من شهر فبراير (شباط) . كنت في حجرة الدراسة حين جاء والدي فجأة للمعهد المولوي . وأعطاني مهلة عشر دقائق لأتهيأ وقال : « ارتد لباسك الرسمي ، أي جلبابك ، لأننا نتوجه لتدشين مدرسة في الدار البيضاء » . استغرب المدير والناظر والحارس العام هذه السرعة غير المعتادة . فقد جرت العادة أن يكون تاريخ حدث مثل هذا معروفا من قبل ، وخاضعا لمراسم مضبوطة ودقيقة . أما في هذه المرة فلم يحدث شيء من هذا القبيل .

وهكذا سافرنا نحن الثلاثة والدي وأنا وسائقه التولوزي (نسبة الى مدينة تولوز الفرنسية) واسمه مارتي . ومارتي هذا مكث طويلا في خدمتنا حيث قاد سيارات جدي وأبي وسيارتي . وساق السيارة التي حملت ابني البكر عند ولادته . فعندما ازداد ابني البكر قال لي مارتي : « صاحب الجلالة ، لم أعد أقدر على السياقة ، ولكنني اليوم أود أن أقود السيارة التي ستحمل الأمير الوليد من المصحة إلى إقامتكم لأكون بذلك سائقا للجيل الرابع » . وبالفعل ظل إلى آخر حياته مديرا لمصلحة السيارات بالقصر الملكي .

نعود إلى رحلتنا . فعندما وصلنا إلى قصر الدار البيضاء ، أخذ والدي ما كان قد اقتناه ليقدمه هدايا لضيوفه . وتوجهنا إلى أنفا حيث تركني في « الفيلا » التي يقضي بها الصدر الأعظم عطلة الصيف ، وهناك وجدت نفسي أنتظر مع الجنرال نوكيس . وطيلة المدة التي استغرقتها الرحلة لم يكشف لي والدي عن شيء . ولما عاد انتظرنا ساعة ثم ساعة ونصف الساعة ، وأخيراً رنّ جرس الهاتف .فتوجهنا في سرية تامة إلى « فيلا » أخرى . وكان الليل قد أرخى سدوله .

عند وصولنا لاحظت في إحدى القاعات الفسيحة وجود طاولة كبيرة ... جلس إليها رجلان طاعنان في السن . سلما بحرارة على والدي عند دخوله . وبسرعة تعرفت عليهما . فقد سبق أن رأيت مرارا صورتيهما . وأخذني العجب : إنني سأتناول العشاء مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فرنكلين روزفيلت ، والوزير الأول البريطاني ونستون تشرشيل .

كان أمر هذا العشاء غريبا . كان روزفيلت ينعش الحديث بمرحه ، ويلقي أسئلة على والدي، ثم يعود ليستفسر مساعديه « مورفي » و« أفيريل هاريمان » عن جزئية ما . وكنت أنظر اليه منبهرا . كان ينبعث منه شيء إيجابي للغاية . لقد بدا لي كعم مثالي سيهديني قطعة من الحلوى أو آخر مبتكرات الأقلام واللعب . أما تشرشيل ، علما بأنني كنت أكن له كل التقدير . فقد بدا لي على العكس من روزفيلت منغلقا وهو يعض على سيجاره . وكان قليل المشاركة في المذاكرة . لقد علمت فيما بعد سبب انزعاجه . لقد كان روزفيلت في معرض حديثه مع والدي من قبل قد قال له : « صاحب الجلالة ، نظرا للمجهود الذي بذله المغرب ، كبلد محمي ، دفاعا عن قضية السلام ، اسمحوا لي أن أؤكد لكم أن المغرب سيكون مستقلا بعد مضي عشر سنوات » . إن أجل عشر سنوات هذا ولا ريب أمر غريب ، حيث اننا نستطيع اعتبار سنة 1953 سنة ممهدة لعهد استقلال المغرب ، ولم يرتح تشرشيل لهذا الوعد لأنه اعتبره بمثابة ناقوس خطر بالنسبة للقوة الاستعمارية البريطانية . لقد أدرك الوزير الأول البريطاني أن مثل هذه الأمور كمثل جوارب النيلون ، متى نزعت منها خيطا تتبعه بقية الخيوط .

إن هذا الاجتماع الذي عقد في سرية تامة كاد يتعرض لنهاية مفجعة ، لأن خبره بلغ الألمان . ولكن لحسن الحظ جاء في الشفرة المبرق بها إلى برلين تسمية الدار البيضاء بـ « البيت الأبيض » اعتمادا على ترجمة حرفية (وايت هاوس عوض كازابلانكا) من الإسبانية إلى الانجليزية . فظنت القيادة العليا الألمانية أن لقاء روزفيلت بتشرشيل تم بواشنطن . وبعد ذلك تقابلت مع تشرشيل عدة مرات وأنا ولي للعهد . وكان قد أصبح رجلا عاجزا لا يبارح مسكنه . ومع ذلك ففي كل مقابلة كنت أجده بلباسه الأنيق (الجاكيت والسروال المخطط) وكان في كل مرة يحرص على مرافقتي حتى الباب لتوديعي . كان يتكلم بلسان فرنسي مع لكنة « تشرشيلية » محاولا تنميق هذه اللغة مما ينم عن قدر من الدلال .

سؤال : لقد كانت الولايات المتحدة تنظر باستمرار نظرة اهتمام لتطور المغرب .

جواب : ينبغي أن لا يغيب عن الذهن أننا أول بلد في العالم اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك قبل مائتي عام . وأن أول نزاع في حياتها الدولية كان مع ليبيا . في ذلك الوقت طلبت الولايات المتحدة من جدي محمد الثالث التدخل لدى المسؤولين الليبيين . وكذلك لدى القراصنة الليبيين من أجل إطلاق سراح الأسرى... إن هذا يوحي بأن التاريخ يكاد يعيد نفسه... صحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية شعرت دائما بانجذاب نحو المغرب . ويرجع هذا . شيئا ما . إلى أننا نقع على مدخل البوغاز . إنه موقع يتميز به بلدنا ..

سؤال : هل فكر والدكم أو فكرتم أنتم في وقت من الأوقات في إمكانية أن تحل الولايات المتحدة الأمريكية محل فرنسا؟

جواب : هذا غير وارد إطلاقا لسبب بسيط ، وهو أنه لا أمريكا ولا فرنسا يمكنهما بأي وجه من الوجوه أن تشكلا عنصر تعويض الواحدة بالنسبة للأخرى ، ومرد ذلك يرجع إلى ماضيهما وبينتيهما وعقليتيهما . فحتى في زمن الحماية لم نفكر لحظة واحدة في أن تحل واشنطن محل باريس . فالولايات المتحدة عالم آخر . ولا بد من اجتياز المحيطات لولوجه . في حين أنه منذ قرون خلت توطدت قرابة جوار تاريخي بين إفريقيا وأوروبا . وبين المغرب وفرنسا .إنها حقائق لا يمكن أن تمحى في بضعة عقود .

لا. بكل صراحة. لم أفكر في هذا قط طالما أنه من محض الخيال. أعتبر أن الفرنسيين نظروا دائما بشيء من العطف إلى حضور أمريكا في المنطقة. والحقيقة أن الحقبة الوحيدة التي كان بإمكان أمريكا ان تلعب أثناءها دورا في الشؤون المغربية هي حقبة السنوات الأخيرة للحماية. لقد كان بوسعها أن تحد من نفوذ الإقامة العامة أو أن تحاول القيام بوساطة لإصلاح ذات البين. لكن في ذلك الوقت كانت أمريكا مهتمة أساسا بمنظمة حلف شمالي الأطلسي «الناتو» التي كان مقرها في مارن لاكوكيت (بفرنسا).

الفصل الثاني

من الوفاة إلى العرش

سؤال: كيف تتم تربية ملك؟ وعلى ماذا ترتكز؟

جواب: المسألة في غاية التعقيد. أعتقد أنه يتعين قبل كل شيء، على الأب أن يكون مربيا من الدرجة الأولى، ثم بالإضافة إلى ما يلقنه من مبادئ يجب أن تكون حياته اليومية مثالا ومرآة. وأيا كانت الأسر، فإنه عندما تكون رابطة بين الأب وابنه تحدث المحاكاة، بحيث يحرص الابن على أن يمشي ويجلس ويحمل شوكته تماما كما يفعل أبوه. فهو عنده المثل الأسمى.

بطبيعة الحال، تضاف إلى ذلك تربية مدرسية مرتكزة على الوعي بالمسؤولية وبالعمل المتعين القيام به. وهاكم مثالا، عندما كنت تلميذا كان يحدث أن تكون نقطي أصفارا، ولكن أبي لم يعاقبني قط. وعندما تكون النقطة 4 أو 5 على 20 كان العقاب واردا. كان يتقبل أن تكون ثمة عثرات، ولكنه كان لا يتحمل الرداءة. وفي الواقع وهذا عنصر مهم عشت طوال سنيّ الطفولة والمراهقة في جو يشبه جو المحكمة. كنت أعلم أنه يمكن في الطور الابتدائي «للمحاكمة» توقع صفح أساتذتي أو مربيتي، أما في الطور الاستئنافي، عندما يصل الأمر إلى والدي، فإن العقاب يصبح واردا.

سؤال: وكيف كانت طبيعة ذلك العقاب؟

جواب: إلى حدود العاشرة من عمري أو الثانية عشرة تلقيتُ ضربات بالعصا، وكان يسعدني أن أتلقاها من أبي لا من غيره. على أننا حتى اليوم نعلم أن فقيه المدرسة القرآنية يمتلك عصا غالبا ما يضرب بها على الأيدي، لأن الكف أكثر حساسية. لقد طبقت نفس الصرامة الأبوية مع أبنائي، وأحمد الله على أنني لم أجدْ صعوبة في تربيتهم.

إنه لا ينبغي استعمال المنطق مع الصبي، وإلا كنا نطالبه بمجهود ذهني يفوق طاقته، فضلا عن كونه لا يدرك الغاية منه. وإذا نحن أخذنا محاجته فإنه سرعان ما يميل إلى الاعتقاد بأننا نسعى إلى مفاوضته. وإجمالا ففي هذه السن كما قال باسكال يحسن طي الآلة وتبسيطها .ذلك أن الطفل لن يفهمنا إلا بعد ردح من الوقت يتبين له أثناءه أن تلك المحاجة لم تكن صادرة عن ضعف.

سؤال: في أي وقت شعرتم بشخصيتكم المميزة ووعيتم الدور الذي ينتظركم؟

جواب: لقد شعرت بهذه الشخصية المتميزة منذ صباي، عندما اكتشفت الوسط العائلي والتشريفات المضنية أحيانا، والأسوار العالية للقصور التي ترعرعت داخلها، حيث كنت أشعر أحيانا بالعزلة... وبعد ذلك أصبح لهذا التفرد ما يبرره عندما شرح لي لماذا تتعين تنشئتي بهذا الشكل.. لقد اكتشفت أنني أهيأ لدور ما. وهكذا تنامى وعيي تدريجيا، وكان لوالدي في ذلك دور حاسم.

وذات يوم لم أتقن عملي، فاستدعاني والدي إلى غرفته، كان يرتدي ثيابه استعدادا لأداء صلاة الجمعة. لقد فاجأني بهذا السؤال، ألا ترضى أن يتفوق عليك شخص آخر في كل شيء؟» فأجبت: «بل أوثر ألا يحدث ذلك» فقال: «بلى، إذا تعلق الأمر بابنك» وأضاف والدي: «عليك إذن أن تعلم أنني أحب أن أكون الأفضل، لكني سأكون أسعد الناس حينما ستصبح أفضل مني». وهنا انتهى الحديث وعاد والدي إلى ما كان بصدده.. لقد كان عمري آنذاك ثمانية أعوام.

سؤال: حتى لو كان المرء مهيأ للحكم فإنه عندما يتسلم مقاليده يحس بالصعوبة؟

جواب: في الحقيقة لا يكون الإنسان أبدا مهيأ للحكم، لأن هناك دائما هوة حقيقية لا بُدّ من تخطيها. ولـمّا توفي أبي صرت كالميت الحي لأنني دفنت ولي العهد.

سؤال: ماذا دفنتم؟

جواب: حريتي. وكذلك الشعور بأني محمي بمظلة الراعي كيفما كانت الأحوال. لقد وجدت نفسي فجأة في مواجهة مصيري، فكان علي أن أعيد بناء كل شيء بما في ذلك أسلوب حياتي. كنت حتى ذلك الوقت أعيش حياة العزوبة طليقا حُرّاً كالهواء، لا أتقيد إلا بالمواقيت التي كان والدي يرى إلزامي بها. أما ارتقاء العرش فشبيه بوضع صاروخ ذي طابقين، بحيث يتعين على المرء أن ينسحب من الطابق الأسفل طالما أنه يستهدف الوصول إلى المدار والتأهب للتخلص من الجاذبية. إنه المسار الذي يقتضي التضحية بالعديد من الأشياء.

سؤال: بماذا مثلا؟

جواب: أفضل أن لا أخوض في هذا الحديث.

سؤال: أهي أشياء مهمة؟

جواب: إنها أشياء خاصة.

سؤال: عندما تربعتم على العرش هل كنتم مدركين أن ملككم معرض لاجتياز لحظات حرجة؟

جواب: كلا. بالطبع كنت أعلم أن الأمر لن يكون سهلا. والحمد لله على أن أبي كان شديد الحرص على أن أتابع دراسات معمقة في الأدب، وفي التاريخ خاصة. هكذا توفرت على ما يشبه قائمة بجميع ما يمكن أن يحصل لي. ومع هذا يجب القول بأن الحادثين اللذين وقعا سنتي 1971 و1972 لم أكن أتوقعهما بتاتا. لم أكن أتصور أن يأتي الخطر من الجهة التي أتى منها.

سؤال: أكان لديكم الشعور بأنكم على أتم استعداد لهذه المهمة؟

جواب: قبل كل شيء، سأقول لكم شيئين أعتبرهما أساسيين. فبكل صراحة إذا كان ممكنا برمجة إنسان على حاسوب فإنني أحرم على نفسي برمجة ملك.إن كل شيء رهين بطبيعة الفرد، ثم إنني لم أفكر أبدا في ارتقاء العرش.

سؤال: هل تتكلمون بجد؟

جواب: لقد كان أبي يكبرني بعشرين عاما. كنا نتذاكر ذات يوم، فقلت له: « إنكم سيدي، في ريعان الشباب، وسيهبكم الله عمرا مديدا، إذ ليس بيننا سوى عشرين سنة. أتتصورون سلطانا جديدا للمغرب يمتطي لأول مرة صهوة جواده للتوجه لأداء الصلاة وهو يمسك بيد مرتعشة قربوس سرجه؟ هذا مستحيل. كل ما أتطلع إليه هو أن أهبكم ولدا لتتولوا تربيته وتكوينه لأجل أن يخلفكم بعد سنين طوال، طوال... أما أنا فلماذا أضع في ذهني شيئا لم أكن أفكر فيه؟ ذلك أنه لا يمكن اعتلاء عرش المغرب في سن الستين، لأن هذا البلد بلد شباب. لقد كان أبي في صحة وعافية جيدتين. مات في أعقاب عملية جراحية بسيطة أجريت له على وتيرة الأنف، ومثل هذه العملية هي مصدر رزق الأطباء المختصين في جراحة الأذن والأنف والحنجرة وهم يباشرونها على صبيان

عمرهم ست سنوات. لقد كانت هذه العملية بمثابة سطو على حياته.

سؤال: ألم يكن لديكم أي طموح؟

جواب: لا على الإطلاق. إلا ما كان من مطمح النجاح في دور الساعد الأيمن الممتاز لوالدي. يبدو أنكم تستغربون ذلك؟

سؤال: نعم، أستغرب كثيرا.

جواب: قبل كل شيء، كنت أكن لأبي حبا لا يمكنكم تصور مداه. لقد وهبته نفسي حقا حين قلت له - وليس هذا من الاستعارة في شيء -: «سيدي كل ما ثقل عليكم حمله سيكون خفيفا علي». وحينما قام بتنصيبي وليا للعهد تجلدنا طيلة الحفل، لكن عندما التحقت به بكينا معا. قلت: «لماذا هذا الحفل؟ لا أريد أن يأتي ذلك اليوم، لأن مجيئه يعني غيابكم». ذلك أنه يمكن للإنسان بكل تأكيد أن يؤدي مهمة ويخدم قضية، دون أن يكون بالضرورة ملكا. لقد كان هذا رأيي، وتوليت أنا النطق بما لم يكن في وسعه الجهر به.لقد كنت أتكلف بأداء المهام الدقيقة. وخلاصة القول إنني كنت أراني مساعداً للراعي أو كما كنا نسميه «المعلّم». وفي عهد الحماية كان يأتي إلى القصر بعض الشخصيات الوطنية للاتصال سرا بوالدي، وكانوا يتنكرون في أزياء نسائية حتى لا يكتشفهم الفرنسيون. كنت أتولى نقلهم بسيارتي. وكانت الجلابيب والخمارات مكدسة في مخزن السيارة. ثم بمجرد انتهاء الاجتماع كنت آخذهم في السيارة وأنزلهم ليلا في الغابة، إن منهم من لا يزال على قيد الحياة، وبإمكانكم أن تسألوهم. يكفيني إذن أن أشكل صحبة أبي فريقا من المتواطئين.

وعندما كان والدي يسافر لم يكن هناك سوى شيئين اثنين. لا يسلمهما إياي: أولهما الطابع الشريف الذي كان يحمله معه رمزيا، ثم مفتاحه الشخصي. وهكذا ألفيتني عدة مرات ملكا دون أن أكون كذلك. وبعد مضي ثلاثة أسابيع أو شهر كنت ألاحظ أن العبء ثقيل. وكان يسعدني إيابه كلما غاب، إذ بعد رجوعه كنت أعود الى حياتي المزدوجة: من جهة الحياة الجدية المتمثلة في العمل إلى جانبه، ومن جهة اخرى سهراتي، ورحلاتي للخارج، والسيارات الفاخرة.

وفي رسالة تنصيبي وليا للعهد، نوه بي أحسن ما يكون التنويه، وبذلك أيقنت أنني نلت بطاقة تعريفي كمواطن صالح وولد بار ووسامي كمقاوم أيضا. كان يستشيرني في شؤون حياته الأسرية وبيته وحتى في همومه الشخصية. كنت سعيدا بذلك أيما سعادة. إلا أنني أكرر قولي لكم: إنني لم أفكر قط أنني سأتولى الملك في يوم من الأيام، لأن ذلك كان عندي بمثابة مغالطة تاريخية.

سؤال: هل كان والدكم قليل الأصدقاء؟

جواب: نعم. فهمت على التوّ أنه من الصعوبة بمكان أن يكون الإنسان صديق ملك. لقد كان له إخوته وكان يحبهم. لكن حين كان الأمر يتعلق ببعض المشاكل فإنه كان يختلي بنفسه. أنا وحدي الذي كنت الحفيظ على أسراره. كنا نتناول الطعام معاً. وكان أبي في أوقات مرحه من أطيب خلق الله وداعة ولطفاً. أما عندما كان ينتابه الغضب فإنه كان - مع احترامي له - صعبَ المراس، وفي ساعات انشراحه كان يحب الدعابة ويتقبل أن يقال في الحديث كلام مخالف لما هو متوقع. ومع ذلك كان ينبغي اختيار الألفاظ المناسبة، في مخاطبته، وربما كنت

أحيانا أجانب الصواب في هذا المجال، فكنت أقرأ في عينيه على الفور أن الفكرة التي أعرضها عليه قد كانت حسنة، غير أن التعبير عنها لم يكن موفقا.

هل تعلمون أني كدت أعرض نفسي للقتل في سبيله، إنها قصة لا يعرفها أحد، ذلك أنه في يوم 25 فبراير 1951 وجه الجنرال جوان، الذي كان مقيما عاما بالمغرب، إنذاراً إلى والدي. وقد آلمني هذا الخبر أشد ما يكون الألم. لم أكن أتحمل أن يتعرض والدي للإهانة.

وكان لي في الإقامة العامة صديق يشتغل بديوان جوان، وهو الكولونيل لودون. لقد كان ضابطا مرموقا في فرقة الفرسان، وإنسانا متحررا وعلى جانب كبير من الذكاء. وقد توفي في الهند الصينية.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء، وكان الأجل المحدد لانتهاء الإنذار هو الثامنة. فكلمت الكولونيل عبر الهاتف: «كولونيل، هل من الممكن أن أحضر لمقابلة الجنرال جوان؟». فحدد لي موعدا معه في السابعة مساء. ودخلت غرفتي لأغير ملابسي وارتديت جلبابا. فتحت قمطر طاولتي الليلية، وأخذت منه مسدسا من عيار 6.35 كنت وضعته هناك. كنت حانقا، وكنت أقول في نفسي: «لقد أهان جوان أباك، فلتقتل المهين».

وكلمت مستشاري عواد، وكان كاتبي الخاص أيضا، وقلت له: «احضر حالا، سترافقني إلى الإقامة العامة»، وامتطينا المقاعد الخلفية للسيارة. لكن الجلباب - وربما تعلمون هذا - لباس فضفاض. وعندما قعد عواد إلى جانبي أحس بشيء صلب، كان الأمر يتعلق بالمسدس. لم يعلق، ولكنه التفت إلي وقال: «ألا ترى أن نتوجه في البداية الى صاحب الجلالة لنتلقى منه التعليمات الأخيرة؟». نظرت إليه باندهاش، وقلت: «لكنك يا عواد تعلم حق العلم أن أبي يجهل أنني ذاهب إلى الإقامة العامة وقد لا يأذن لي بذلك». فقال: «رغم ذلك، أظن أنه من الضروري أن نراه». فأنقذت بذلك حياتي. إذ لا شك أن حراس جوان كانوا سيقتلونني. وعند وصولنا للقصر، وحينما كنا نحن الاثنين جالسين مع الملك، قال عواد: «مولاي، ولدكم يحمل مسدسا في جيبه». فلم يفه الملك ببنت شفة، ولم أره من قبل كذلك دون رد فعل.

سؤال: هل كنتم فعلا ستطلقون الرصاص؟

جواب: بكل تأكيد. فإن اعتبر تصريحي هذا بمثابة محاولة إجرام، فعلى أية حال أظن أن هناك التقادم، بل كذلك حق الدفاع عن النفس. إن جوان لم يكن ذكيا جدا. فهو دون نباهة لوكليرْ أوْ دولاتر. لم يكن في مستواهما الرفيع ولا في مستوى ثقافتهما الواسعة. فجوان كان جنديا بارعا، وأظن أنه لا بُدَّ من وجود أناس من هذا النوع لتمكين بعض الشعوب من تحقيق قدرها. فلو لم يكن هناك جوان وخلفه غيوم، الذي نفانا إلى مدغشقر، لما كنا حصلنا على الاستقلال إلا بعد حين.

سؤال: هل تعتقدون أن تصلب الحماية وشططها سَهَّلا بكثير المسير نحو الاستقلال؟

جواب: نعم، لقد كان ذلك العنصر أساسياً، فقد ساعد على نضج الشباب بسرعة. كانت ثمة أجيال ثلاثة: أولها جيل أولئك الذين عاشوا الاستقلال الأول وماتوا في عهد الحماية، وثانيها جيل أولئك الذين عاشوا الاستقلال ثم الحماية ومن جديد الاستقلال، والثالث والأخير أولئك الذين لم يعيشوا إلا عهدي الحماية والاستقلال.

إن الجيل الثالث الذي أنتسب اليه كان قد اكتمل نضجه بفعل سخف المقيمين العامين. فكان بمثابة أرضية خصبة خارقة للعادة، مكنت من زرع الوعي وتعميم النضج. لقد كنا نرنو إلى النضج لا إلى الهيجان. ثم اكتشفنا، بانذهال، أننا عملة قابلة للتحويل. كنا شدادا، مشاغبين، غلاظا في نظر الآخرين. وكان يكفي أن نعبر البحر الأبيض المتوسط ونحل بفرنسا لنجد الناس يعتبروننا جديرين بأن ينصت إلينا. إن عدداً لا يستهان به من الطلبة اضطروا لمتابعة دراساتهم عندكم مما خدم مصلحتنا بشكل جلي. وهناك نقطة لا يعرفها إلا القليل: كان على جامعة ستراسبورغ، وقت الاحتلال، أن تختار الاستقرار إما في الرباط وإما في الجزائر العاصمة. وفي النهاية ولحسن الحظ نقلت إلى الجزائر العاصمة، فلو كانت قد استقرت بالرباط لما أمكن إقامة جسر ثقافي مع أولئك الذين عاشوا في الحي اللاتيني أو درسوا في مونبيلييه وبوردو، الخ.، ولكنا عشنا منزوين منطوين على أنفسنا كماء المسبح الذي يتجدد في إطار دورة مغلقة. وبما أن الضرورة دعتنا للرحيل، فقد وجدنا في فرنسا راحة معنوية وتفهما إلى حد أنه حينما كانت الأمور تزداد تأزما لم تكن القطيعة واردة. ففرنسا لم تكتف بتبليغنا معرفتها، بل جعلتنا نشعر أن ما نطالب به حق، وأن طموحنا لم يكن جنونيا ولا من قبيل حلم الشباب. لقد كان ذلك رائعا.

سؤال: في سنة 1953، تم اقتيادكم بعنف الى المنفى مع والدكم. هل شعرتم أن ذلك كان خطأ سياسيا فادحا ارتكبه الفرنسيون؟

جواب: في أول الأمر اعتبرت أن ذلك من قبيل الظلم، فليس من اللائق أن يقتاد رجل كوالدي على الساعة الثالثة بعد الظهر محروما ولو من كوب ماء، في طائرة د.س 3 بدون تدفئة، ذات مقاعد خشبية صغيرة معدة أصلا لجلوس المظليين عليها قبل القفز، وقطعت الطائرة المسافة في سبع ساعات إلى أن وصلت إلى أجاكسيو. وأبي الذي كان لا يحتمل المكوث في الأماكن المغلقة لم يتوصل طوال الرحلة ولو بحبة من الأسبرين أو قطعة خبز. وظل طيلة مدة التحليق حاملا سبحته في يده ولم يفه بكلمة. وكان معنا وحولنا عدد من رجال الأمن الفرنسيين من غير أن ينظروا إلينا وهم يتناولون «سندويتشات» تحتوي على لحم الخنزير. والخلاصة أن الجو كانت تعمه الرائحة العسكرية، وتشتم منه رائحة غيوم المقيم العام.

وعندما حطت الطائرة بمطار أجاكسيو كان التغيير جذريا. فالوالي كان ينتظرنا بلباسه الأبيض عند سلم الطائرة بعد أن قطع خصيصا إجازته وحضر لاستقبالنا. وقدمت لنا التحية تشكيلة عسكرية. لقد كان الرجل طيبا وقيل له من باريس إنه قامت ثورة على سلطان المغرب، وأنه احتراما لمعاهدة الحماية التي تنص على الحفاظ على حياة السلطان تقرر بعثه الى كورسيكا في انتظار رجوع الحالة إلى سابق هدوئها. وفي المساء، أعد لنا عشاء فاخرا. وأذكر أن باقات من الزهور كانت تملأ جنبات المائدة. وجلست قبالة والدي. وحيث إنني لم أكن قد تناولت وجبة غداء، فقد التهمت كل ما قدم لنا من أطباق. وبعد ذلك وحينما كنا وحيدين في البهو قال لي والدي: «أين كبرياؤك؟ لماذا أنت وأخوك تنقضان كالأغوال على أطباق الطعام في هذه الظروف؟ هذا أمر غريب حقا». فقلت رغبة مني في إضفاء شيء من الانفراج على الجو: «اسمعوا ياسيدي، إنهم أرادوا قتلنا في الطائرة فهل أموت جوعا حتى يكونوا فرحين؟»

سؤال: هل كنتم تخشون أن يسهل إبعاد والدكم إيجاد حل بديل عنه؟

جواب: كنت أعرف الحالة التي تركنا عليها المغرب. كان هناك مخاض لا مجال للقضاء عليه مهما كانت طبيعة خليط أي مختبر. فالأمور انطلقت. عندما استيقظنا يوم 21 اغسطس(آب) 1953، بدار الوالي قال لي أخي مولاي عبد الله: «أتظن أننا سنعود؟» فقلت: «العودة مؤكدة، لأن الشعب المغربي ليس عاقا ولن يرضى بالاستقلال في غياب والدنا». فقال أخي: «كم من الوقت سيستغرق الأمر في اعتقادك؟» فقلت وكنت على خطأ: «ربما خمس سنوات أوْ ستّ».

لقد طبع منفانا بمدغشقر خلال الاسابيع الأولى، بمضايقات متكررة. لقد كانت الإقامة العامة تريد تشديد مراقبتنا. وقتئذ كانت القيادة بيد ضابط للشؤون الأهلية، إلى أن سلمت المسؤولية مباشرة إلى المندوبية السامية بمدغشقر. كنت أراجع الفاتورات، وأهتم بالمراسلات، وأرقن على الآلة الكاتبة بجودة أقل من الآن. وذات يوم وأنا أحرر بطلب من والدي برقية تتعلق بتسوية مشكلات عائلية، أطلعت اليوتنان كولونيل المكلف بالحراسة على فحوى البرقية فقال: «إن هذه البرقية طويلة» فنظرت إليه باندهاش وأجبت: «هل هذا يعنيكم في شيء، خاصة ونحن الذين سنؤدي ثمنها؟» وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع نفقات إقامتنا في المنفى كانت على حسابنا. فرد الرجل ببرودة: «لا تنسوا أن أباكم اليوم ليس هو الشخص الذي كان بالأمس».

سؤال: وماذا كان جوابكم؟

جواب: لا شيء، فكل ملاحظة كانت غير مجدية. ولكي تتغير الأمور، كان لا بد من مشادة حادة بين مسؤولي وزارتي فرنسا لما وراء البحار والداخلية، وبين مسؤولي وزارة الخارجية.إذ قال أولئك لهؤلاء «كفى: المغرب شيء، ومدغشقر شيء آخر».

وخلافا لما كنت عليه، لم يكن أبي مفرطا في التفاؤل، ومع ذلك عاش منفاه بطمأنينة نسبية. وكان لا يفتأ يقول لنا: «تمسكوا بالصبر.إن الحق ينتصر دائما في النهاية. بيْدَ أن المأساة التي كان يعيشها كانت مأساة أب أكثر مما كانت مأساة عاهل. فقد خاطبني ذات يوم، أياما قلائل قبيل نفينا، بلهجة يقظة ممزوجة بالمرارة: «ليس عندي ما أطرحه في المعركة، الحماية تحرم علي أن يكون لدي جيش ولا أتوفر حتى على شرطة. والمالية والسلط الحيوية للبلد ليست طوع يدي، كل ما بقي لي في هذه المواجهة هو شخصي وأنتم» وكان يقصد بذلك جميع أبنائه. قلت له: «لا تعبأوا، واعتبروا أنه ليس عندكم أولاد» غير أنه لم يكن يعرف نهاية هذه المغامرة، وكان يتألم كثيرا لذلك. وكنت أشعر أنه كان يحمل داخل نفسه عبئا ثقيلا.

سؤال: ماذا كان رد الفعل لديكم عندما علمتم نهاية منفاكم سنة 1955؟

جواب: بالنسبة لي ولأخي، كان الأمر يتعلق بالسفر في أقرب وقت، فبحكم سنّنا ووضعنا كان الشوق طبيعيا ومشروعا. أما أبي فقد قال لنا: «هدّئوا من روْعكم، فلسنا مستعجلين».

لقد واجه الأمور ببرودة دم وحصافة رأي علمتني الشيء الكثير. كان ممكنا أن نعود للبلد خمسة عشر يوما قبل الموعد المحدد، لكن في «لعبة الشطرنج» هذه، كان يملك المبادرة. لم يكن متسرعا، بل متريثا يتصرف في الوقت الذي يراه مناسبا.

الفصل الثالث

الخصومة المنسية

سؤال : هل تتذكرون كيف كانت عودتكم من المنفى؟

جواب : آه ، نعم ! أظن أنني لم أشهد أبدا في حياتي تتابع صورالتاريخ أمامي بهذه السرعة كما شاهدته طيلة رحلة الأربع والعشرين ساعة التي استغرقتها عودتنا . انطلقنا من مطار تاناناريف . ولست أدري لأي سبب رفض المندوب السامي بمدغشقر الحضور لتوديع والدي قبل سفره . فكان أن تدخَل إدغار فور وانطوان بيني . لما لهما من نفوذ . لحمله في النهاية على الحضور .

وعلى أرضية المطار أدت لنا التحية فرقة مؤلفة من اثني عشر جنديا ملغاشيا بسراويلهم القصار وأحزمتهم وبنادقهم ذات الحراب الحادة المثبتة على رؤوسها . وكانت الطائرة من نوع دس 6 تابعة لشركة « أوتا » .

وبعد الإقلاع قال لي والدي : « اجلس بالقرب مني أثناء وجبة الغداء » . قلت : « لا يا مولاي . سأكون إلى جانبكم . ولكنني سأدعُكُمْ تتناولون الغداء بمفردكم » . وتحادثنا في موضوعات شتى . وفجأة قال لي : « لن يكون هناك داع لفتح الحقائب بعد الوصول إلى نيس . فقد قررنا المكوث بضعة أشهر في بوفالون . واستغربت كثيرا وقلت : « ولم ذلك؟ » قال بكل هدوء وبلهجة المتفرس للمستقبل : « لأننا سنعود قبل الأجل الذي كنا نتوقعه » . وبعد الغداء . اتجهت نحو مؤخرة الطائرة حيث كان يجلس كومندان الدرك تويا وهو صديق قديم مثَل فرنسا بمهارة فائقة . وكان خير مجسد لتقاليدها طوال سني المنفى في مدغشقر . قلت له : « أيها الكومندان العزيز . لم أرغب في تثبيط عزيمة صاحب الجلالة . فهو في بعض الأحيان متشائم شيئا ما . لكن هاكم ماقال لي » . وقصصت عليه ما أسر إلي به والدي . ولشد ما كانت دهشتي وأنا أسمع من الكومندان قوله : « سنرى! » .

وبعد برهة عدت إلى والدي الذي قال لي : « لقد حانت الساعة السادسة مساء . اذهبوا عند قائد الطائرة واطلبوا منه أن يسمعنا نشرة أخبار إذاعة البي بي سي بالعربية » . فتوجهت لمقصورة القيادة وسمعت بذهول هذا الخبر : « تنازل السلطان ابن عرفة عن العرش . ولم يبق ثمة من حل سوى رجوع السلطان ابن يوسف إلى عرشه » . ولم أعد في الواقع أفهم شيئا بالمرة . هرْوَلتُ نحو والدي في حالة ذهول وقلت له : « أظنكم على حق » . وأبلغته الخبر الذي أذيع . استمع إلي ولم يَبْدُ عليه أي تأثر . ثم ابتسم . كانت برازافيل أول محطة نتوقف فيها . وأسفل سلم الطائرة لم يكن هناك فقط اثنا عشر جنديا كما في السابق . بل تشكيلة بأكملها ومجموعة من أصحاب الدراجات النارية الذين كلفوا بخفر موكبنا . وفيما كانت الطائرة تتزود بالوقود . استدعي والدي للقيام بجولة في المدينة . وهكذا أمكنني أن أتأمل الكنيسة الرائعة والفريدة من نوعها التي شيدت على شكل نخلة باسقة . وأقلعت الطائرة مرة أخرى . وبعد ليلة من التحليق وصلنا إلى نيس . وأمام الطائرة كان عدد الحاضرين بالجلابيب البيضاء يفوق بعشرة أضعاف المستقبلين المرتدين للزي الأوروبي الأزرق اللون . ذلك أن الحرس الجمهوري كان حاضرا كما حضر الأعيان المغاربة : عماي . وصهر والدي . وأعضاء الحكومة المغربية . أو على الأصح ما كان يسمى في تلك الفترة بالحكومة المخزنية الشريفة .

صعد السيد إيريسو مدير ديوان أنطوان بيني للطائرة لاستقبال والـــــدي وقال له : « إذا كان ذلك يسعدكم يمكننا أن نوصد الأبواب ونتوجه مباشرة إلى باريس » . استمع إليه والدي بانتباه وأشار برأسه إشارة مهـــــذبة تعنـــــي القبول وأجابه : « طيب . لكن ليس في نيتي التوجه على الفور لباريس . أريد أن أستريح قليلا » . أما أنا

فأتذكر اني خاطبت والدي وأنا أمشي على ايقاع خطواته: «انه بامكاننا - على كل حال - إلغاء مرحلة بوفالون»، لكن تدخلي كان بدون جدوى، وظل والدي على رأيه. وهكذا طيلة الليلة ونصف اليوم الموالي ظل والدي محافظا على موقفه بكل هدوء ووقار.

سؤال: لكن خلال هذه الليلة التي قضيتموها في بوفالون، ألم تستخبروه عن السبب الذي جعله يفضل الانتظار والحالة أن الاحداث كانت تسير بسرعة؟

جواب: فعلا، قال: «لا تخلط بين ما هو جوهري وما هو ثانوي». لقد عدنا، لا بفضل هذا الحدث أو ذاك. ولا لأن الباشا الكلاوي أو ابن عرفة أدليا بتصريحات. لا أبداً. إن عودتنا لم تصدر عن حادث عرضي، وانما جاءت ضمن إطار منطق تاريخي حاسم، بلغ نهايته.

وعند وصولنا إلى باريس، تميز اليوم الأول بتوافد غير منقطع للشخصيات المغربية. وفي اليوم الموالي كان لقاء «لا سيل سان كلو» الذي تُوِّجَ بالتوقيع على الاتفاقيات التي تنص على الاستقلال. كان من بين الحاضرين على الخصوص أنطوان بيني، وإدغار فور، ومدير ديوانه جاك دوها ميل، وجوفروا دوكور سيلو، الكاتب العام لوزارة الشؤون الخارجية. وفي وقت من الاوقات وجدت نفسي وحيدا قبالة أربعة مسؤولين فرنسيين سامين بينما كان والدي يتحدث مع أنطوان بيني، لقد كان علينا أن نحضر البلاغ المشترك. وفعلا قمنا بتحرير نصه على ورق فوق طاولة «للبليارد» مغطاة. عند وصولنا أدى لنا الحرس الجمهوري التحية دون أن يعزف الجوق أي نشيد. وتقرر أنه بعد إتمام البلاغ المشترك وفور الخروج، سنشاهد العلم الفرنسي وسيعزف النشيد الوطني المغربي. وفي نفس الوقت سترفرف الراية المغربية للمرة الأولى فوق مقر اقامتنا بسان جرمان أون لي. إن هذا اليوم المشهود كان بالنسبة لي كوطني مغربي أجمل أيام حياتي. كما كانت لحظة الاستماع للنشيد الوطني مؤثرة للغاية.

سؤال: هل راودكم نفس القلق الذي شعرتم به سنة 1944، تجاه الاستحقاقات المتصلة بالاستقلال؟

جواب: أبدا. كانت هذه الحالة تختلف عن سابقتها تمام الاختلاف. ولا علاقة لها إطلاقا بالتخوفات التي راودتني وأنا شاب يافع. لقد مرت السنون وأصبحنا على قدر كبير من الحماس. وفي الطائرة التي كانت تقلنا الى الرباط نادى علينا والدي أنا وشقيقي وقال: «طيب. لا أريد من الآن فصاعدا أن أسمع منكما كلمتي: الحقد والانتقام.» لا يمكنكم أن تتصوروا إلى أي حد سهل علينا قراره ذاك العودة والحياة. وبمجرد عودتنا كان من اللازم علينا أن نباشر الأمور من جديد. ولفترة ما قمنا بنوع من التخييم السياسي في انتظار تأليف الحكومة الأولى التي لم تكن هي حكومة الاستقلال، إذ لم يتم التوقيع على إعلان الاستقلال إلا في الثاني من شهر مارس (آذار) 1956، لم يكن المغرب في تلك الفترة يتوفر على حكومة. كما أن الفرنسيين بعد إحساسهم بأن كل شيء قد انتهى، لم تعد لهم اية سلطة، كما أنهم لم يعودوا يشرفون على الأمور... كان المقيم العام موجودا لتصريف الشؤون العادية فحسب، والقواد، واكثرهم كانوا ملزمين بالاعتراف بشرعية ابن عرفة، أعيدوا بالطبع إلى بيوتهم. والخلاصة أنه لم تبق ثمة حماية ولا إدارة محلية تقليدية أو عرفية. أما جيش التحرير فقد كان يرابط في الريف. والمعجزة، رغم كل ذلك، هي أن المغرب واصل مسيرته، حيث لم تقم فتنة ولم تضرم نار في المدن.

سؤال: هل كنتم تخشون الاستفزازات؟

جواب : أجل وباستمرار . في أول الامر كان المشور . أي الساحة الكبيرة الخارجية للقصر . غاصا بالناس . وكان أبي يعتلي منصة الخطابة مرتين في اليوم . وأحيانا كانت البحة تعتري صوته فيهمس في أذني لأردد بصوت عال خطابه للجماهير .. كان يلح في جميع خطبه على القول : « كلكم إخوة . لقد أخطأ بعضكم . لكن علينا أن نبني المغرب مجتمعين مؤتلفين . إياكم والفوضى . علينا أن نظل شعبا متحضرا . » لقد كانت الطريق أحيانا محفوفة بالمخاطر . ولم تكن للبلاد في الفترة الواقعة ما بين نوفمبر (تشرين أول) 1955 ومارس (آذار) 1956 . أية إدارة فعلية . فقد كان المغرب يدير نفسه بنفسه . ورغم ذلك تمكنا من احترام دفتر التزاماتنا . وفي اعتقادي أننا تفاوضنا بشكل مرض في شأن مسار الاستقلال داخل تفاعل مشترك .

سؤال : هل كنتم تفهمون هذه العبارة « الاستقلال داخل الترابط » كما كان مدلولها عند مبدعها إدغار فور؟

جواب : كان إدغار فور . حقا . ذا فكر خلاق وخيال خصب . وكان صديقه المحامي جورج إزار يدعوه بـ« البقرة » . وسألته ذات يوم : « ولماذا تنعتونه بهذا النعت؟ إني لا أجد في صديقكم ادغار ما يسوغ نعته بالبقرة » . فرد قائلا : « لا . ليس هذا هو المقصود . لأنكم تعطون البقرة عشبا . أما هي فتعطيكم لبنا . وعندما تعطون « إدغار فور » ملفات فهو يعطيكم الوضوح . » لا . لم تكن فكرة إدغار فور مبعث استغراب لدينا . وبالإضافة إلى ذلك فعندما تقدمون لإدغارفور ملفات فهو يدرسها ويردها لكم جاهزة .

وأود أن أفضي لكم بشيء : أنا رجل مبادئ ولست رجل مواقف . يمكن أن أغير موقفي إذا دعت الضرورة إلى التغيير . على ألا يكون ذلك البتة على حساب المبادئ . ومن هذه المواقف في ذلك الوقت . أنه بعد فترة المخاض الصعبة . بل الخطيرة . كان يلزم أن تتم الولادة . « ولادة الاستقلال » في أحسن الظروف . وأود الاعتراف أن ذلك كان شغل والدي الشاغل . كما كان هماً مؤرقا لمجموع المسؤولين الفرنسيين . لقد وقعنا اتفاقيات « لا سيل سان كلو » مع بيني وإدغار فور . ولكننا أبرمنا اتفاق الاستقلال مع الاشتراكي كريستيان بينو . وهكذا تحولنا من الوسط التقليدي الى اليسار . وذلك في الوقت الذي كانت تعصف بقوة فيه رياح حرب الجزائر . التي كانت تجري بالقرب منا .

سؤال : 1955 هي كذلك سنة بروز العالم الثالث على الساحة الدولية . من خلال مؤتمر باندونغ .

جواب : كنت في المنفى بمدغشقر حين انعقد مؤتمر باندونغ . وأصدقكم القول ان اهتمامي بهذا المؤتمر كان أقل من اهتمامي بخبر صغير جدا نشر في ذات الوقت تقريبا . وبمجرد اطلاعي عليه هرعت إلى والدي وقلت له : « سيدي . لقد قضي الأمر . إننا بصدد الخروج من النفق » . كان مفاد هذا الخبر أن الإقامة العامة رخصت بإنشاء اول مركزية نقابية مغربية هي : الاتحاد المغربي للشغل .

في الواقع . كانت باندونغ تمثل نقطة بعيدة جغرافيا بالنسبة لنا . ولما عدنا للمغرب بعد ذلك بقليل لم يتأتَ لنا أبي وأنا والاحزاب السياسية المهتمة أن نفكر جديا في نتائج مؤتمر باندونغ ومضاعفاته . حيث كنا منشغلين بوضع أسس الدبلوماسية المغربية والانضمام إلى جامعة الدول العربية . فضلا عن مسألة إدماج العشرة آلاف رجل المؤلفين لجيش التحرير . في تلك الحقبة كنا ننهمك في البحث عن عمال للأقاليم علما أنه لم يكن عندنا آنذاك اكثر من اثني عشر إقليما . وفي المقابل كانت عندنا طبقة سياسية أخرى تسهم هامشيا في المسؤولية . فأمكنها

بذلك أن تتفرغ لدراسة واستيعاب نتائج مؤتمر باندونغ. كل هذا أدى إلى ضوضاء، نشأت عنها لغة ومصطلحات جديدة لكنها فارغة من حيث المضمون. كان مؤتمر باندونغ يركز قبل كل شيء، على سيادة الشعوب وحقها في الاختيار. إلا اننا كنا مطوقين من كل جهة. فالجزائر لم تكن قد استقلت وكذلك إفريقيا السوداء. ولذا كان ذلك المؤتمر بالنسبة إلينا شبيها بلوحة خلفية، أو بالأمواج التي تتوارى ونحن نشاهد البحر. كما كان أيضا بمثابة المنبه الموقظ من النوم. إلا أنه لم يكن يحمل أي شيء، ملموس، فالذين كانوا يؤمنون بباندونغ لم يكونوا قد أمسكوا بعد بمقاليد الحكم.

سؤال: كيف أمكنكم التوفيق طوال تلكم الأعوام بين الانتقال الهادئ إلى عهد الاستقلال والحفاظ في نفس الوقت على العلاقات الطيبة مع فرنسا والتضامن مع الجزائريين في كفاحهم. ألم تكن لعبة التوازن هذه تتسم بشيء من الصعوبة؟

جواب: لم يكن بدّ من أن ترضخ جميع الحكومات التي تلاحقت في فرنسا لأمر بديهي وهو: أننا لم نذهب إلى المنفى للحصول على الاستقلال ونقبل بحرمان غيرنا منه. كل ما في الأمر، أننا امتنعنا إلى أقصى الحدود عن أي تدخل مباشر واضح في الشؤون الفرنسية الجزائرية، بمعنى أنه كلما كان بإمكاننا تمرير الأسلحة خفية فعلنا ذلك دون تردد. أما نقل السلاح في الشاحنات أمام أعين السلطات الفرنسية فكان من شأنه أن يشكل استفزازا. ومع ذلك فالفرنسيون لم يكونوا يجهلون أن دعما مهما كان يتدفق على الجزائريين انطلاقا من وجدة إلى فكيك، رغم أن المنطقة كانت محاصرة.

ومن حين لآخر، كانت تقع مناوشات، وكانت تصل مذكرات احتجاج إلى مكتب والدي فيرسل في طلب مدير الأمن الوطني ليعاتبه على عدم مراقبة الجزائريين، أو يستدعي عمال الأقاليم ويصرخ فيهم: «ماذا تصنعون؟ كونوا أكثر يقظة؟». وفي الواقع كان كل واحد على بينة مما يجري، سواء الفرنسيون الذين كانوا يبعثون بالاحتجاجات، أو المغاربة الذين كانوا يتوصلون بها. وقد أمكننا الحفاظ على تلك الحال لأن نفرا من الطبقة السياسية الفرنسية، بصرف النظر عن انتمائهم، كانوا بإيعاز من المثقفين، يدركون أن تلك الحرب كانت قذرة، وأنه يجب وضع حد لها في يوم من الأيام.

سؤال: لكن ألم يشكل اختطاف طائرة ابن بلة سنة 1956 عرقلة لهذا التطور؟

جواب: بوسعي أن أحدثكم عن هذه المرحلة بكل تفصيل، لأنني كنت قبل أسابيع من بدايتها في باريس حيث كنت أتفاوض مع الحكومة الفرنسية في موضوع رجوع وادماج الرجال بأسلحتهم في القوات المسلحة الملكية. كنت أتناقش مباشرة مع آلان سافاري، وكان غي مولي إذ ذاك رئيسا للحكومة، وماكس لوجون وزيرا للدفاع. وذات يوم كلمني غي مولي هاتفيا وقال لي: «هل تسمحون بأن نتحادث معا؟» ولما وصلت إلى قصر ماتينيون دخل مولي مباشرة في صلب الموضوع وقال: «إن جبهة التحرير الوطني... حركة غير منظمة» فقلت: «حركة نعم، ولكن كيف تنفي تنظيمها؟ إنه أمر استغرب له» فاستطرد: «ألا يمكنها مثلا أن تقيم لي الدليل على وجودها؟» فاستغربت قوله وسألته: «وبأية طريقة؟» فكان جواب غي مولي، وهنا أنقله حرفيا: «يمكن أن نفترض أنه في يوم محدد تقوم جبهة التحرير الوطني بوضع دجاجة بيضاء، أو دجاجة سوداء، مذبوحة أو أي رمز من هذا النوع في

سافلة كل معلمة تذكارية للأموات توجد على أرض الجزائر. وبهذه الطريقة سنتمكن فعلا من معرفة ما إذا كانت الجبهة موجودة حقيقة في كل أرجاء الجزائر. او هي موجودة فقط في الأوراس». فأجبته: «السيد الرئيس، هل يمكن البحث عن رمز آخر غير رمز الدجاجة المذبوحة؟ ثم ترى من هو هذا الإنسان الذي سيقبل، في اليوم المعين، أن يضع هذه الذبيحة في أسفل نصب تذكاري للأموات فيعرض نفسه بذلك للاعتقال من لدن الشرطة أو الجيش؟ بكل صراحة، لا يمكنني أن أبلغهم هذا الاقتراح» فقال: «طيب. سأفكر في الامر. وحتى يحين ذلك الوقت، ألا يمكنكم أن تقترحوا عليهم القيام بمبادرة رمزية سأطرحها عليكم ويكون من شأنها أن تجعلنا على بينة من حجم تلك الحركة ومدى انتشارها؟». فقبلت الاقتراح وتوجهت لتناول طعام الغداء في زقاق سان دومينيك بوزارة الدفاع التي كنت اعرف مبناها حق المعرفة، ففيها سبق للجنرال دوغول أن استقبل والدي سنة 1945. هناك أثرت القضية الجزائرية مع ماكس لوجون وكان موقفه يتسم بالتصلب الذي لا يطاق سواء في لهجته أو كلماته. وفي الختام وأثناء تناولنا القهوة قال لي: «كل هذا جميل، لكن إذا ما قدر لنا أن نتوصل إلى حل سلمي مع الجزائريين فكيف نبرر استدعاءنا للمجندين؟». وعندما هممت بالجواب قاطعني قائلا: «أجل، ماذا أقول للأمهات اللائي أرسلن فلذات أكبادهن ليواجهوا الموت في الجزائر إن نحن دخلنا في مفاوضات السلام؟» قلت: «السيد الوزير، ما أنا إلا رسول والدي. لا أطلب أن تتفاوضوا لأجل السلام، وانما أرجوكم التفكير في إمكانية ذلك التفاوض» فقال: «سنرى، سنرى».

وعندما رصدت الرادارات الفرنسية الطائرة التي كانت تقل ابن بلة وصحبه، كان ماكس لوجون هو الذي أصدر الأمر باختطافها وهو الذي غطى العملية سياسيا. وقد قيل لي فيما بعد أن غي مولي عندما علم بالأمر خلال مأدبة عشاء رسمية انتابه غضب شديد، وبدا ذلك على ملامحه. أما ماكس لوجون فقد كان فخورا مزهوا.

وبمجرد ما علم والدي بالخبر اتصل على الفور هاتفيا من تونس بالرئيس كوتي. وكنت بجانبه حيث سمعته يقول: «السيد الرئيس، أبعث لكم بنجلي الاثنين على أن تردوا إلي هؤلاء الأشخاص. فهم ضيوفي.» لقد كان كوتي المسكين محرجا. فلو كان يتوفر على سلطات مثل التي خولها دستور الجمهورية الخامسة للرئيس لكان قد قام بالتأكيد بعمل ما، لأنه رجل مستقيم. في حين كانت جماعة ماكس لوجون شأنها شأن جنرالات الجزائر قراصنة الجو الأوائل. فهم وليس الفلسطينيون الذين ابتدعوا هذه الطريقة المشينة.»

سؤال: هل واصل والدكم بذل جهوده للإفراج عن المختطفين؟

جواب: نعم. بذل جميع الجهود. وأرسل مبعوثين ثم وفدا وزاريا. وبعد وقت وجيز من ذلك وقعت حوادث مكناس المفجعة.

وهنا كان والدي صارما، لأنه مهما كان المبرر لم يكن ليقبل الفوضى في الشارع. وقد نبهني إلى هذه القاعدة الثمينة: «لا تسامح مع الفوضى بأي وجه من الوجوه». وأتذكر أني تلقيت درسا آخر خلال مجلس وزاري. طالب خلاله الوزراء الحاضرون بضرورة: «قطع العلاقات مع فرنسا واستدعاء السفيرين» فأجابهم والدي بقوله: «طيب، لكن إذا قطعنا العلاقات ألا يتعين علينا استئنافها في يوم من الايام» فاعترف جميع الوزراء بوجاهة رأي والدي الذي زاد فقال: «إذا كنا سنستأنف هذه العلاقات فلم نقطعها؟ أيها السادة دلوني على حل وسط.» وبالفعل تم

الاكتفاء باستدعاء السفيرين كل إلى بلده، لكن السفارتين ظلتا مفتوحتين، وبذلك تم إنقاذ الأهم.

وبعد عامين من ذلك عاد الجنرال دوغول للحكم، واعتبر صراحة أن المغرب يمتلك حقا يشبه حق الشفعة، فيما يتعلق بالأسرى الخمسة. لذك أمر بنقلهم إلى قصر أولناي وقال: « إن المغرب هو الذي سيتكفل بهم ماديا ». لقد كان قراره هذا في نفس الوقت قرارا رمزيا وشجاعا، وهكذا كان سفيرنا بباريس يتفقدهم يوميا ويزودهم بكتب وصحف وملابس، بل ويؤمن حلاقتهم. وبلغ التنسيق مع قصر الإيليزيه حدا أصبح معه قصر أولناي يكاد يكون فرعا من الحرم الدبلوماسي المغربي. وبهذه الطريقة أراد دوغول أن يستدرك معنويا الضرر الذي ألحق برفيقه في التحرير.

سؤال: نصت اتفاقيات لاسيل سان كلو على أن يقبل والدكم تشكيل حكومة من جميع الأحزاب، لكن يبدو أن قوتين متنافستين انبثقتا عن الكفاح من أجل الاستقلال، فهناك من جهة الملكية التي يتربع على عرشها والدكم بمجده الأثيل، وهناك من الجهة الثانية قوى سياسية متأثرة بنزعتي التقدمية والثالثية كلتاهما كانتا ذات نفوذ عريض. ويبدو أنه كانت لهاتين القوتين نظرة مختلفة شيئا ما لمستقبل المغرب.

جواب: لم تكن هناك قوتان وإنما كان تياران. أحدهما صبور وكان يمثله والدي الذي كان يعتقد أن الطريقة المثلى المؤدية إلى محمود النتائج هي عامل الزمن، والتيار الاخر كان عديم الصبر. وحينما يبلغ عدم الصبر هذا ذروته يتحول إلى هيجان. وهنا أسر لكم بأننا مررنا أحيانا بفترات صعبة. ونحن نحاول تشكيل حكومات. وكان والدي قد عهد الي بالتفاوض باسمه لهذا الغرض، فقدر لي أن أحضر جلسات شاقة، الشيء الذي لقنني درسا سأستفيد منه في المستقبل. وكنت أخرج من بعض تلك الجلسات مغتما لأقول لوالدي: « يا سيدي إن أحسن برهان على مدى حبي لكم وتعلقي بشخصكم هو أنني أقبل أن يمتص دماغي طوال ساعات وساعات في جلسات مع أشخاص جهلة » وقد استعملت في الواقع تعبيرا مغربيا دارجا « ما كلت (أكل) الدماغ ». فإلى جانب بعض الجامعيين المثقفين كنت أرى أمامي أشخاصا بدائيين.

سؤال: وبماذا كانوا يطالبون؟

جواب: كانت مطالبهم في مستوى درجة إدراكهم للأشياء. كان لديهم ميل طبيعي لإضفاء أبعاد ضخمة على الجزئيات. كانوا يهتمون بما هو ثانوي على حساب ما هو جوهري. وفي بعض الأوقات كان الحوار لا يسوده أي تفاهم. إذ كان كل منا يحلق على ارتفاع يختلف عن ارتفاع الآخر. لقد كانت حقا مأساة بالنسبة للمغرب.

سؤال: في ذلك الوقت كان يطالب العديد من المعارضين بإلحاح ببسط مراقبتهم الكاملة على السلطة التنفيذية وعلى الجيش، وأخص بالذكر منهم المهدي ابن بركة.

جواب: نعم. كان ابن بركة أستاذي في الرياضيات طيلة أربعة أعوام، وكانت تربطنا مودة حقيقية. وكان مع محمد الفاسي من بين الذين كوّنوا لديّ فعلا وعيا سياسيا، لقد جعلني أدرك، في وقت من الأوقات، أنه يوجد طرفان: فرنسيو الإقامة العامة من جهة، ونحن في الجانب الآخر من الجدار من جهة أخرى.

سؤال: ما هي الخلافات التي نشبت بينكما فيما بعد؟

جواب: لم تكن بيني وبين المهدي أية خلافات.

سؤال: ستفاجئون الكثيرين بقولكم هذا.

جواب: اسمعوا يا سيد لوران. سأقدم لكم نصيحة أو بالأحرى «وصفة لتحضير وجبة لذيذة»، إذا كنتم حقا تطمحون إلى معرفة جيدة للمغرب من غير إضاعة للوقت، فلا تصنفوا المعارضة أو المعارضات المغربية بنفس المنطق الذي تصنفون به المعارضات الأخرى، كالمعارضة الموجودة عندكم مثلا. فأنا بهذه النصيحة سلمتكم مفتاح فهم المغرب.

سؤال: لكن سنة 1959 مثلا تميزت بمواجهات حادة للغاية بين والدكم والفريق الحكومي.

جواب: أبدا، لم تكن المواجهة بين الحكومة ووالدي بل كانت بيني وبين الحكومة، حين أبانت بعض الشخصيات عن قدر متواضع جداً من الذكاء. فذات يوم زارهم مستشاري السيد كديرة، وكان وزيرا للدولة، كما كان يعرفهم جميعا. وقال لهم: «حقيقة إنكم سخفاء، تنتظرون من الملك أن يرجح كفتكم على كفة ولده. اعلموا أنه يجب ان لا يدور بخلدكم أن الملك سيضحي بالأمير ولي العهد لإرضائكم. فإذا كنتم حقا ترغبون أن يستمع محمد الخامس إلى ما تقولون فخير لكم أن تخطبوا ود الأمير.»

سؤال: الى أي شيء تعود هذه المواجهات؟

جواب: أظن إذا لم تخني الذاكرة أن لوي - فليب هو الذي قال إن الملك لوي فليب أدى ما على دوق أورليان من ديون. وأنا اقول ان الحسن الثاني نسي تماما خصومات ولي العهد. لم أعد أتذكر ما كنا نختلف عليه. لقد أصبت بالنسيان.

سؤال: هذا يدعوني إلى الاستغراب.

جواب: الحكاية ترجع إلى ثلاث وثلاثين سنة.

سؤال: لكن المعروف عنكم أن لديكم ذاكرة قوية!

جواب: ومع ذلك نسيت كل شيء.

سؤال: إن شهر مايو 1960 أيضا، تاريخ ذو أهمية. ففيه قرر والدكم إعفاء الحكومة في الوقت الذي كان المغرب على أبواب الانتخابات الجماعية التي نظمت فيه للمرة الاولى.

جواب: فعلا طلب مني رئاستها، قائلا: «إنكم على اطلاع بالشؤون. ثم إن لكم تكوينا في القانون العام. وها قد حان الوقت الذي يتاح لكم فيه التمييز بين القوانين ومراسيم القوانين والقرارات.» كانت هذه التجربة بالنسبة إلي بمثابة مدرسة استثنائية فيما يرجع لتطبيق ما تعلمته من نظريات قانونية. وبالطبع لم يرق ذلك الجميع. بل هناك من اعتبر أن الملك أقحم نفسه مباشرة في تصريف الأمور عن طريق ولده، وأعتقد أن هذه التجربة كانت تبدو له ضرورية. وكان محقا في ذلك - لأنها مكنته وبسرعة من استكناه مواطن ضعفي ومواطن قوتي.

سؤال: حدثوني عن مواطن ضعفكم؟

جواب: اعتاد أبي أن يقول لي: «عندما أؤدي الصلوات الخمس أتضرع الى الله أن يخفف من غضبكم». حقيقة كنت أغضب وبحدة، لكن ذلك اختفى بين عشية وضحاها.

سؤال: وماذا عن مواطن القوة؟

جواب: إن التجربة التي كنا بصددها مكنتني من ترسيخ معارفي القانونية، وخاصة في مجال القانون الدستوري. ليس معنى هذا أنني كنت مستعدا لأكتب بخط اليد دستورا من ألفه الى يائه، ولكنه كان يكفي أن أقرأ النص مرتين فقط لأستوعب مزاياه وأقف على عيوبه عند الاقتضاء.

الفصل الرابع

المهمة الملكية الصعبة

سؤال: ما هي النتيجة التي استخلصتموها من تجربتكم على رأس الحكومة؟

جواب: لقد تعرفت على ما للقلم من وزن حقيقي وهو بين أنامل وزير أول. فإذا أسيء استعماله كانت العاقبة وخيمة. وكان ذلك من الأسباب التي جعلتني أعتمد دستورا. لقد قلت في نفسي: «سيصعب عليك أن تراقب باستمرار وزيرك الأول. أما إذا كان يشعر بمراقبة مائتين أو ثلاثمائة نائب فسيتعذر عليه أن يكثر من الهفوات»... لقد أبانت لي هذه التجربة عن مدى السلطة التي يمكن أن يتوفر عليها وزير أول غير مراقب.

سؤال: اعتبر العديد من الملاحظين في تقييمهم لتلك الفترة أن الملكية ابتعدت عن دور الحكم، وانغمرت في الميدان السياسي مما أفقدها مصداقيتها.

جواب: بكل صراحة، إن خرافة خروج الملكية عن دورها كحكم لا أصل لها.. إن الملكية عندنا تقوم على البيعة، وهي عقد ديني يفرض على الملك أن يكون عاملا نشيطا، وألا يكتفي بمعاينة الشؤون من بعيد، بل على العكس عليه أن يدير الشؤون بطريقة مباشرة. ثم إن الحكم إذا كان يريد أن تجري المقابلة على أحسن حال - كما هو الوضع في كرة القدم، هذه الرياضة التي أحبها كثيرا - فعليه أن يجري بدوره وراء الكرة، ويتعين عليه أحيانا استعمال الصفارة، بل إخراج البطاقة الحمراء. وفوق ذلك لا بد من أن يتوفر الحكم على حد أدنى من اللياقة البدنية والقدرة على التحمل.

لقد مضى زمن سباق الخيل الذي كان فيه الحكم يكتفي بمعاينة ذلك السباق من بعيد وهو على صهوة جواده. ثم يعلن: «لقد أخطأت،أنت مقصى إذن من السباق». أما اليوم فإن على الحكم أن يجري داخل الملعب وعندما يتخذ قرارا فهو بالطبع سيرضي طرفا دون الآخر. وفي هذا المضمار كان لويس الرابع عشر يقول: «أنا على استعداد لإهداء قصر فرساي لأي رجل يعاتبني على عدم تزويده بكلب يحرسه». وله مقولة اخرى أعمق مغزى: «عندما أقلد أحدا من الناس مهمة ما فإنني أجد نفسي أمام شخصين، أحدهما شخص مستاء، والآخر متنكر للجميل». ولهذا فإنكم حتى ولو تتبعتم المقابلة عن بعد، بواسطة النظارة المكبرة، فإنكم بمجرد ما تصفرون تجدون شخصا مستاء، وآخر مسرورا يمكن أن يتحول إلى ناكر للجميل. إنه من الغباء تصور الحكم بعيدا عن الميدان.

سؤال: كان هناك إحساس بعد الفترة التي أعقبت إعلان الاستقلال، بأن الملكية كانت أحيانا تبحث عن طريقها، في مواجهة حزب وطني هو حزب الاستقلال، الذي كان يسعى إلى توسيع نفوذه.

جواب: أبدا، لم تكن الملكية منشغلة قط بالبحث عن طريقها، إذا كنتم تقصدون بما ذكرتم أنها كانت تحاول الفصل بين ما هو من اختصاصها وما ليس كذلك. فقد كانت الملكية تتصدر، في عهد الحماية، كافة المطالب ولا شك أن الاستقلال أزال الحاجز الوقائي الذي كان يحول دون ممارسة كافة المسؤوليات المباشرة. لذلك وجدنا أنفسنا والدي وأنا في مواجهة مباشرة للصعاب، فإما الفوز برضى الرأي العام بمختلف مكوناته وإما التعرض لانتقاده.وهكذا ظللنا ردحا من الزمن ندور في حلقة مفرغة، قبل العثور على الاتجاه الواجب اتباعه. كان علينا أن نتأكد من صحة معايير أدوات سياستنا وجودتها. وإذا كان الجسد المغربي قد سلم من أية إصابة خطيرة، رغم الظروف العصيبة التي مررنا بها، فذلك يرجع لكوننا نعرف شخصيا المسؤولين السياسيين عن جميع الأحزاب ونتمكن دائما من متابعة الحوار معهم، ذلك أن البلد لم يكن تتجاذبه فقط تيارات متشبعة بالفكر اليساري أو

بالمذهبية الثالثية. بل كانت هنالك أيضا تيارات. لا أقول محافظة. وإنما أقول أقل جرأة.

وقد عرفت بعض الجهات تمرداً فكرياً إضافة إلى قلاقل سياسية. فمثلا في الريف، الذي كان خاضعا للحماية الإسبانية، كان لدى السكان شعور بأنهم يعاملون كفئة مهمشة في المملكة ولم يقبلوا بهيمنة حزب الاستقلال الذي لم يتصرف بما يجب من الحنكة. لذلك عمد شخص اسمه سلام الحاج إلى استغلال النزعة القبلية. والقبلية هنا لا أستعملها باستخفاف. بل العكس. ذلك أن البلدان العريقة تتكون غالبا من مجموعات من القبائل.

سؤال: ماذا كان موقف إسبانيا خلال مسلسل تصفية الاستعمار؟

جواب: لم يهضم مساعدو فرانكو تصفية الاستعمار بالمغرب. لذلك نفذوا العملية على ثلاث مراحل. أقمت مرة بتطوان مدة ثلاثة أسابيع. مصحوبا بأعضاء أركان الحرب التابعين لي. لأن الإسبان كانوا يوفرون السلاح والزاد للسكان المعتصمين في الجبل. لقد كانت الوضعية قابلة للانزلاق في المتاهات. وتوجهت إلى الرباط لمقابلة والدي وقلت: « سيدي. الكلمة الآن لكم » فقال: « ماذا يتوجب عليّ عمله؟ ». قلت « عليكم توجيه نداء. فلا بدّ أن تتوقف الأسلحة وأن يتكلم الملك ». وفعلا سجل نداء للإذاعة. وبما أن أهل الريف يعدون من أقل المبتلين بالأمية في البلد. فقد عززنا النداء الصوتي بمنشورات محررة بالعربية وباللهجة الريفية. وألقيناها من الطائرة. وفي الغد. وفي ظرف نصف يوم. وضع الناس أسلحتهم. وعادوا إلى مشاغلهم اليومية.

سؤال: ما هي طبيعة المؤامرة التي دبرت ضدكم سنة 1959؟

جواب: كيف؟مؤامرة دبرت ضدنا سنة 1959؟أبدا. لم أفهم...!

سؤال: تلك التي كانت مرتبطة بتصفية جيش التحرير.

جواب: آه أبداً. لم تكن مؤامرة. بل قضية تعود الى 1956 وكان ابن بركة وراءها. كان جيش التحرير والمقاومة يشكلان جناحين مختلفين. كانت المقاومة المنتشرة في المدن على الخصوص. حساسة للغاية تجاه خطاب الأحزاب السياسية. وقد أراد ابن بركة تسييس جيش التحرير أيضا. وتدخل المصريون في الأمر. فقد كانوا هم الذين يزودون بالسلاح سواء عندما كنا في المنفى أو بعد رجوعنا حيث لم يتوقفوا عن الإمداد. إنكم تعرفون « الناصرية ». لقد كان ملحقهم العسكري في إسبانيا نشيطا للغاية. وكنا في المغرب على علم بذلك. وكان هدف ابن بركة هو إخضاع التسعة أو العشرة آلاف رجل المكونين لجيش التحرير لسيطرة حزب كان سيصبح حزبا وحيداً. ونتيجة لذلك التحرك تم اختطاف واغتيال أحد مؤسسي جيش التحرير واسمه عباس المسعدي.

صادف ذلك عودتي من القاهرة. بعد أن قمت بتمثيل المغرب في الحفلات التي نظمت بمناسبة تأميم شركة قناة السويس. ولدى عودتي وجدت الوزير الأول آنذاك السيد البكاي ينتظرني أسفل الطائرة وقال لي: « هلموا حالا يامولاي. إن صاحب الجلالة في انتظاركم ». وفعلا وجدت والدي جالسا في الساحة الكبيرة للقصر. وعندما سألني عن أحوالي قلت « إنني متعب » فانحنى علي قائلا: « رغم تعبك لا تفتح حقائبك لأنك ستتوجه حالا إلى فاس بقصد اتخاذ الإجراءات اللازمة لأن جيش التحرير يزحف نحو مدينة فاس ». وبالفعل توجهت إلى فاس حيث قضيت أياما وليالي. رفقة وزير الداخلية إدريس المحمدي الذي كان رجلا صارما. وهو الذي تفاوض من أجل إدماج جيش التحرير في القوات المسلحة الملكية. وكنا أيضا بصدد البحث عن المدعو حجاج المشتبه في كونه قاتل

المسعدي .وقد ألقي القبض عليه يوما وهو مستلق على بطنه في أحد الحقول وبين يديه بندقية مجهزة بنظارة . لقد كنت على بعد ستين متراً منه ، أسوق سيارة جيب في أحد المنعرجات ولقد كان يستهدفني . وحين جيء به إلي بادرني قائلا : « عندما كنتم تصعدون العقبة ، ممتطين سيارتكم استهدفتكم خمس مرات ، من خلال نظارة بندقيتي . وكانت أصبعي على الزناد ، لكنني عجزت كل مرة عن الضغط وكأن قوة ما كانت تمنعني » .

سؤال : هل اعترف لكم بذلك تلقائيا؟

جواب : بالضبط ، لكن الطريف في الأمر أن صداقة متينة أصبحت تربطنا ، وهذه هي القصة ، فبمجرد القبض عليه اعترف لنا بأنه قتل المسعدي . وهدانا إلى المكان الذي دفنه فيه وقال : « قتلته بأمر من ابن بركة » . وسجل اعترافه كل من وزير العدل وعامل فاس . وثرت غضبا كما كانت عادتي في تلك الفترة ، وكلمت أبي هاتفيا مخبرا إياه بعودتي إلى الرباط . وفعلا عدت في طائرتي وكان اليوم يوم أحد . وحطت الطائرة في مطار العاصمة ، وعند وصولي إلى القصر نظر إلي « المعلم » وعليه أمارة الاندهاش وقال لمَ جئتم؟ .. وتقمصت شخصية « فنفان لا توليب » المعروف بحماسه وقلت له : « المسألة بسيطة ، جئت لألقي القبض على ابن بركة » فنظر إليَ غير مصدِق ، وقال : « كيف؟ » فسلمته اعتراف حجاج . وقلت : « اقرأوا » . فتأمل الورقة على مهل . ثم أخذ يحدث نفسه مرة بهدوء ، وأخرى بلهجة حادة : « ليست هناك متابعة ضد ابن بركة » تصوروا الظرف آنذاك ، لقد كنا بصدد إدماج عشرة آلآف شخص من جيش التحرير في القوات المسلحة الملكية الذين كانوا يتجولون أحرارا طلقاء .

سؤال : هل نفى ابن بركة التهمة الموجهة اليه؟

جواب : أبدا .

سؤال : هل تحدثتم إليه في هذا الموضوع؟

جواب : نعم . وابتداء من ذلك الوقت لم أعد أكن له الاحترام الذي كنت أكنه لأستاذي .

سؤال : وماذا فعل الله بحجاج القاتل؟

جواب : قال لي والدي : « هذا الشاب الذي كاد يقتلكم يوجد الآن في قبضة يدكم . ترى ما أنتم فاعلون به؟ » . قلت : « لا أؤاخذه بل أعفو عنه » ، وبعد مدة أصبح رئيسا لفرقة مشهورة لكرة القدم ، إنها فرقة الرجاء البيضاوية . وفي كل مرة كان ينظم فيها كأس العرش ، الشبيه بكأس فرنسا ، كان يتقدم للسلام علي بحرارة . لقد توفي منذ نحو خمسة أعوام ، وأنا آسف عليه بمرارة .

سؤال : تحدثتم فيما سبق عن المباحثات الطويلة العقيمة أحيانا التي أجريتموها مع بعض الزعماء السياسيين . ما هي الدروس التي استخلصتموها؟

جواب : قبل كل شيء ، توصلت إلى نتيجة أولى وهي أنه لا تنبغي إضاعة الوقت في إثبات حسن النية للمخاطبين ذوي النية السيئة . ثم فهمت أنه يتعين قدر الإمكان محاولة إقناع المخاطبين بالغاية المتوخاة من العمل .فعلى سبيل المثال ، المهم عندي هو أنْ أقول : « يجب أن نتجه صوب الدار البيضاء » ، وبعد ذلك فقط تكون المناقشة حول التفاصيل كتحديد الطريق ووسيلة النقل . فمنطقيا ، يتعين علينا أن نمتطي السيارة ونسلك الطريق المباشر . إلا أنه قد نكون مضطرين لتغيير الطريق إذا ساءت أحوال الجو . ذلك أن السياسة تشبه شيئا ما أحوال الطقس . إذ يمكن

التقدم في اليوم الصحو أو في اليوم الدجن. وفي كلتا الحالتين لا مناص من اختراق غيوم المستقبل. ومن الخطأ القول إن الإنسان يستطيع أن يخطط لكل شيء، على مدى ثلاث أو أربع سنوات. فقد نجد أنفسنا في أية لحظة أمام ما لم نكن نتوقعه.

سؤال: هل تتطلب الممارسة اليومية للسياسة أن يؤخذ في الحساب والتقدير ما ليس متوقعا؟

جواب: لا بد من التوفر دائما ليس على عجلة إغاثة واحدة بل على ست او سبع عجلات، إذ لا يمكن التكهن بما قد يحدث، وفضلا عن ذلك فقد أصبحت العلاقات، بين الدول والقارات والناس في عصرنا هذا تكتسي طابع السرعة المفرطة، حيث نتوصل مثلا بالنظر إلى التفاوت في التوقيت، بخطاب قبل أن يكون، نظريا، قد بعث به. المهم أن يكون الرادار في مكانه مهيأ باستمرار، وفي نفس الوقت علينا أن نبحر سعيا وراء خرق كثافة السحاب واستشفاف ما وراءه.

سؤال: لكن - على سبيل المثال - لماذا وقع اختياركم في وقت مبكر على اقتصاد السوق رغم مخاطره، على حساب نظام التخطيط الذي اختارته أنذاك عدة بلدان سائرة في طريق النمو؟

جواب: لأن هناك حتميات كثيرة في الحياة، وأنا لا أريد أن أضيف إليها حتمياتي، إن التقيد بتصميم لخمس سنين بلا شك يشكل «قدرا محتوما جديدا».

لقد وقع جدل كبير بين أعضاء حكومتنا سنة 1961 حول هذا الموضوع: هل نعتمد تصميما لخمسة أعوام أم لعامين؟ كان والدي يدافع عن التصميم الخماسي وكنت من أنصار التخطيط لسنتين فقط. وقد حل بريجنيف في زيارة للمغرب، حين كنا بصدد الخوض في هذه المسألة. وكان والدي منهك القوى إذ كان لقاؤه ببريجنيف من آخر أنشطته الرسمية. وتم تنظيم حفل عشاء فاخر تكريما لبريجنيف. وكان مثلي من عشاق كرة القدم. وأذكر أنني حضرت برفقته في موسكو مقابلة بين الفريقين الوطنيين المغربي والسوفياتي كنا نحن فيها الفائزين. وخلال حفل العشاء، أثيرت مسألة التصميم، فالتفت إلي بريجنيف قائلا بمحضر والدي: «إن لديكم مهارة في هذا المجال وأنتم فيه من خيرة الخبراء. هل يجب اختيار تصميم لخمسة أعوام أم تصميم لعامين؟». أتذكر أنه استغرب سؤالي ولزم الصمت قليلا ثم قال: «كلما طالت مدة التصميم أصبحت الأهداف المرسومة له صعبة المنال. كمثل الهدف الذي تنصبونه بعيدا جدا. فإذا انحرفتم عند الانطلاق بمليمتر واحد فستصيبون في النهاية نقطة تبعد عن هدفكم بكيلومتر. وعلى العكس من ذلك. إذا كان الهدف قريبا فستصيبونه بدقة، ولو لم يكن ذلك داخل مركز الدائرة، لذلك، أرى أن أنصحكم بكل صراحة باعتماد خطة لعامين». لقد فوجئ جميع الحاضرين بهذا الجواب الذي أظن أنه رجح كفة التخطيط لعامين. وهو ما استقر الرأي عليه في النهاية.

سؤال: لماذا كانت لكم هذه التحفظات على التخطيط، مع أنه أسهم أحيانا في الانطلاقة الاقتصادية لعدد من البلدان السائرة في طريق النمو؟

جواب: لأن التخطيط يقتضي اعتماد مذهب الاقتصاد الموجه، ولكي يكون هناك توجيه فلا بدَّ من قادة موجهين. وهنا يكمن سر فشل بلدان العالم الثالث التي أرادت اعتماد التخطيط. والتخطيط معناه أنكم تسيرون كل شيء، وأن هناك الرجال المنتدبين في جميع المرافق وعلى جميع المستويات. فكيف يكون التوجيه حين يسود

التخلف على المستوى البشري وتكون الأطر نادرة؟ كيف إذن يستقيم التوجيه بدون موجهين؟ ثم ماذا نوجه إن لم يكن هناك غير الفقر؟

سؤال: إنه بإلقاء نظرة على الحياة السياسية المغربية في بداية الستينيات نجدها مطبوعة بغليان كبير للأحزاب السياسية وبانتقادات حادة لبعضها، تجاه الملكية.

جواب: لقد حصل لنا ما يحصل أحيانا في بريطانيا العظمى، حيث تتخذ المعارضة مواقف حادة من التاج والمؤسسات. لكن السجال يبقى أنجليزيا محضا. أما الحدة التي ذكرتم، فهي راجعة أساسا إلى كون الحزب السياسي كان مثل استقلال البلد حديث العهد. فقبل التوقيع على إعلان الاستقلال كانت الأحزاب تشكل عناصر لتأطير السكان وبث روح الوطنية والنضال عن طريق شن الإضرابات وتنظيم المظاهرات. وبين عشية وضحاها أدرك النضال غايته وحصلنا على الاستقلال دون أن نمر بمراحل انتقالية، مثل الحكم الذاتي. فكان على الأحزاب أن تتكيف. وأظن أنه يمكن ترتيب أصحاب الأفكار السياسية في ثلاث فئات: هناك الهائجون، فالمهيجون، ثم رجال الدولة. لقد كان السواد الأعظم من الفئة الأولى. أما المهيجون فإنهم يثيرون ضجيجا صاخبا في حين يظل بروز رجال الدولة في حاجة إلى الوقت. وعلى كل حال فالإنسان لا يولد ومعه ملكة أو مقدرة خاصة على تصريف الأمور لأن ذلك غير ممكن قطعا. لا يولد الإنسان رجل دولة، وإنما قد يصبح كذلك.. وما أكثر من يسقطون في الطريق. وأتذكر بهذا الخصوص قولة لأحد اصدقائي، كان عميدا للشرطة، أصله من تولوز، اسمه بوف، وكان معنا في المنفى وكنت وعدته بتوظيفه بعد رجوعنا من مدغشقر. وفعلا تم له ذلك بعد ثلاثة أشهر من عودتنا. وقد اشتغل في القصر حتى وفاته. لقد كنا نتجاذب أطراف الحديث باستمرار. فقال لي مرة بنبرته الشائقة: «آه.. السياسة... إذا نجا عشرة منها مات ألف» إن لهذه المقولة بعض الإيجاز. والواقع أن غالبية المتأهبين في خط الانطلاق... لا يصلون إلى نهاية المطاف.

سؤال: لكن الأحزاب السياسية تتمكن في آن واحد من التعبير الديمقراطي ومن تكوين القادة الأكفاء.

جواب: إن الأحزاب السياسية تشكل الأدوات اللازمة للديمقراطية. لكن دكتاتورية التسيير فيها لا تضاهيها دكتاتورية. إن الأحزاب تثبط الهمة وتقلص القدرة. لذلك على المرء أن يبرهن على قدرة فائقة على التهييج ونشر الأفكار ليتمكن من تلقين أسلوبه ورؤيته لحزب سياسي. وحتى في فرنسا نفسها نجد أن النظام الداخلي للأحزاب لا تطبعه الديمقراطية إلا بشكل محدود جدا.

سؤال: كيف تلقيتم، سنة 1959، الانشقاق في صفوف حزب الاستقلال ونشوء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية؟

جواب: أحيلكم على الحديث الذي أدليت به حينذاك لمجلة «باري ماتش». كانت حوادث الريف قد نشبت وقتئذ. وعندما كنت أصطحب معي في الطائرة الصحفي المستجوب وأثناء الطيران ألقى علي نفس السؤال، فكان جوابي: «إنه حدث ستكون له انعكاسات بالنسبة للمغرب لسنين طويلة».

يتعين هنا فهم السياق العام. فالرأي العام المغربي لم يكتشف، إلا منذ فترة وجيزة، أن عليه أن يسوق سيارته بنفسه وبشكل حذر وواقعي. فالشباب والأطر التي تكونت في الخارج لم يكونوا بحاجة إلى هذا النزاع الذي أثر

أيما تأثير على نضجهم وحسهم بالمسؤوليات. ولقد كان الأمر أكثر من محض انفصال في حزب أو جماعة. لأن هذا الشرخ العميق امتد إلى الأسر المغربية. وكما تعلمون، فإن الديماغوجية جزء مما يمكن أن نسميه بتوابل السياسة اليومية. ولذلك فإغفالها أو منعها ضرب من الخيال. لقد أفرطنا في هذا المجال، لأن كلا الحزبين كان يريد إقامة البرهان، وبإصرار، على أن الحق معه. و«الفاتورة» التي اضطررنا إلى تسديدها لم تكن اقتصادية ولا مالية، ولكنها كانت إنسانية. نظرا للتصدعات التي ترتبت عنها على مستويات عدة. إن السياسة لا تشبه الحساب، فمثلا حين نقسم اثنين على اثنين لا نحصل حتما إلا على واحد. أما بالنسبة للسياسة فقد نحصل على 0.2 أو 0.5 لقد استنتجت من ذلك درساً، هو أنه إذا كان بإمكان الجراحة اليوم أن تحقق نتائج خارقة، كزرع الأعضاء وإعادة المبتور منها، فإنه يستحيل تماما لمّ شتات حزب وقع فيه انشقاق. فالمرء يجد نفسه أمام حزازات أشد قسوة من «الفانديتا» الانتقامية التي عرفتها كورسيكا خلال القرن الماضي. وبطبيعة الحال فإن المسلسل يفضي إلى حكومة تتكلم بصوت مرتفع، ومعارضة تحاول أن تصرخ بصوت أعلى، ومن ثم لم تكن تلك الفترة مطبوعة بالهدوء الفكري.

سؤال: لكن إذا تعلق الأمر بالترتيب فأين سترتبون السيدين بوعبيد وابن بركة مؤسسي الاتحاد الوطني؟ هل في صف الهائجين أو المهيجين أو رجال الدولة؟

جواب: بكل صراحة، أضع بوعبيد في فئة رجال الدولة، وابن بركة مع المهيّجين.

سؤال: هناك شيء لفت نظري، هو أن والدكم على ما يبدو كان يصغي لابن بركة، إذ بعد عودة هذا من الصين حاول أن يقنع والدكم بتطبيق النموذج الصيني في المغرب.

جواب: لا أعرف من قال لكم هذا الكلام، ولكنه يمكنني أن أؤكد لكم أنني كنت أجتمع بأبي كثيرا، وكان يحدثني عن مباحثاته، ولم نتكلم قط عن النموذج الصيني ولا عن الصين. ولم يطلع والدي على أي كتاب حول هذا الموضوع. كما لم يطلب أن تحرر له مذكرة تتضمن دراسة عن النموذج الصيني. ولو حصل هذا لكان أمراً غريبا.

سؤال: في نفس الحقبة، تم انتقاد الملكية بعنف لم يسبق له نظير أثناء مؤتمر للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كيف واجهتم تلك الهجمات؟

جواب: كان رد فعلي مطبوعا بالمزاج الذي كان يفرضه سني، لقد كنت في حالة غضب شديد. ومع ذلك أظنكم قد بالغتم في التعبير. فعلاً كانت هناك انتقادات موجهة للملكية ولكن أحدا لم يجادل فيها، ولو حصل ذلك لعمت الفتنة المغرب.فلم يصل المنتقدون إلى هذا الحد. ولأن ذلك لم يكن في إمكانهم. فقد كانوا معي في الحكومة.

سؤال: في الخمسينيات انهارت بعض الملكيات العربية كما حصل الشأن في مصر والعراق. هل أزعجكتم تلك الأحداث؟

جواب: كلا، لا سبيل لمقارنة ما لا يقارن، بل لا تصح الموازاة بين أولئك الذين استطاعوا اعتلاء العرش لأنهم جاؤوا مخفورين بسلطات الاحتلال، وأولئك الذين تمتد جذورهم إلى قرون خلت. لقد كان المغرب محظوظا، لأنه لم يكن أرض عبور، ولو لم يكن يحده المحيط الأطلسي غربا والصحاري جنوبا لما كانت لنا هذه الشخصية المتفردة، ولفقد شعبنا هويته ولأضحينا معبرا لقوافل تقضي به أثناء مرورها، ردحا من الوقت. لقد لعبت

الصحراء مثلا دورا كبيرا في تجديد الأسر الملكية في المغرب، فباستثناء الأدارسة والموحدين، فإن معظم هذه الأسر تنحدر من الجنوب.

لقد عاش أجدادي، أربعة قرون في المغرب، كرعايا لمختلف الأسر الملكية.لقد ولدوا هنا وأدوا الضرائب وحاربوا حين كان لا مناص من الحرب خصوصا في الأندلس. بل في عهد بني الأحمر التمس أهل الأندلس من جدي مولاي علي الشريف أن يتولى قيادة جيشهم، فكان جوابه، وهو محفوظ عندنا: «دعوني وشأني، لقد جئت هنا للجهاد ضد الكفار تلبية لنداء السلطان أمير المؤمنين، ولقد أديت الرسالة، والآن سأعود لدياري».

إننا لم نأت إلى هذا البلد لنستولي على الحكم، وإنما أتينا لأنه طلب منا ذلك. ولما كانت واحات النخيل، في صحراء تافيلالت،تتعرض للإبادة من لدن حشرة الفطر التي كانت تنخُرها، فقد ظن الناس أن وجود واحد من آل الرسول سيقيهم سوء هذا البلاء. وشاءت معجزة التاريخ أن يصادف وصول جدي الحسن إلى المغرب السنة التي نجت فيها تلك الواحات من الهلاك.فمكثنا هنا...

وبهذه الطريقة تميز المغرب دائما بطابعه الخاص وظل يقظا باستمرار. وقد جعلنا هذا التدفق البشري نشعر بانتمائنا لإفريقيا. وفي ذات الوقت، ذهبنا إلى إسبانيا لنستنشق هواء أوروبا. بل من منطقتنا هذه ذهب إطار سام إلى الشرق العربي في عهد الفاطميين ليرسم مخطط القاهرة ويبنيه، إن بلدنا هذا لم ينكمشْ قط ولم ينغلق، بل كان بمثابة الشجرة، جذورها في أعماق الأرض الإفريقية، وأغصانها وأوراقها ممتدة نحو أوروبا.

الفصل الخامس

البدايات والدستور

سؤال: صاحب الجلالة في سنة 1960 توجه والدكم إلى مكة لأداء مناسك الحج. وصرحتم أنه بقيامه بتلك الرحلة كأنه كان يتنبأ بشيء ما يخص مستقبله.

جواب: كان يشعر بإرهاق شديد لم يعد يحتمله. كما كان يحس بدوار يزعجه وينغص حياته. وفي هذا الموضوع قال له طبيبه الخاص، الأخصائي الكبير في أمراض الأنف والأذن والحنجرة: «صاحب الجلالة، بالإمكان أن نخاطر. سيزول الدوار ولا شك، لكن صمما في إحدى أذنيكم سيترتب على العملية..». فقال والدي: «بكل صراحة، أيها الصديق العزيز، أتتصورونني أمسك بيدي شخصا وألتمس منه أن يغير مكانه حتى يتأتى لي سماعه. هذا مستحيل». لقد رفض هذا العلاج، مع أن الداء الذي كان يعانيه أضناه. وهنا سأقص عليكم طرفة. لقد كان الحديث بيننا ذات يوم جارياً، فقلت له: «سيدي، لقد جعلتم من المغرب بلدا متفتحا، فالناس الآن يستمعون للإذاعات ويقرأون الصحف والمجلات. لقد وضعتم فعلا طابعكم على ظهير الحريات العامة؛ لكنه رغم ذلك يجب أن تتقبلوا أن يكون بعض الناس غير متفقين معكم». وبعد أن شعرت أنه موافق على ما أقول؛ أضفت سائلا: «لنفرض أنكم قررتم غدا دخول مدينة ما دخولا رسميا فأخبرتم أنه سيأتي ليهتف بحياتكم مليون شخص، إلا أنه سينطلق الصفير ضدكم من أفواه عشرة آلاف آخرين فماذا تفعلون؟» فقال: «لن أذهب»، ثم سألني «وأنت؟.» فقلت: «أما أنا فسأذهب» وبعد أن فكر مليا، قال لي: «ذلك هو الفرق بين تكوينك وتكويني. لقد قضي الأمر. وانتهت مهمتي وأزفت ساعتك، فلأجل هذه المهمة كونتك».

سؤال: وماذا كان جوابكم؟

جواب: «بكل ما أكنه من احترام وإجلال لكم يا مولاي، أود ألا أسمع مرة أخرى منكم كلاما من هذا القبيل، وإلا فسأنسحب.»

سؤال: وما كان رد فعله؟

جواب: ابتسم. لقد كان يسره ان أعاكسه بلطف، ولكن دون تجاوز حدود الاحترام واللياقة.

سؤال: كيف آلت العملية الجراحية التي أجريت إلى فاجعة بالرغم من بساطتها؟

جواب: أعتقد أنه كان لا يريد أن يستيقظ. في الليلة التي سبقت العملية فاجأته أمي وهو يحلق ذقنه فداعبته بقولها: «سيدي، تحلقون ذقنكم عشية إجراء عملية. لعل ممرضة حسناء ستكون بين الحضور». فقال والدي جادا: «بل أريد أن أكون أنيقا للقاء الملائكة». لم تقص والدتي عليّ هذا الحوار إلا بعد وفاته، ثم قالت «لم أكن أريد إقلاق راحتك». ولو كنت على علم لكنت قد أقفلت باب المصحة حتى لا تتم العملية.

سؤال: كيف علمتم بوفاته؟

جواب: كنت حاضرا. وخرج الاطباء، وهم يغسلون أيديهم والتحقوا بنا في القاعة والاطمئنان باد على وجوههم. لقد جرى كل شيء على أحسن ما يرام. احتسينا الشاي وشربنا المبردات. وفجأة جاء طبيب التخدير الذي ظل إلى جواره وعلى محياه أمارة الأسى. قال لنا: «سكتة قلبية». لقد تمت جميع المحاولات لإنقاذه طيلة ما يقرب من ساعة. إذ ذاك انهار العالم من حولي وأصبحت ضائعا ككرة وسط ميدان، يقذف بي من اليسار إلى اليمين ومن أعلى الى أسفل.

سؤال : ثم ماذا ...؟

جواب : كان لا بُدّ من إصدار الأوامر الأولى بخصوص تهيء الجنازة . وبذلك لم يكن لدي الوقت لأبكي والدي كما كنت أريد . وبينما أنا سائر وراء نعشه قلت لمن كان حولي : « إنكم تسيرون وراء نعش شخص واحد . أما أنا فأدفن في وقت واحد والدي وولي العهد » . بصراحة أؤكد لكم أنه ليس من السهل على الإنسان أن يدفن نفسه .

سؤال : بماذا يشعر الإنسان عندما يتحول فجأة إلى الوجه الآخر للمرآة؟

جواب : إننا نولد بلا شعور ويبدو أننا نتألم لأننا نلمس حقائق حسية ومادية . ولذلك نصيح .أما في هذه الحال فإن الأمر يتعلق بولادة تمت من أولها إلى آخرها . في حالة من الوعي والألم . ومَردُّ ذلك أساسا إلى أننا فقدنا عزيزا علينا . إنه أمر شديد التعقيد . طالما أن المرء لا يستطيع تحليل ذاته . إن الأمر يشبه زلزالا حقيقيا : فكل شيء ينهار . ويصبح الإنسان يتيما . جسديا وعاطفيا وسياسيا .

سؤال : هل كنتم في البداية تحسون بفقدان والدكم؟

جواب : أود أن أقول لكم شيئا : إلى يومنا هذا لا تمر عشرة أيام أو اثنا عشر يوما . إلا وأراه في المنام .

سؤال : هل تمرون بلحظات تتمنون فيها استشارته؟

جواب : آه . صحيح . أحيانا كانت الرغبة جنونية في أن أسمعه يقول لي كما في السابق : « ما هذا الغباء!؟» إن الانسان يشعر بالحرمان حين لا يجد ذلك الكائن الذي يمكنه أن يأتمنه على أسراره . وكذلك حين يبحث عن يد ليقبلها . عربونا على حبه إني لا أزال متعطشا إليه إلى يومنا هذا .

سؤال : هل أحسستم . بسرعة . بأن هناك حقا عزلة في الحكم؟ هل يعني هذا شيئا ملموسا؟

جواب : ذلك أمر ملموس . فمهما تكن الصلة حميمة مع ساعدكم الأيمن . ولدا كان أو أخا . فأنتم بمفردكم عليكم أن تتخذوا القرار . ولو كان قد تم إعداد عناصره برمتها . وحتى ولو كنتم تحظون بعطف ألف شخص . يحيطون بكم يمنة ويسرة . فإنكم وحدكم مطالبون بمواجهة الطوارئ والعواقب والمضاعفات التي يفرزها اختياركم . والتي يمكن أن توزن بالأطنان لا « بالغرامات » . معنى ذلك أن هذه العزلة لا تشكل حالة يائسة . إنها تشل الحركة شيئا ما . ولكن على الإنسان أن يكون حازما .

سؤال : ولماذا تشل الحركة؟

جواب : لان المرء لا بد أن يتردد . فأي إنسان يقدم على اتخاذ القرار ويزعم أنه لم يعش لحظات الحيرة . سيكون كمن يدّعي العصمة . وهذا أمر لا وجود له .

وعلى العكس من ذلك هناك الفرد المنعزل تماماً عن الناس قاطبة . جسديا وروحيا .. وهذا الانسان ليس من حقه أن يتخذ القرارات المهمة . لأن غربته حكمت عليه بنوع من العزلة الجافة . وعلى الإنسان أن يحرم على نفسه الإشفاق عليها وإلا ضعفت شخصيته .

سؤال : ألا يزال التردد حين اتخاذكم للقرارات الكبرى ينتابكم . وبشدة . مثلما كان عليه الأمر قبل ثلاثين عاما؟

جواب : نعم . لقد ظل الأمر على ما كان عليه . قد يحدث تغيير في المكان ، ولكن القرار يبقى هو هو . جوهرا وشكلا ولو بعد عشرين أوثلاثين عاما . كل ما في الأمر أن التشابه يزيد أو ينقص بحسب الحالات . في الواقع هناك تحويل خطي في الزمان ، لكن وزن القرار سنة 1992 لا يختلف عما كان عليه الأمر سنة 1958 أو 1966 .

سؤال : ألا تعتقدون أن اثنتين وثلاثين سنة من ممارسة الحكم تفضي إلى اعتماد شيء من النسبية في تقييم الأمور؟

جواب : لعل أبقراط هو الذي قال : « الحياة قصيرة ، والفن طويل ، والفرصة عابرة ، والتجربة مريبة ، والحكم عسير . » وفي تعدادات هذه المقولة لا تجدون ولو مرة واحدة لفظ « مستحيل » لكن المخاطرة واردة في كل وقت وحين .

سؤال : حينما يرقى المرء إلى الحكم أول الأمر ، هل يقدم رجلا ويؤخر أخرى؟ هل يرنو إلى محاكاة سلفه؟

جواب : إني أومن دائما بما قاله بوفون : « الرجل هو الأسلوب » . ولم أفتأ إلى اليوم ألقي السؤال نفسه : « ترى ماذا كان أبي فاعلا؟ » ولم أطرح أبدا على نفسي سؤالا من قبيل : « ترى كيف كان سيفعل؟ » يتعين تجنب الافتراض الثاني إطلاقا . فمن الغلط الفادح أن يريد الشخص أن يكون نسخة من أصل . قد يشبهه في مشيته أو نزوله من السلم مثلا وحتى في كلامه ، طالما أن الابن يقلد أباه . لكن يتعين بالأساس أن لا يحاكيه في التفكير . فالمحاكاة في هذه الحالة مستحيلة وخطيرة .

سؤال : ما هي قراراتكم السياسية الأولى بعد اعتلائكم العرش؟

جواب : حدث شيء مهم . كنا ستة وعشرين في الحكومة . وغداة وفاة والدي صرنا ثلاثة عشر .

سؤال : ولماذا؟

جواب : لأنهم كانوا يجهلون أن الأمير ولي العهد دفن هو الآخر . وتساءلوا كيف سيواجهونه في غياب « التأمين على الحياة » الذي كان يجسده محمد الخامس . على أنه لم ينسحب منهم إلا أولئك الذين لم أكن أتفاهم معهم . وقد أحسنوا صنعا بموقفهم ذاك بحيث أراحوني من اتخاذ القرار بإعفائهم . إن الأمر ليبعث على الضحك .. وهذا يعني أنني لا أستطيع أن أتعامل إلا مع فريق يتكون من أشخاص أكن لهم المودة .

سؤال : لكن ، كيف لا يحصل التعاطف مع شخص ذي كفاءة عالية؟

جواب : في هذه الحالة أتعامل معه دون ابتهاج . وحينئذ يكون عملنا بالتالي رتيبا وليس متميزا . العمل الذي تطبعه الرتابة هو العمل الذي يفرضه عليك شخص ، أو ظروف . وهو شيء مضن في مهنة الملك . أما إذا كانت لديكم ملفات جيدة ، حتى ولو كانت صعبة ، كما هو الشأن بالنسبة لإعادة الهيكلة والعملة والتوازنات الأساسية في الميزانية ، فذلك من نوع العمل المتميز الذي لا يفرضه توقيت زمني ، وهو عندي كالاستراحة .

سؤال : عندما كنتم تهيئون دستور سنة 1960 ، هل استلهمتم دستور الجمهورية الخامسة؟ هل كان في نفسكم تأثر بجو عدم الاستقرار الذي كان يطبع حياة فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة؟

جواب : فعلا ، استلهمت دستور الجمهورية الخامسة ، ولكنني قدرت أن الأخلاق السياسية الفرنسية متجذرة منذ قرنين . فالمثالب التي عانت منها الجمهورية الرابعة لم تكن في الواقع سوى نتيجة لمختلف التجارب التي مرت

منذ 1789.

سؤال: وما هي في نظركم الخطيئة الأصلية؟

جواب: في رأيي، لقد تمت منذ عهد «الكومونة» و«البولانجية»، محاولات لتحديد أو تقليل سلطات رئيس الدولة وجعل الجمهورية في أن واحد تتوفر على حكومة قوية وبرلمان قوي. ونتيجة لذلك كان أحيانا يصعب على الإنسان أن يعرف أين يوجد مصدر القرار. وعلى كل حال، أعتقد أن الفرنسيين انتبهوا للأمر وكان ممكنا أن يقوموا بمراجعة الدستور في الأربعينيات لولا اندلاع الحرب. وأذكر أن طائفة من الطبقة السياسية كانت تفكر في ذلك. وأخص بالذكر منها بول رينو وما كان يكتبه في المو ضوع من مقالات قيمة. لقد كان الانطباع السائد أنذاك أن التعددية الحزبية لم تكن متوازنة، حيث كانت هناك أحزاب' وسيطة تتخذ القرار بناء على مصالحها الذاتية لإفراز الأغلبية الحاكمة. وقد أدى ذلك إلى تدني الوضعية سنتي 1938 و1939. ولعل انعدام الحزم هو الذي شجع ألمانيا على خوض غمار الحرب في أوروبا. وظن هتلر، أمام تعاقب الأزمات الحكومية، أن لا قوة قادرة على إيقاف زحفه.

سؤال: ماذا كان هدفكم حين وضعتم دستوركم؟

جواب: من الناس من يؤاخذني بكوني الرجل الذي يريد أن يقوم بكل شيء وينظم كل شيء. وهذا غير صحيح. إن الذي يقول هذا لا يفرق بين الرغبة في الاحتكار وبين ممارسة السلطة. إن طبعي ميال إلى ممارسة السلطة دون أن أكون دكتاتوريا. إنني أحب ان تكون الأمور متقنة وأن تنجز في وقتها. وخلاصة ما انتهيت اليه في تحليلي هي أن كل قرن يشهد مشكلا كبيرا واحدا، في حين يشهد القرن الذي نعيشه - دفعة واحدة - العديد من المشاكل الاجتماعية والصحية والصناعية، أو مشاكل مرتبطة باللامركزية أو الفلاحة. إنه لا يخطر على البال أن يتولى إنسان بمفرده القيام بعمل جوقة بأسرها ويوفق في عمله. لذا أود في كثير من الأحيان أن أفوض جزءا من مسؤولياتي، لكن يجب أن اقول إنني لم ألق دائما حسن الاعتراف بما أفعل، كما أنني لم أحسن الاختيار في بعض حالات التفويض.

سؤال: هل كانت نسبة الاختيار غير الموفق أكثر من غيرها؟

جواب: على العموم أسأنا الاختيار بمعدل ستين في المائة ووفقنا في الاختيار بمعدل أربعين.

سؤال: هل حدث لكم أن ندمتم على تقييمكم للناس؟

جواب: بمرارة. إنني عموما نسّاء' حينما يتعلق الأمر بأخطاء الناس. ولكن عندما يتعلق الأمر ببعض الأخطاء، وهنا لا أتحدث عن المحاولتين العنيفتين المدبرتين ضدي، وإنما عن أخطاء تتعلق فقط بتدبير الشؤون. هنا أستمر في مؤاخذة من أخطأ. وعلى كل حال، خير لي أن أصمت.

سؤال: كيف تلقيتم انتقادات المعارضة التي نعتت دستوركم لسنة 1962 بكونه يكرس الحكم المطلق؟

جواب: الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار هو الإرادة الشعبية ومدى التعبير عنها. فإذا قال الشعب يوما إن الدستور الحالي لا يروقه، غيّرته. لقد علمني والدي ألا أدع الأحداث تملي شروطها علي بل أن أستبق رغبات الناس. فلم أشهد آنذاك مظاهرات أو مهرجانات نظمت للمطالبة بدستور. وكل ما هنالك وعد قطعه

أبي على نفسه ووفيت به. وأصبحت نتيجة الاستفتاء، الذي اقترحته ملزمة للجميع. ولنفترض أن البرلمان صوت على قانون وطلبت منه إجراء قراءة ثانية لكنه أصر على تصويته الأول. فحينذاك أدعو إلى استفتاء. فإن أعطي الحق للبرلمان رضخت. وإن أعطاني الحق حل البرلمان. لقد كنت دائما أضع إرادة الشعب فوق كل اعتبار، لأنه ينبغي ألا يغيب عن الاذهان أن العقد الذي يربطني به هو عقد البيعة. وأظن أن التفكير الديكارتي لا يستطيع إدراك ذلك. فالقانون الروماني ألغى الولاء للملك وعوّضه بأداء الضريبة. وقصارى الأمر أنه حتى لو وهب الله الذكاء الخارق للحسن الثاني فإنه بدون شعبه لا يمثل شيئا... ولا يستطيع أن يفعل شيئا.

سؤال: هل تستطيعون دائما تلمس آمال شعبكم وآلامه؟

جواب: إني أجس نبضه باستمرار. ولا أخطئ إلا نادرا.

سؤال: لماذا أدرجتم في دستور 1962 الفصل الخامس والثلاثين، المماثل للفصل السادس عشر من الدستور الفرنسي، الذي يقضي بإعلان حالة الاستثناء؟

جواب: لأن ذلك كان لازما. لا ينبغي أن نجد أنفسنا في حالة فراغ قانوني.وعندما اضطررت إلى تطبيقه سنة 1965. قلت آنذاك لمساعدي: «أحرم على نفسي القيام بهذا العمل مرة أخرى».

سؤال: لماذا؟

جواب: لأن الحكمة والعمل المتقن يقضيان بعدم تكرار نفس الحل. فإذا كنتم تحسنون التعامل مع الظروف فإنكم لن تلجأوا مرتين لحالة الاستثناء.

سؤال: ما القرارات الهامة الأولى التي اتخذتموها والتي لا يمكن اعتبارها امتدادا لسياسة والدكم؟

جواب: الأمر يتعلق بالسياسة الخارجية. لقد بدأت أنهج سلوكا مستقلا عن بعض مواقف جامعة الدول العربية وبلدان الشرق الأوسط. أما والدي الذي كان مهتما بالشؤون الخارجية فقد اقتصر طوال حياته على ما كان يسمعه ويقرأه في الصحافة، علما بأن الحماية كانت قد جعلت الدفاع والخارجية من اختصاص المقيم العام. وعندما كنت وليا للعهد، كنت أسافر كثيرا. وكان كلما رآني والدي أدور في حلقة مفرغة يقول لي: «أظن أن رحلة تقوم بها إلى أوروبا ستنفعك».

سؤال: لقد شاركتم سنة 1961 في القمة الأولى لدول عدم الانحياز التي عقدت في بلغراد.

جواب: كان ذلك أثناء العام الأول لاعتلائي العرش وكانت رحلتي الرسمية الأولى خارج المغرب. وقد طالبت في الخطاب الذي ألقيته ببلغراد أن يتم التفريق بين عدم الانحياز وعدم الالتزام فقلت: «إنني ملتزم نحو عدد من الشركاء، لكن إلى الحد الذي لا يمس سيادتي ولا ينقص من حريتي في الاختيار. وإذا أنا تجاوزت حرية اختياري وفرضت على نفسي مواقف البلدان التي أنا ملتزم معها فإنني أؤول إلى الانحياز.» وقد طبقت نفس هذا التحليل تجاه أصدقائي بمن فيهم بعض البلدان العربية التي حاولت، مثل مصر، الضغط علي.

سؤال: كان يسود بلغراد آنذاك جو من التوتر؟

جواب: أبدا، لقد كان حفلا في غاية البهجة. إذ كان المؤتمرون يدخلون صباحا قاعة الاجتماع مبتسمين ويبارحونها بعد الظهيرة ضاحكين. وقد استمر ذلك حتى خلال الجلسة الختامية التي امتدت إلى حدود الساعة

الثالثة صباحا . والتي طلب فيها مني إلقاء الكلمة الختامية .

سؤال : لكن الخلاف الحاد كان على أشده بين الشرق والغرب كما أن لهجة بعض الخطب كانت عنيفة .

جواب : كان الجميع يستعمل أفكارا جديدة وكان الأمر شبيها باكتشاف لعب جديدة . كان لنا شعور بأننا استغنينا عن كل من أمريكا وروسيا . وقد أتيح لي الاتصال بعبد الناصر . ونهرو الذي كان يكن لي كثيرا من الود . وكذلك تيتو الذي يجب أن اقول في حقه إنه كان دائم الوفاء للمغرب. كان الجو بهيجا حقا وكان الكل مسرورا بوجوده هناك وكنا نشبه إلى حد ما مناضلين تجمعوا في العيد السنوي لجريدة « لومانيتي » .

الفصل السادس

نحن والجار الشقيق

سؤال: يبدو، ياصاحب الجلالة ،أن سنة 1963 كانت سنة انتقالية، خلالها دخلتم منطقة مضطربة، فقد كانت هناك أولا الانتخابات التشريعية الأولى، ولعل نتائجها جاءت على غير ما كنتم تنتظرون. ودعمتم إنشاء جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية، وهو الحزب الموالي للملكية؛ وكنتم تتمنون حصوله على الأغلبية غير أن ذلك لم يتحقق.

جواب: أؤكد لكم أنني لو كنت حقا أنا الذي أسست الجبهة لكانت قد حصلت على الأغلبية. فأنا لست ساذجا إلى حد أنه يغيب عن ذهني أنه ليس بإمكان حزب ما أن يترسخ في ظرف سنتين أو ثلاث لدرجة يمكنه فيها الفوز في الانتخابات فهذه نظرة غير واقعية.

سؤال: هل كنتم متشككين بخصوص النتائج التي بإمكان الجبهة تحقيقها؟

جواب: في الحقيقة تركت الأمور تسير سيرها الطبيعي. وقلت في قرارة نفسي، إنهم سيفشلون: فكل حزب يتعين أن تكون له دعائم وهياكل. إما في شكل اتحادي كما هو الحال بالنسبة للحزب الاشتراكي بفرنسا وإما بشكل مرن على طريقة الحزب الراديكالي ،فكل حزب بحاجة الى وقت ليتجذر ويكسب ناخبين ويتوفر على صحافة.

سؤال: لماذا تأخذون في هذا الباب بالمنهج الاستقرائي؟

جواب: لأنه لا بد من قدر من الاستقراء. كل شيء يمكن أن يوجز في معادلة إلا الإنسان.

سؤال: ألم تكونوا تسعون إلى إنشاء حزب ذي أغلبية على نمط الاتحاد من أجل الجمهورية الجديدة في فرنسا؟

جواب: لا، أبدا، ففي ذلك الاقتراع لم يكن شخص الملك موضع جدل. لم أكن موضوع هذه الانتخابات، فلماذا إذن أفرض هذا التيار على حساب ذاك؟

سؤال: لكن ما أن جرت تلك الانتخابات حتى فقد السيد كديرة منصبه، وكان من مساعديكم الأقربين، وكان وزيرا، وكان له دور أساسي في نشأة الجبهة.

جواب: هو الذي طلب مني أن ينسحب من الحكومة، لكن لم يكن ذلك سنة 1963. عليكم أن تراجعوا تواريخكم. لقد ظل في الحكومة، وبعد أن تولى وزارتي الداخلية والفلاحة عين وزيراً للتربية الوطنية ووزيراً للشؤون الخارجية. ثم غادر الحكومة سنة 1965 او 1966 بسبب موقفه من مشروع قانون. لقد قال لي في مجلس وزاري: «صاحب الجلالة بكل الاحترام الذي أكنه لكم إنني لا أراني قادرا على الدفاع عن هذا القانون غدا في البرلمان.» فكان جوابي: «أعرفكم، أيها الصديق العزيز، منذ سنة 1945؛ وإنني لم أرض يوما أن يكون لي مساعدون غير مرتاحي الضمير. أعفيكم إذا كان هذا رجاءكم.»

سؤال: في نفس السنة حدث توتر شديد بين المغرب والجزائر.

جواب: تقع مسؤولية ذلك كلية على عاتق ابن بلة. لأنه أصر على أنه محق والحالة أنه مخطئ بتأكيده أن مركز حاسي بيضاء، الواقع على الحدود وموضوع النزاع، من تراب الجزائر وليس من تراب المغرب.

سؤال: هل التقيتم بالرئيس الجزائري؟

جواب: لا تقع الحرب إلا بعد حصول الاجتماع.

سؤال: أصحيح أنه عندما كان يلوح في الأفق انتهاء حرب الجزائر اقترحت السلطات الفرنسية على والدكم التفاوض معه بشكل منفرد حول الحدود الشرقية والجنوبية للمغرب؟

جواب: لقد جاءنا السيد بارودي موفدا من قبل الجنرال دوغول وصرح قائلا: «نحن على وشك تسوية سلمية مع الجزائر. ونعتقد أنه من المناسب ان يتباحث المغرب وفرنسا من الآن في مشكل حدودهما.» فكان جواب والدي: «إنه غير وارد أن أتفاوض في هذه الظروف. فذلك سيكون مني طعناً من الخلف للجزائر المكافحة. إننا سنسوي قضايانا فيما بعد.» وهكذا، بدأت العلاقات الجزائرية ـ المغربية بالنسبة لأحد الطرفين بالاقتناع بأنه سلب منه شيء. وبالنسبة للطرف الاخر بالإصرار على ألا يتنازل عن شيء، وأن يتشبث بالفصل المعروف من ميثاق أديس أبابا. القاضي بالإبقاء على الحدود كما تركها الاستعمار.

لقد كانت السلطات الفرنسية تعتقد منذ وقت مبكر أن الجزائر ستظل فرنسية. في الوقت الذي بدأ فيه المغرب يتحرك. ثم كان هناك استغلال غاز الصحراء، ونفطها. فبالنسبة لباريس كانت الفرصة ما تزال سانحة لتلحق بالجزائر ـ وهي الإقليم الذي ظنت فرنسا أنه سيبقى لمدة طويلة خاضعا لها ـ أقصى ما يمكن أن ينتزع من المغرب.

وكانت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بقيادة فرحات عباس اعترفت أنه لا يمكن تحقيق الوفاق مع المغرب على حساب مشكلات الحدود ومطالب بلدي. لقد كان المغرب إذن غداة إعلان استقلال الجزائر محقا في تقديم بعض المطالب. بينما لم تكن الجزائر مرتاحة لأنها مصممة سلفا أن لا تعيد أي شيء، للمغرب. وبسبب ذلك وقعت أحداث الحدود مع ابن بلة.

سؤال: لماذا كان التوتر دائما يطبع علاقاتكم بالجزائر؟

جواب: لم تكن هذه العلاقات مطبوعة على الدوام بالتوتر. من الأكيد أنه كانت للجزائريين مبررات جعلتهم يلتزمون الحذر في تعاملهم مع المغرب. كما أن المغرب كان محقا في اعتبار الجزائريين مجرد ورثة للاستعمار فيما يخص الحدود على الأقل. وأذكر أننا ذهبنا للمنفى في العشرين من اغسطس (آب) 1953 يوم عيد الاضحى. وقبل ذلك بشهرين جاء باشا تيندوف لتقديم البيعة وكان ذلك في أواخر شهر رمضان. ومعلوم أنه إلى حدود 1953 لم يكن يروج في تيندوف إلا الطابع البريدي المغربي، وهذا بصرف النظر عن الأراضي الأخرى.

سؤال: لكن خلال حرب الجزائر كان جزء من قوات جيش التحرير الوطني الجزائري مرابطا على أرض المغرب، في وجدة بالتحديد. فهل كان هذا التعايش بدون مشاكل؟

جواب: كان سلوك المجاهدين على مايرام. فلم يكونوا يتعاملون إلا مع سلطة واحدة، وهي والدي في البداية ثم أنا فيما بعد. وقد أبانوا عن ذكاء لم يظهر مثله الفلسطينيون للأسف. فهؤلاء أخطأوا بتبنيهم خصومات الآخرين عوض التفرغ لقضيتهم بالأساس. فقد كان عليهم أن يقولوا: «لا تطالبونا باتخاذ موقف من أي نزاع قائم بين العرب.» أما الجزائريون فقد كانوا بالخصوص حكماء إبان الحرب. لكن الأمور تغيرت فيما بعد.

سؤال: أتتذكرون أول لقاء بينكم وبين ابن بلة؟

جواب: لقد جرى أول لقاء بيننا هنا في الرباط عشية سفره إلى تونس، وهو السفر الذي اختُطف خلاله، وبعد

ذلك استقبلته رسميا بعد الإفراج عنه وكان مصحوبا ببوضياف وآيت أحمد وكريم بلقاسم ورابح بيطاط.

والحق يقال إن الاستقبال الذي خصص لهم في الرباط أضفى عليهم اعترافا رسميا. علما بأن ابن خدة الذي كان يتولى رئاسة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كان حاضرا معنا. وفي ذلك الوقت اندلعت الحرب بين الجيش المرابط داخل البلاد وجيش الحدود. خصوصا في وجدة. اي على الحدود الجزائرية المغربية. وقد ناصرت شخصيا هؤلاء الرجال الخمسة الذين كان يتزعمهم ابن بلة. وأنا أعترف بذلك.

سؤال: لأي سبب؟

جواب: كنت أعتقد أنه لولا اختطافهم وسجنهم لكانوا على الأقل أثروا في سير الاحداث. فلذا كان بالنسبة لي طبيعيا أن يستعيدوا نفوذهم بعد أن ضاع منهم ردحا من الزمن. فذلك حقهم المشروع. وعلى كل حال. لا ينبغي أن ننسى أن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بوصفها مستشارة لجبهة التحرير الوطني كانت هي الأخرى تنوه بالقادة التاريخيين للثورة.

ولو أنني تصرفت في هذه القضية بناء على حسابات ضيقة. لتركتُ الأمور تجري مجراها ولما اتخذت أي موقف. لكنني أعترف بكل جدية أنني ساعدت جبهة التحرير الوطني منذ عهد ابن بلة وحتى الأعوام الأخيرة لولاية الرئيس الشاذلي بنجديد.. وهناك أسرار لا يمكنني أن أبوح بها. لكن إذا ظهر أدنى شك بعد صدور هذا الكتاب: بخصوص ما صرحت لكم به فحينذاك سأكون مضطرا لأقول أشياء أخرى كثيرة تكشف لماذا وكيف ومع من قمت بمناصرة الجبهة. أما الآن فيحسن بنا التوقف عند هذا الحد.

سؤال: انذهب إذن إلى أبعد من هذا الحد؟

جواب: أفضل ألا أخوض في ذلك الآن.

سؤال: متى اجتمعتم بابن بلة بعد توليه الحكم؟

جواب: كنت أول رئيس دولة يقوم بزيارة رسمية للجزائر. وكان ابن بلة أنذاك قد أوفد لي وزير خارجيته سيئ الحظ السيد الخميستي .فقد قتل بعد ذلك بأسابيع. وكان سلمني دعوة من الرئيس قبلتها على الفور وأعطيت أوامري لإصدار بلاغ في الموضوع. وينبغي القول إنه لم يسبق لزيارة أن أثارت انشغال المغاربة مثل هذه الزيارة. سواء كانوا في الحكومة أو في المعارضة. أو مفكرين وكتابا أو عامة الناس. كان يقال لي: «لماذا أنتم ذاهبون إلى هناك؟ فليس هناك استقرار ولا نظام ولا أمن». غير أنني استقبلت استقبالا رائعا و يمكن مشاهدة ذلك في الشرائط المصورة التي أنجزت بتلك المناسبة. وقد مكنتني تلك الزيارة من أن أدرك أن الشعب الجزائري لم يفقد ذاكرته. وهو ما تأكدت منه مرة أخرى قبل بضعة أشهر أثناء توجهي الى وهران على متن السيارة.

سؤال: هل تباحثتم مع ابن بلة حول مشكل الحدود؟

جواب: نعم. وقد قال لي ابن بلة: «هناك فعلا مشكل خصوصا فيما يرجع لتيندوف.إن هذا المشكل يشبه هوة سحيقة يستحيل تجاوُزها. ولكن سنواصل الحديث في الموضوع. فأجبته «طيب ليكن ذلك».

سؤال: ألم تحاولوا الذهاب الى أبعد من ذلك؟

جواب: لا. لقد كنت أرى أنه كان في وضع سياسي غير مستقر.لقد كانت الجزائر مازالت تغلي. وينبغي ألا

تنسى أن جميع المناطق العسكرية في داخل البلد لم تكن قد أعلنت ولاءها للحكم المركزي. ثم إنني نزلت ضيفا عليه في الجزائر العاصمة وليس من عادتي إحراج مضيفي. قلت في قرارة نفسي: «طيب، سنرى.»

أمام مشكلات بهذا الحجم لا ينبغي استعجال رد المخاطب. بل من الأفضل فسح المجال أمامه لكي ينضج قراره. ثم إن أحداث خريف 1963 التي ذهب ضحيتها الكثيرون حالت دون إجراء مناقشة صريحة ونزيهة. لقد أوقفت المعارك. لأن الحكمة كانت تقتضي ذلك. فلم يكن ثمة مبرر معقول لمواصلة تلك الحرب غير المعقولة.

سؤال: لقد اقترح عليكم مساعدكم الجنرال أوفقير، في وقت من الاوقات القيام بهجوم كان من شأنه أن يتيح توغل القوات المغربية في الصحراء.

جواب: إن صاحب الاقتراح لم يكن هو أوفقير وإنما كان الجنرال الكتاني رحمه الله. لقد كان ضابطا رائعا. ولقد كان جنرالا في الجيش الفرنسي. ولما عرض عليَّ اقتراحه قلت له: «صديقي العزيز. إن ذلك الهجوم لن يجدي نفعا. فأنا أنطلق من مبدأ: إن الانسان عندما يحارب أحدا فإنما يفعل ذلك ليعيش معه في سلام على امتداد جيل على الأقل. فإن لم نكن متأكدين من أن السلم سيتحقق طيلة ثلاثين عاما بعد الانتصار على الخصم، فإنه من الأفضل تجنب القيام بعملية عسكرية، وإلا كنا قد شوهنا الحاضر وعرّضنا المستقبل للخطر، وتسببنا في مقتل أناس، وصرفنا الأموال لنعيد الكرة بعد أربع أو خمس سنوات».

سؤال: هل استخلصتم عبرة ما من هذه المواجهات؟

جواب: أعترف بكل صراحة أنني لم أستخلص منها أية عبرة. ولقد اعتبرت كل ذلك مجرد حادث عارض.

سؤال: لماذا؟

جواب: لانني أصبحت إذ ذاك أعرفُ ابن بلة معرفة جيدة. كان دائم الغضب وسليط اللسان. ومع أني لم أقل كلمة سوء في حقه، إلا أنه تهجم على أسرتي بدءا بمولاي اسماعيل وانتهاء بوالدي في خطابه الشهير الذي ألقاه في منتدى الجزائر العاصمة عشية النداء الذي وجهه للسكان من أجل التعبئة العامة.

سؤال: بل وقد ذهب إلى حد اتهامكم بأنكم سهلتم عملية الاختطاف التي تعرض لها من قبل الفرنسيين.

جواب: نعم. قلت في نفسي إن انسانا كهذا لا يمكن أن يجسد الجزائر. فلو كان متزنا في موقفه لكنت أوليت اهتماما كبيرا لموقفه، ولكن أمام تهجمه هذا أيقنت أنه هو الذي قد يخلق لنا مشكلات وليس بلده أو حزبه. ولقد اعتبرت أن الأمر يتعلق فقط بمرحلة عابرة، وبالتالي لم أستخلص أية عبرة من ذلك. ومازلتُ تحضرني صورة والدة ابن بلة حينما كانت هنا في القصر مع والدي وأمي ومعي بعد مدة وجيزة من اختطاف ابنها. لقد كانت تذرف الدموع. وكانت أمي وأبي كذلك يواسيانها. وقدما لها بعض الهدايا وقال لها والدي: «إنك في حمايتي وأنا أعتبرك كواحدة من أفراد أسرتي». ومع هذا زعم ابن بلة أن محمد الخامس خانه، إلى غير ذلك من التهم الرخيصة.».

سؤال: هل التقيتم ابن بلة مرة أخرى بعد هذه المواجهات؟

جواب: أبدا. فقد كان اللقاء به غير وارد اطلاقا. ولو كنت التقيت به في اليوم الموالي لما صافحته. وبعد سنة 1963 أدار كل واحد منا ظهره للآخر. فالجزائر في واد، والمغرب في واد.

سؤال: لكن كان من الصعب على البلدين ألا يلتقيا وذلك بحكم الجوار؟

جواب: فعلا. ولكن كل واحد منا كان يتجاهل الآخر. حتى أن عبد الناصر حاول إصلاح ذات البين بيننا أثناء مؤتمر القمة العربي الذي انعقد في بداية عام 1965 بالقاهرة. وتم اللقاء في الجناح الذي يقيم به ابن بلة بفندق هيلتون. كنت برفقة عبد الناصر وأنور السادات وزكريا محيي الدين وزير الداخلية. ووصل ابن بلة ووراءه بومدين. وعند الباب التفت إلى بومدين وقال له بلهجة الأمر: «لا تدخل فهذا بيتي». وحرك عبد الناصر رأسه وكأنه يقول: «فعلا. لا معنى لوجوده هنا». وأظن أن مصير ابن بلة تقرر في ذلك اليوم. إذ عندما سمع بومدين كلام ابن بلة اصفر وجهه. وأدركت أنه لن ينسى أبدا هذه الإهانة.

سؤال: كيف وقعت محاولة إصلاح ذات البين؟

جواب: لم أتبادل مع ابن بلة ولو كلمة واحدة. لقد تكلم طيلة ساعة ثم تحادث مع عبد الناصر. وعندما كنت أرغب في قول شيء كنت أدير ظهري لابن بلة وأتحدث إلى عبد الناصر. هذا كل ما في الأمر.

وفي الأخير قلت للرئيس المصري: «لقد سمعتم كلام هذا الرجل و...» فقاطعني عبد الناصر. وهنا ينبغي أن أوضح لكم أن العلاقات بين المغرب ومصر كانت أيضا مقطوعة؛ وقال لي عبد الناصر: صدق المثل العربي القائل: «عدو عاقل خير من صديق جاهل». ثم وقفنا. وكل ما حصل عليه عبد الناصر مني هو مصافحتي لابن بلة. وهو ما لم أفعله ساعة دخولي.

سؤال: كيف بلغكم نبأ الانقلاب الذي أطاح به سنة 1965؟

جواب: عن طريق الإذاعة. كنت لا أزال أقطن بالجناح القديم في القصر الذي كان يوجد به مكتبي عندما كنت وليا للعهد. وفيه أيضا كان والدي يترأس مجلس الوزراء. وكان منعقدا عندما أخبرني قسم الاستماع بما حدث في الجزائر. والتقطت الإذاعة حيث استمعت الى تفاصيل الانقلاب وتولّي الهواري بومدين الحكم.

سؤال: ماذا كان رد فعلكم؟

جواب: بكل صراحة سرني تولي شخص آخر رئاسة الجزائر تمكنني محاورته ومصافحته.

سؤال: هل كنتم تعرفون بومدين من قبل؟ فقد كان يمثل جيش التحرير في وجدة.

جواب: لا. لم أكن أعرف بومدين ولا بوتفليقة وزير خارجيته الذي كان هو الآخر في وجدة. حتى أن بومدين قال لي يوما: «أظن أنني أعرف الدارالبيضاء والطريق المؤدي منها إلى وجدة أحسن منكم» فقلت: «لا شك في ذلك». لا. لم ألتق به قط قبل توليه الرئاسة.

سؤال: ألم يخامركم الشعور بأن تولي بومدين الحكم كان يعني في الواقع تولي الجيش الجزائري لمقاليد السلطة وأن ذلك من شأنه أن يشكل خطرا كبيرا عليكم؟

جواب: لا. لم أضيع أبدا وقتي في محاولة تحليل ما قد يحدث في هذه الدولة أو تلك. أو فيما إذا استولى هذا الشخص أو ذاك على الحكم. وذلك لسبب بسيط هو أن الاستيلاء على الحكم - وبالطبع لا أعني بالطريقة الديمقراطية ولكن عبر العنف السياسي - لا يتم أبدا في جو من حرية الاختيار وراحة البال. ذلك أن الرجل الذي ينتزع الحكم قلما يكون حرا. والاختيارات المطروحة أمامه تكون دوما قسرية. وعلى العموم فغالبا ما يكون

الاستيلاء على الحكم عملا موجها ضد شخص ما أو رد فعل إزاء ظروف طارئة. ولذا يتعين ألا نضع شخصا في رقعة الشطرنج مع اعتقادنا أنه سيلعب دور القلعة او الملكة أو الفارس. وفي تقديري أن ذلك هو بمثابة استباق للتاريخ. فأنا دائما أنتظر شهرين أو ثلاثة لأرى ما ستصير إليه الأمور.

سؤال: متى التقيتم ببومدين بعد وصوله للحكم؟

جواب: لا أذكر تاريخ اللقاء بالضبط، لكنني وجدته رجلا صعب المراس نوعا ما، ويعسر فهمه. أقول هذا بعد مرور كل هذا الوقت. لقد كان متحفظا جدا، حذرا منطويا على نفسه قليل الانشراح. ومع مرور الأعوام قامت بيننا مودة وصداقة، وتبادلنا النكت و« اللعب بالكلمات ». كان شخصا تثير نوعية مزاجه الاهتمام ويفرض دوما على مخاطبه جهدا لفك ألغاز كلامه. وهذا أمر متعب مع مرور الوقت.

وإلى أن قام مشكل الصحراء، لم أكن أعتقد أنني أتعامل مع رجل مزدوج الشخصية. واستمر ذلك إلى أن رأيت بومدين آخر يخرج من قمقمه.لقد بدا في صورة مغايرة، إن بومدين كان يسعى إلى فرض هيمنته على المنطقة.

سؤال: كيف كانت نظرته الى العلاقات الجزائرية المغربية؟

جواب: كانت نظرة واقعية تماما. كان يقول لي باستمرار: « أريد مغربا مستقرا مزدهرا » إلا أنه كان يتجاهل أن يزيد على ذ لك قوله: « شريطة ألا يزاحم الجزائر ».

لم أكن أسعى الى مزاحمة الجزائر. ولكنني لم أكن أقبل أن تزاحمني. إنني أريد أن يقوم بيننا تعاون خصوصا جنوب المغرب والجزائر.

سؤال: كيف كان شعوركم عند وفاته؟

جواب: قلت لبعض المقربين عقب موته: « كنا نتعارف كثيرا وتبارزنا وتسابقنا للتفوق على رقعة الشطرنج. حتى إننا مع وجود الفارق كدنا نشبه الثنائي الذي شكله في الماضي شارل كنت وفرانسوا الأول. » ثم قلت: « سبحان الله. إن الأول الذي توفي خلق فراغا لدى الآخر ».

إنني أحسست بفراغ بعد موت بومدين لأن كلينا اعتاد أن ينظر إلى الآخر ويقول مجاملا: « مرحى: لقد سجلت هدفا علي ». ومع ذلك كادت الأمور تتطور إلى ما لا تحمد عقباه. وقد أسر للبعض: « لو كنت أعرف أن المغرب كان سيصمد هذه السنين الثلاثة في الصحراء، ما كنت لأغامر في هذه القضية » ولو قدر له أن عاش إلى اليوم لرأى أن المغرب صمد لمدة ست عشرة سنة.

الفصل السابع

الملكية والسلطان والديمقراطية

سؤال: لماذا طلبتم الموافقة المسبقة من العلماء، عند اعتلائكم العرش سنة 1961؟

جواب: بالنسبة لنا، لا يتم طلب موافقة العلماء. فعند وفاة الملك يقوم العلماء، وبعدهم الشرفاء، (المنحدرون من النبي) وأفراد العائلة والشخصيات بالتوقيع على وثيقة البيعة معترفين بذلك بوفاة الملك وباعتلاء خلفه العرش. والبيعة مصدرها الشريعة الإسلامية. وفي هذا الصدد يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». فالأمر هنا يتعلق بقاعدة أساسية، إذ لا يمكن للمسلم أن يكون بلا وطن. ومهما كان البلد الذي يعيش فيه فينبغي أن يكون له عقد معنوي مع من يحكمه.

وهناك فرق كبير بين القانون الفرنسي والشريعة الاسلامية ولا أقول القانون المغربي. ففي فرنسا كان يصبح الملك ملكا بمقتضى الحق الإلهي بمجرد تنصيبه. أما عندنا، نحن المسلمين، فإن أمير المؤمنين يستمد مأموريته من الله. و ليس هناك حق إلهي. والملك يحظى باحترام الجميع. وجاء في حديث نبوي «إذا مررت بأرض ليس فيها سلطان فلا تدخلها، انما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض»؛ أي أن أمير المؤمنين هو الظل الذي يحتمي به كل ضحايا الظلم، وهو الرمح الذي يدافع عن الحق ويحارب الظلال. إن هذا التكليف الإلهي يفرض أن يكون أمير المؤمنين مسلما سنيا، وأن يسهر على تطبيق الشريعة الإسلامية وتسيير الشؤون الدنيوية.

سؤال: لكن ماهي طبيعة البيعة التي يرتكز عليها نظام الملكية؟

جواب: إن البيعة رباط خاص قائم بيني وبين كل مغربي. ومن واجبي بمقتضاها أن أعتبر كل مغربي واحداً من عائلتي سواء كان غنياً أو فقيراً، وكل مغربي يعتبر نفسه أحد أبنائي. فمن باب الواجب الديني للملك المغرب، الذي هو أمير المؤمنين أن يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من كل أسرة. إن ذلك يشكل أحسن ضمانة ضد التشكك والإنهاك المتولدين عن طول ممارسة السلطة في اطار نصوص قانونية دستورية محددة. كما يمثل الشعور بالمسؤولية عن مصير كل أسرة، أحسن ضمانة ضد كل طغيان واستبداد.

ومع ذلك فقد كانت هناك حالات تم فيها إلغاء البيعة.

سؤال: من طرف من؟

جواب: من طرف المواطنين الذين اعتبروا أن الملك لم يدافع كما يجب عن العقيدة أو عن حقوق رعاياه، أو أنه تخلى عن أجزاء من التراب الوطني.

وباستثناء هذه الحالات الثلاث، كانت البيعة دوما بمثابة تلك الأصرة التي تربط بين الملك من جهة وبين رعاياه من جهة أخرى. وعلى سبيل المثال، نتساءل عن سبب فقدان الملوك السعديين لعرشهم بعد أن كانوا ملوكا عظاما إلى حد أن أحدهم وهو المنصور الذهبي ورد ذكره في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية».

فهذا السلطان كان يشتري من مدينة البندقية كل الرخام الذي بني به قصر البديع بمراكش. وكان يقايض الرخام بالسكّرالذي كان المغرب يُعدُّ آنذاك من أهم البلدان المصدرة له... لقد تم اكتشاف الشمندر السكري في عهد نابليون، على بعد ثمانين كيلومترا من مراكش.

وقد كانت تنحية الملوك السعديين من لدن طائفة من العلماء، والأعيان الذين توجهوا الى تافيلالت باحثين عن جدي وقالوا له: «إن الملوك السعديين تخلوا عن الدفاع عن التراب الوطني وإن الأجانب استقروا على طول

الساحل الأطلسي . والآن عليكم أن تهبوا للدفاع عن حوزة البلاد » .

سؤال : لكن برجوعنا إلى كتابات المفكرين المسلمين القدامى نجد أن ابن خلدون تطرق الى البيعة في صفحة أو صفحتين . واعتبرها طقوسا أكثر منها مبدأ شرعيا .

جواب : في البداية أقول إن ابن خلدون . وإن كان مؤسس علم الاجتماع فإنه عاش حياة مضطربة . وكان سياسيا غير ناجح . وكان يدخل السجن في كل عاصمة يحل بها . فلا يمكن للمرء أن يكون في نفس الوقت عالم اجتماع وفقيها ملما بالشريعة الإسلامية ومثيرا للفتن .

إن البيعة شيء لا يمكن التلاعب به . وأنا مرتبط بالتزاماتي تجاه رعاياي . كما أن هؤلاء مرتبطون بالتزاماتهم تجاهي . فإني في نفس الوقت خديمهم وملكهم . وهو أمر يصعب فهمه في الغرب .

سؤال : هل يتعلق الأمر بإطار جامد أو على العكس بإطار يسمح ببعض المرونة والاجتهاد ؟

جواب : لا بد من إثارة الانتباه إلى أن القرآن والأحاديث النبوية لم يتطرقا الى جميع القضايا بتفصيل . ومن هنا على أمير المؤمنين والعلماء والفقهاء إيجاد التأويل المناسب للاكتشافات والتطورات الطارئة على المجتمع . مع الحرص على ألا تتعارض هذه التأويلات مع أصول الشريعة الإسلامية . ولنا مراجع ونصوص نعود إليها في هذا الصدد . لأن القرآن لا يمنع تأويل وضعية معينة وبحث ملاءمتها مع متطلبات الحياة العصرية . فالأمر يتعلق باجتهاد حقيقي .

سؤال : ولكن كيف سيكون رد فعلكم تجاه بروز مظاهر الحياة العصرية و بعض انعكاساتها ؟

الجواب : سنرد بالصمت طالما أنها لا تشكل خطرا . وعلى العكس . إذا كانت العصرنة تتنافى مع ديننا أو من شأنها أن تقوض هويتنا ومجتمعنا . فسأكون مضطرا في البداية إلى التنبيه ثم إلى الإنذار . وأخيرا إلى المنع عند الاقتضاء .

سؤال : لقد طرحت عليكم هذا السؤال . لانه في سنة 1960 تم حظر الحزب الشيوعي واستند حكم محكمة الاستئناف إلى خطاب ألقاه والدكم وشجب فيه كل ايديولوجية مادية .

جواب : لقد كان حكما صائبا كل الصواب . فالقضاة لم يحكموا على الجوهر . بل تم التطرق إلى القضية من منظور ديني . ذلك أنه مادام الحزب الشيوعي ذا نزعة إلحادية . فليس له حق الوجود في بلد دينه الإسلام . وعلى أية حال . فإن الشيوعيين قاموا بتغيير اسم حزبهم . وتم الترخيص له مجددا .

سؤال : ولكن لم يكن بامكانهم مع ذلك تغيير ...

جواب : لقد سويت هذا المشكل وأنا في الطريق الرابط بين يفرن وفاس . لقد كنت أقود سيارتي . وكانت من نوع « دي.إس » وبجانبي الدكتور مسواك طبيبي الخاص في أمراض الأذن والأنف والحنجرة . والذي كان أيضا مساعدا للسيد علي يعته الأمين العام للحزب الشيوعي . وقد توصلنا معا من خلال المناقشة إلى الاسم الجديد لحزبه الذي اصبح يسمى : « حزب التقدم والاشتراكية » . وينبغي أن لا يغيب عن بالنا أنه لم يسبق بتاتا لأولئك الذين كانوا ينتمون إلى الحزب الشيوعي أن فاهوا بكلمة تعطي الانطباع بأنهم علمانيون أو من مؤيدي العلمانية . فتعاطفهم مع الشيوعية كان تعاطفا منهجيا أكثر منه إيديولوجيا . إنهم كانوا يعتبرون المذهب

الماركسي بمثابة قفزة على طريق التقدم، ونوعا من تقرير المصير الثقافي والذاتي. إلا أنهم كانوا يذهبون إلى الحج عندما تتاح لهم الفرصة لذلك، وكانوا في حفل الختان - مثلا - يوجهون الدعوة إلى حفظة القرآن. كما أن أي زواج كانوا يحتفلون به كان يتم وفقا للشريعة الإسلامية.

سؤال: هل تستند عقيدتكم الزمنية والسياسية التي تحدد نظامكم إلى نظام الخلافة؟

جواب: أجل.

سؤال: بالفعل. إن هذه الفلسفة تبدو نسبيا مبهمة فيما يتعلق بالسلطة التشريعية على اعتبار أن القرآن والسنة هما مصدراها. ألا يحدث ذلك فراغا سياسيا مقلقا بالنسبة لتسيير دولة عصرية؟

جواب: لهذا السبب تم التفكير منذ عهد المولى عبد العزيز وإبان الحماية في إعداد دستور. لقد كانت هناك عدة مشاريع ما بين 1908 و1912، ولم يكن ذلك متناقضا مع القرآن الذي يأمر بالشورى، أي الاستشارة مع الآخرين.

سؤال: ولكن كيف يمكن التوفيق بين مبادئ ملكية مطلقة وبين متطلبات الديمقراطية؟

جواب: إن فضاء الحرية المعيشة التي بإمكان كل واحد أن يقف عليها في المغرب، يعد في نظري الجواب الأكثر واقعية عن سؤالكم. حقيقة أن لنا نهجنا الخاص ولنا قيمنا الخاصة. وكما لا يخفى عليكم، فقد صادق المغاربة مؤخرا على دستور يحدد بدقة دور ومهام كل واحد. فالوزير الأول أصبح بحكم الدستور الجديد يعين من طرفي انطلاقا من الأغلبية البرلمانية المنبثقة عن الانتخابات. وبرنامج حكومته يعرض على البرلمان للمصادقة عليه. وهكذا فنحن بصدد استكمال وتدعيم ما قد تسمونه بنظام الملكية القائمة على المؤسسات، ويجب ألا ننسى بعض الأنظمة المطلقة التي توجد بها مجالس نيابية. فإذا أخذنا مجلس السوفيات الأعلى (أو البرلمان الروسي) فسنجد أنه يضم آلاف البرلمانيين، ومع ذلك فهناك حكم مطلق. لذلك لا ينبغي أن تطبق علينا نفس المعايير، لأننا ننتمي لحضارة أخرى، فأنتم تنتمون للحضارات الرومانية والجرمانية والفرنسية ولحضارة بلاد الغال، اما نحن فعرب وبرابرة امتزجنا مع القادمين من اليمن أو من تشاد. فينبغي قبول الاختلاف بيننا (.......) لذلك لا تطلبوا منا أن نفقد هويتنا ونتخلى عن مقومات شخصيتنا إرضاء لذوقكم.

سؤال: إن النبي يقول «إذا مررتم بأرض ليس فيها سلطانٌ فلا تدخلوها».

جواب: إن عدد الأحاديث النبوية التي تم تدوينها وخاصة منها الصحيحة يتروح ما بين عشرين ألفاً وخمسة وعشرين ألف حديث. وقد دون الإيرانيون قرابة مائة ألف حديث، وإليهم ينتمي أول وأكبر عالم نحوي في اللغة العربية. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع باهتمام شؤون الفرس حيث قال عن هذا الشعب: «لو كان العلم بالثريا لأدركه قومٌ من فارس».

سؤال: أين وكيف تتجلى الديمقراطية في نظام الحكم الذي تنهجون؟

جواب: ينبغي التمييز بين ما هو غير منصوص عليه وماهو حرام في الشريعة الإسلامية. فالمحرمات في الإسلام ليست كثيرة جدا، ولهذا فالإسلام في غاية المرونة والبساطة. وترتبط هذه المحرمات أساسا بمعايير حسن الأخلاق. فعلى سبيل المثال، إن المسلم الذي يتناول وجبة الغداء في مطعم خلال شهر رمضان يمس بالنظام العام.

وفي بعض البلدان وصل الأمر إلى حد الاستفزاز، كما كان الشأن في تونس حيث قام الرئيس السابق بورقيبة، رغم أنه لم يكن فوضويا - بالدعوة إلى عدم صيام رمضان، وتلك مغالاة منه في التشبث بالعلمانية، وهي مغالاة لا أجد لها مبررا. والغريب في الأمر، أنه كان يقوم بدعوة الناس خلال شهر رمضان إلى تناول الغداء، بل أكثر من ذلك فقد كان يرغم جنوده على شرب عصير الليمون في منتصف النهار. إن هذا مس بالنظام العام وبالأخلاق.

سؤال: لكن ما يؤاخذ عليكم يتعلق أساساً بالديمقراطية في المغرب، حيث تمنحونها ويمكنكم استردادها متى ارتأيتم ذلك.

جواب: على كل يستحسن أن تمنح الديمقراطية على أن تنزع.

إن الديمقراطية في المغرب ممنوحة، لأنني أستبق المطالبة بها. وستلاحظون في الدستور الجديد أنني أتنازل عن بعض اختصاصاتي لكي تتحدد المسؤوليات بشكل أفضل. فالملكية غدت مثل تلك المظلة التي يحتمي بظلالها الكثيرون، بينما أتلقى أنا ضربات الشمس. لذا فإني أريد أن أعكس الآية شيئا ما. ومن جهة أخرى، أعتقد أن المغرب خطا خطوة هامة إلى الأمام.

سؤال: لقد وجهتم، بعد الأحداث التي شهدتها الدار البيضاء، سنة 1965، خطابا إلى شعبكم قلتم فيه: «وإنك أيها الشعب المغربي تعرفني من قديم وتعرفني في الجد والإخلاص لا الكذب ولا النفاق، ولو لم أرد لك النظام الديمقراطي ما كنت لأمنحك إياه. إن أي أحد لم يرغمني على ذلك وإنما كان التقاء، من الجانبين، كانت النية الصالحة ظاهرة منك أيها الشعب ومني كذلك ولله الحمد».

جواب: بالفعل. ولهذا السبب أقول لكم إن كلمة «منح» تعني «أهدى». وبذلك فليس فيها أي تحقير لشعبي. أفلا يعتبر قيامي بمنح شعبي مزيدا من الديمقراطية عملا نبيلا؟ وما المانع في أن أستبق تطلعاته؟

سؤال: ولكنكم ما زلتم سيد الميدان؟

جواب: لا، إنني سيد ميدان واحد، وهو أني محبوب من شعبي. ولو كان ذلك على حساب بعض الأحزاب السياسية، فلا دخل لي في ذلك. وسأقول لكم شيئا هو أني لو رشحت نفسي خلال مؤتمر وطني لحزب من الأحزاب، ولا أقول خلال اجتماع لجنته التنفيذية، بل أقول مؤتمره الشعبي، لو رشحت نفسي لمنصب الكاتب العام أو الرئيس لتم انتخابي بالإجماع.

فنظامنا يأخذ التعددية الحزبية، وليس نظام الحزب الوحيد. والدستور يؤكد أن الأحزاب هي بمثابة الإطار لتكوين وتوعية المواطنين، الا أنها لم تشكل يوما ما بالنسبة لي كما لم تشكل بالنسبة للجنرال دوغول ولجيسكار أو ميتران القناة الضرورية لمخاطبة الشعب. ولو كان الأمر غير ذلك، لما خاطب رؤساء فرنسا مواطنيهم بقولهم: «أيها الفرنسيون أيتها الفرنسيات» ولما سُمع النشيد الوطني الفرنسي، في ختام كل خطاب.

سؤال: على من تعود اللائمة في نفاد صبر الشعب وانفجاره؟

جواب: إن نفاد الصبر الذي يتخذ شكل انفجار، لا يكون مصدره ثقافيا أو علميا. فغالبا ما يتعلق الأمر بحرمان مادي يمهد المجال للانفجار تحت أية ذريعة.

سؤال: هل كنتم تعلمون ذلك دائما؟

جواب : نعم .

سؤال : هل فاجأتكم المظاهرات العفوية التي شهدتها الدار البيضاء، سنة 1965 ، والتي تحولت إلى أعمال عنف وشغب؟

جواب : أجل، لأن الأمر لم يكن يتعلق بأحداث يمكن التنبؤ بها من خلال مجرى الأمور . فقد انفجرت المظاهرات فجأة، دون أن يكون هناك ما ينبئ بذلك. وحتى لو تم الإحساس بأن شيئا ما سيحدث إلا أنه لم يكن متوقعا على هذا الشكل. فالأمر كان شبيها شيئا ما بالأحداث التي عرفتها فرنسا في مايو (أيار) 1968 ، حيث أنكم كنتم تترقبون وقوع أحداث، ولكن الشكل الذي اتخذته تجاوز في نظر كل المسؤولين ما كان يمكن أن يكون. والحمد لله فلم تستمر أحداث الدار البيضاء سوى يومين أو ثلاثة.

سؤال : ولكن إعادة الامن تسببت في سقوط ضحايا .

جواب : أتذكر أن أحد اطبائنا تطوع خلال الحرب الإسرائيلية العربية الأولى في سنة 1948 . ولدى وجوده في الجبهة، لاحظ مرة أن ضابط صف كان يسرع نحو رئيسه وهو يصيح : « انهم يرموننا بالرصاص والقذائف» فأجابه « وهل تريد أن يرموك بفطائر العجين؟ » .ونفس الشيء ينطبق على استتباب الأمن . وبالطبع، يستحسن الحفاظ على الأمن، لكن عندما تعم الفوضى ينبغي حتما تطبيق القانون بصرامة.

سؤال : ألا تعتقدون أن هذه الأحداث كانت تعكس استياء اجتماعيا عميقا؟

جواب : كلا .

سؤال : ولكن ذلك كان باديا من خلال الشعارات التي رددها المتظاهرون .

جواب : أبدا ، لا بكل صراحة ... أبدا ...

سؤال : ألم تشعروا بأن ذلك كان إحساسا كبيرا بالإحباط لدى فئة من الشباب؟

جواب : أبدا .

سؤال : وبماذا كان يتعلق الأمر إذن؟

جواب : لقد كان الأمر يتعلق بالانتقال من سن إلى أخرى. إلا أن الشيء الذي لم أفهمه بتاتا هو سرعة الانعكاسات العنيفة التي كانت لهذا الانتقال. وعلى أية حال، فقد كان الأمر يتعلق بتطور مؤلم.

سؤال : هل أربكتكم هذه الأحداث؟

جواب : كلا ، إنها لم تربكني، بل على العكس من ذلك فقد أدركت أن علي أن أمسك بزمام الأمور . ولهذا السبب أقدمت على حل البرلمان وقررت العمل بالفصل 35 من الدستور الذي يماثله الفصل 16 عندكم في فرنسا .

سؤال : إن الأحداث وقعت في مارس، وأنتم اتخذتم هذا القرار في يونيو . فقد فكرتم كثيرا قبل الإقدام على هذه الخطوة؟

جواب : أجل، لقد فكرت كثيرا قبل اتخاذ هذا القرار . وعندما نواجه أحداثا صعبة في إدارة شؤون الدولة، فقلما نلوم أنفسنا . ومع ذلك فلحالة الاستثناء دلالتها . وعندما يتكرر استعمالها فلا ينبغي أن نلوم الآخرين، بل أنفسنا . وكما تعلمون فإني أكن تقديرا وحبا جما للشعب المغربي، إلا أن قيادة المغاربة تكون صعبة أحيانا .

سؤال : لماذا؟

جواب : لقد كان والدي رحمة الله عليه يقول لي دائما : « إن المغرب أسد ينبغي قيادته بزمام ولا يجب تحسيسه بأنه مشدود بسلسلة من حديد » . وعليه فإن التعامل بيننا يكون على الشكل التالي : عندما يجر الشعب الزمام بقوة فإنني أرخي من جانبي . وحين يسترخي . أجره قليلا . فالأمر يتعلق باتفاق دائم وتلقاني يتمتع باحترام الجميع . فنحن تجمعنا علاقات من الحب ومن الأخذ والرد . وعندما يكون هناك خطر يحدق بالأمة . فإن هذه العلاقة تتحول الى تضامن قوي . وفي الحقيقة فإننا نشكل عائلة تستحق كل إعجاب .

الفصل الثامن

ابن بركة.. القصة الكاملة

سؤال: صاحب الجلالة هل حيكت بالفعل ضدكم مؤامرة سنة 1963؟

جواب: نعم. وبالرغم من أن مفهوم المؤامرة قابل للنقاش. فإن ما حدث كان بالفعل مؤامرة في اعتقاد مدبريه. وبما أن الأمر كان يتعلق بهواة. وتم الحكم عليهم وفقا للمعايير التي يعامل بها المحترفون. فقد اعتقد الناس أننا ربما ضخمنا الأمور.

سؤال: هل كان المذبوح. وهو أحد الضباط المرافقين لكم والذي كان وراء محاولة انقلاب سنة 1971. بالصخيرات متورطا في مؤامرة 1963؟

جواب: لم يكن متورطا في مؤامرة 1963.

سؤال: إن بعض المصادر تقول إن أوفقير قد علم بتورط المذبوح. وأنه قد يكون غض الطرف عنه بهدف الضغط عليه واستغلاله فيما بعد.

جواب: لا أصدق ذلك.

سؤال: لقد قررتم بعد الأحداث التي شهدتها الدار البيضاء سنة 1965 العفو على جل المحكوم عليهم، حتى أولئك الذين شاركوا في المؤامرة المدبرة ضدكم في سنة 1963 بمن فيهم المحكوم عليهم غيابيا بالإعدام.

جواب: لقد قمت بذلك بروح تطبعها الرغبة في تهدئة الخواطر. لأنني اعتبر شخصيا أنه لا ينبغي التسرع في الأمور.

سؤال: هل اعترض على هذا القرار بعض المقربين منكم.

جواب: لقد اتخذت هذا القرار وحدي ومع نفسي. ويمكنني القول إن الجميع، بمختلف انتماءاتهم السياسية، قد هنأوني على ذلك.

سؤال: هل قلتم بالفعل بخصوص ابن بركة بعد عفوكم عنه: «اريد أن يعود استاذي في مادة الرياضيات لأن لي معادلة اريد حلها لصالح المغرب»؟

جواب: نعم. وكما سبق أن قلت لكم فانه كان مشاغبا، الا أنه كان ذا ذكاء ثاقب. اعتقد أنه إذا كان كل شخص لا يقدم فكرة صائبة، فإن ابن بركة كان يعطي يوميا عشرة آلاف فكرة يمكن الأخذ منهابفكرة أو فكرتين صائبتين. وكما قلت لكم في البداية اني أمل أن يتم عبر هذه اللقاءات اعطاء صورة شفافة وواضحة عني. وأؤكد لكم أنه لم يكن لي مع المهدي اي خلاف.

سؤال: ستفاجئون الكثيرين بهذا التصريح.

جواب: أريد أن تعلم شيئا، وهو أني مسلم مؤمن متمسك بأداء واجباتي الدينية. وهذا شيء يعرفه الجميع. وإن ما حباني به الله سبحانه وتعالى من نعم، يجعلني أكثر إيمانا وأكثر أداء لواجباتي الدينية.. وعلى كل. فإني مستعد في كل وقت لأقسم بالله أني وضعت أمام الأمر الواقع، في حادث موت ابن بركة. ولم تكن لي يد فيه سواء باصدار الأوامر لتنفيذها أو غض النظر عنها. إني أؤكد لكم مرة أخرى أنه قد تم وضعي أمام الأمر الواقع وأني بريء تماما من اختفاء المهدي. إذ كيف يمكن أن يكون لي ضلع في موت إنسان بقي على الصعيد الشخصي قريبا مني ومرتبطا بي رغم الاختلاف السياسي .فالمهدي كان من بين أولئك الذين بامكانهم أن يطلبوا مقابلتي في

أي وقت. ولم يكن في حاجة الى اتباع البروتوكول للحصول على موعد. لقد كنت استقبله في اسرع وقت ممكن. وقد كان المهدي استاذي لمدة اربع سنوات وكنت اتحدث اليه بدون تكلف. وإليه يرجع الفضل في الرفع من مستواي في مادة الرياضيات ـ التي لم أكن متفوقا فيها ـ أثناء قيامي بالتحضير لاجتياز امتحان الباكلوريا. وعلاوة على ذلك فانه لم يكن بالنسبة لي استاذا فقط، بل ايضا مرشدا.

سؤال: ماذا تقصدون بذلك؟

جواب: ان الفضل في إذكاء شعلة الحماسة في نفسي من أجل الكفاح الوطني، يعود الى ابن بركة ومحمد الفاسي. وكما لا يخفى عليكم، فإن مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة التي تتوثق فيها عرى الروابط الإنسانية بشكل سريع بين الاستاذ وتلميذه. وكل المغاربة سيؤكدون لكم ان الطبيب والأستاذ هما في مقدمة من يحظون بأكبر قدر من الاحترام والتقديرفي مجتمعنا. هذه حقيقة متأصلة في مجتمعنا.

وبالاضافة الى ذلك لم يكن ابن بركة متقدما في السن. مما كان له أكبر الأثر في تمتين أصرة علاقاتنا. لقد كنت اكن له كثيرا من التقدير والاحترام لانه جعلني مرهف الحس متفهما للواقع. كما يعود إليه الفضل في تمكيني من الاطلاع على المنشورات والبيانات الأسبوعية للحزب، وتتبع ماجريات الاحداث. إذ هو الذي كان مكلفا بالتنسيق مع الخلية الوطنية بالمعهد المولوي. وأنا سعيد بذلك لأنه جعلني دوما مرتبطا وعلى علم بانشغالات الشباب ممن كانوا في سني بمختلف جهات البلاد.

سؤال: كيف كان المهدي ابن بركة؟

جواب: إنه كان يتكلم بنبرة متوقدة حماسا زائدا، كان يفيض ذكاء، كما كان ذا ثقافة واسعة وشخصية جذابة وطبع هائج. وفي اعتقادي أنه كان سيصبح باحثا مرموقا لو لم يكن اهتمامه موزعا بين عدة شؤون. لقد كان في البداية شغوفا بالعلم متحمسا له، ثم ما لبث أن تحول به هذا الشغف والتحمس الى حقل السياسة. ولم يكن يعرف كيف يحد من حركته، إذ كانت له طاقة مختزنة للبذل والعطاء. وكان يولي لكل فكرة جديدة بالغ اهتمامه. والأمر الوحيد الذي يمكن أن يؤاخذ عليه هو استعجاله في الأمور. وهو نهج لا يتماشى مع الممارسة السياسية السليمة. وفي هذا الصدد يقول مثل برتغالي حكيم: «إن الوقت لا يرحم الأمور التي لا تتم في إبانها».

سؤال: ألم يخطر ببالكم أنه يمكن أن يشكل خطرا عليكم عندما عين أمينا عاما لمؤتمر القارات الثلاث وهي منظمة مشكلة من دول العالم الثالث وموالية لكوبا وللماركسية؟

جواب: لم يخطر ببالي لحظة واحدة أنه سيستغل المنظمة المذكورة لتحقيق أهداف سياسة داخلية في المغرب. لانه كان إنسانا واقعيا للغاية. ولا ينبغي ان يغيب عن ذهنكم، أن ابن بركة وضع في عهد الحماية تحت الاقامة الجبرية، في منطقة جبلية وسط سكان البادية. فكانت مناسبة لمزيد تعرفه على بلاده تمام المعرفة. وكان على علم بأن المغرب فسيفسائي التركيب، ليس فقط على الصعيد الجغرافي، وإنما أيضا على الصعيد البشري. وهو ما يجعله يدرك تمام الإدراك أنه لن يكون بمقدور أي حزب سياسي أو أي شخص مهما كان توجهه، أن ينفرد بالحفاظ على تماسك الأمة المغربية ووحدتها.

سؤال: ولكن ما سبب اعتناقه لاختيارات سياسية تبدو متناقضة مع هذه الواقعية؟

جواب: الواقع اني اتساءل عن القضايا التي كان يؤمن بها ابن بركة. فإذا استثنينا بعض المعادلات الجبرية والأفكار المثالية. فقد كانت تنازعه الشكوك وتتجاذبه الظنون. ولكن مع ذلك كان ذا ذكاء ثاقب.

وأني أتذكر عندما كنت وليا للعهد أنه كان يمكث في منزلي الى ما بعد الساعة الثانية صباحا. وكان صديقا طيب العشرة، أنيسا لبقا لا يشعر المرء معه بالملل. ولكن حجم ما كان يؤمن به، لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة.

سؤال: ماهي رؤية ابن بركة السياسية؟

جواب: أؤكد لكم أنني لو كنت عينت على سبيل التجربة ابن بركة وزيرا أول، لعمد الى الحد بقدر كبير من حرية الصحافة، ولما كانت هناك حرية نقابية على الاطلاق. إن صرامته المفرطة كانت تضيق هامش التسامح مع اصدقائه، وحتى مع رفقائه في الحزب. إني أعلم ما أقول وأحرص على تأكيد ذلك.

سؤال: هل كان يلمح الى ذلك في المناقشات التي كانت تجري بينكما أنذاك؟

جواب: اجل، انه لم يكن يخفي ذلك.

سؤال: ألم يكن متشبعا بالروح الديمقراطية؟

جواب: أبدا. إنه كان من مؤيدي الحزب الوحيد والنقابة الوحيدة.

سؤال: كيف كان يبرر موقفه ذاك؟

جواب: لقد كان يقول: «لا يمكننا اعتماد نظام التعددية الحزبية ولا تعدد الاختيارات. علينا أن نسلك اتجاها واحدا ونتشبث به مهما كانت الظروف. فالحرية من الكماليات التي لا يمكننا أن نسمح بها لانفسنا في الوقت الراهن» وهذه النظرية كانت موضة العصر انذاك.

سؤال: أي موقف كان له من النظام الملكي؟

جواب: لقد كان يرى أن النظام الملكي ضروري للحفاظ على نوع من الوحدة. لذلك كان يحبذ لو أنه تولى جزءا من سلطات واختصاصات هذا النظام مع الابقاء عليه.

سؤال: هل باح لكم بذلك ام استنبطتموه؟

جواب: إن كل واحد منا يعرف الآخر، ولم نكن نحتاج الى بذل أي جهد لفهم افكار بعضنا. ومع ذلك فإن ابن بركة لم يكن ذلك المتحدث الوقح الذي لا يحسن انتقاء العبارات. فقد كان يخاطب والدي بما يليق به من احترام كملك. كما كان يحرص دوما على مراعاة حدود الادب واللباقة في حديثه التلقائي معي، الى درجة أنه لم يكن يتجرأ على خلع سترته وربطة عنقه الا بعد أن ألح عليه في ذلك.

وأفضي إليكم في هذا الصدد بسر متصل باحدى الجزئيات. وهي أن الفضل في تعودي على أناقة اللباس يرجع الى ابن بركة. ذلك أنه لما كنت ادرس بالمعهد المولوي لم أكن أعتني بهندامي. وكنت بعد ظهر يوم الاحد أتلقى منه دروس التدارك في مادة الرياضيات فكنا نقضي ساعة في دراسة المادة. اما الوقت المتبقي فنخصصه للحديث عن الحركة الوطنية. وذات يوم خاطبني فجأة بقوله: «لم تغفلون، يا مولاي، الاهتمام بهندامكم؟» وتابع: «اتعرفون احمد بلافريج؟»، (وهذا الأخير هو الذي عين وزيرا للخارجية في ما بعد وكان في سن والدي ومعروفا

بأناقته). وأضاف ابن بركة قائلا: «لا ينبغي أن يظهر بمظهر احسن من مظهركم. لذا عليكم أن تنظروا من حين لاخر الى المرآة عند ارتداء ملابسكم». وبعد أسبوع تغيرت تماما طريقة لباسي. وهكذا يتضح لكم مدى العلاقة الحميمة التي كانت بيننا. وقد اصبحنا فيما بعد نتردد على نفس محل الخياطة وكانت البذلة تكلفنا أنذاك حوالي مائة وخمسين الف فرنك فرنسي قديم.

سؤال: هل اصبتم بخيبة امل من جراء ابتعاده سياسيا عنكم؟

جواب: اصبت بخيبة كبيرة لاننا كنا قد قضينا معا وقتا طويلا. ولأني لم أستطع فهم موقفه.

سؤال: ألم يقدم لكم أي تفسير لموقفه خلال اللقاءات التي تمت بينكما؟

جواب: لم اتحدث معه حول هذه النقطة مطلقا. فقد كنت في سنة 1965 أترقب عودته الى المغرب للحصول على ذلك التفسير. كنت سأقول له: «كفى. قل لي فيم تفكر وماذا تريد؟». وكان يختلج في نفسي أن أتحدث إليه بتركيز. وكنت اود لو يرد على تساؤلي. كأن يقول لي مثلا «من الموقع الذي توجدون فيه. ربما لا يمكنكم أن...». ولكن القدر اختار غير ذلك.

سؤال: ولكنكم اتصلتم به لبحث تفاصيل عودته؟

جواب: لقد اوفدت له ابن عمي مولاي علي. الذي كان ايضا صهري. وكان سفيرا للمغرب بباريس. وقد التقى به سرا في بون بالمانيا. وقال له «عد الى بلدك فإنه يشهد مرحلة جديدة. وإن صاحب الجلالة يريد أن تكون معنا وهو في انتظارك» وكان سيعود الى المغرب.

سؤال: هل وافق على ذلك؟

جواب: بالطبع. لقد كان على علم بالعلاقة الحميمة التي كانت تربطني بمولاي علي. وبعد أن استمع اليه اجابه «طيب. ما دمتم انتم الذين جئتم إلي وما دام صاحب الجلالة هو الذي طلب مني العودة. فاخبروه باني سأعود الى المغرب للقائه خلال الخمسة عشر يوما المقبلة».

سؤال: أظن أنه كان يعتزم مواصلة جولته في الخارج وخاصة القيام بزيارة لكوبا قبل المجيء الى المغرب.

جواب: كلا. ويمكنني أن أؤكد لكم ذلك. فقد سبق له أن قال: «انني سأعود خلال الاسبوعين القادمين». وكما لا يخفى عليكم فإن كثرة التنقل والرحيل من بلد الى أخر تصبح في الاخير مضنية. وابن بركة وان كان يحلق بفكره بعيدا، الا أنه على العكس من ذلك كان يفضل الاستقرار في وطنه. لقد كان يعتبر أن أحسن عمل هو ذلك الذي يمكن انجازه من داخل البلاد وليس خارجها. وهذا سبب من الاسباب التي كانت تدفعه إلى العودة. كما أنه كان يعلم علم اليقين انني اتحلى بالاستقامة خاصة وأنه أشرف على تعليمي لمدة أربع سنوات منذ أن كنت ابن الثالثة عشرة سنة.

سؤال: كيف علمتم بما حصل لابن بركة؟

الجواب: عن طريق الصحافة.

سؤال: وماذا كان رد فعلكم فور تلقيكم نبأ اختطاف ابن بركة؟

جواب: إنني لا اقوم بأي شيء بشكل اعتباطي. فقد كنت قد وضعت عقب الاتصال الذي تم بيننا تصورا قابلا

للتطبيق. لقد كان هناك احتمالان، إما ألا نتوصل الى تفاهم بيننا، وفي هذه الحالة فالمسألة لم تكن لتتطلب مني ادنى جهد من التفكير. وإما أن نتوصل إلى تفاهم، فإن تفكيري سيكون مركزا على البحث عن نوع تعاوننا، حتى ولو لم يكن هذا التعاون قريبا ومباشرا ويوميا. والواقع أنه لم يكن هناك ما يجعلني افترض مسبقا اننا لن نتوصل الى تفاهم.

سؤال: ماذا كنتم ستقومون به لو أنكم توصلتم الى تفاهم؟

جواب: لقد كان لي بخصوص هذه الحالة تصور لعدة احتمالات تتوقف جميعها بطبيعة الحال على ما كنا سنتحدث فيه وعلى النتائج التي كنا سنتوصل اليها.

سؤال: اين تبدأ هذه الفرضيات واين تنتهي؟

جواب: «لا ينبغي بتاتا وضع فرضيات» كما يقول باكون.

سؤال: ما هي الحلول التي فكرتم فيها؟

جواب: هناك حلان: إما أن يكون هذا التعاون مباشرا معي، وإما أن يكون تعاونا من خارج الحكومة. وذلك دفاعا عن الأفكار التي كنا نعتبرها مشتركة بيننا.

سؤال: هل كنتم ستكلفونه في حالة قبوله التعاون معكم بمهام حيوية؟

جواب: بالفعل، ولهذا السبب فان اعلان نبأ اختطافه نزل علي كالصاعقة.

سؤال: ألم تكونوا في نفس الوقت حائرين؟ ألم يراودكم شك؟

جواب: بكل صراحة لم افكر في اية لحظة أن أحدا قريبا مني قد يقدم على اغتيال ابن بركة.

سؤال: ألم تكونوا تجهلون أن العلاقات بين أوفقير وابن بركة لم تكن على ما يرام؟

جواب: بالعكس، إنها كانت ممتازة، فلما كنا في المنفى كان هناك تعاون وثيق بين ابن بركة ووفقير. ويمكن أن يؤكد ذلك مسؤولو حزب الاستقلال.

سؤال: ان التعاون لا يعني، بالضرورة، التفاهم او الصداقة.

جواب: لا، فعندما أقول تعاون اعني شراكة حقيقية، فأوفقير كان يساعد المهدي من خلال مده بالمعلومات، فقد كان يقول له «احذروا ان الفرنسيين يريدون بكم كذا وكذا» كما كان يساعده على الاختباء، والتنقل. فقد كانت شراكة حقيقية قائمة بينهما على الأقل طيلة سنتين ونصف السنة. ولما عدنا من المنفى كانا يلتقيان ويتعانقان.

سؤال: وماذا بعد؟

جواب: لقد تغيرت أشياء، كثيرة، وعلى الرغم من وجود علاقات انسانية وثيقة، فإن أحداً لم يكن يحترم الاخر. فقد تدهورت علاقاتهما.

سؤال: لماذا هذا الجفاء، ألكونهما كانا يختلفان كثيرا؟

جواب: نعم فابن بركة كان يعتبر أوفقير من صنع الجيش الفرنسي، فيما كان أوفقير يرى أن المهدي رجل خطير يلقي الكلام على عواهنه.

سؤال: لكن ألم تحاولوا بعد الاختطاف الذي تعرض له في تلك الظروف المأساوية التحرك ومعرفة تفاصيل أكثر؟

جواب: إن الندوة الصحفية التي عقدها الجنرال دوغول لم تترك لي وقتا للتحرك.

سؤال: كيف تلقيتم تصريحاته؟

جواب: لم يكن ممكنا قبولها أبدا. فبدون أدنى دليل اتهم على الفور وزيري في الداخلية حيث قال: «انه المسؤول فيجب ان ينحّى».

سؤال: الم يشوش ذلك بالكم؟

جواب: نعم. ولكن ليس إلى حد كبير. لقد قاومت. إني ارفض ان يتدخل احد في شؤوننا. وعلى كل حال فلو أني رضخت لرغبة الجنرال دوغول لظن في قرارة نفسه أني لم أعد ابن محمد الخامس. لأن الجنرال كان عنيدا جدا وكان أبي كذلك.

لقد كان الجنرال دوغول رجل أسرار. إذ كان يحب كثيرا الدبلوماسية الموازية والمبعوثين غير المتوقعين. ولقد التقيت بالعديد منهم. ذاك هو نهج دوغول. كان بامكانه أن يبعث احدا ليقول لي: «هذه هي الحجج والعناصر المتوفرة ضد أوفقير واطلب من جلالتكم أن تقوموا بصفتكم صاحب السيادة. ومن جانبكم على إنفراد. بالبحث عن طريقة لعزل أوفقير في انتظار تسليط الضوء على هذه القضية». فلو قام الجنرال دوغول بذلك لما ترددت لحظة في تلبية طلبه. ولكن أن يتوجه بلهجة عنيفة الى عاهل تربطه به صداقة. فهذا ما لم استسغه. خاصة وانه كان يكن لي على مر السنين تقديرا خاصا. فخلال احدى الزيارات التي قمت بها الى فرنسا. بتكليف من والدي. وأنا لا ازال وليا للعهد. اقام الجنرال دوغول على شرفي مأدبة غداء. بقصر الايليزيه على غرار تلك التي تقام على شرف رؤساء الدول. وكان الجو بديعا. والشمس ترسل أشعتها على العاصمة. وبعد تناول الغداء. خرجنا الى حديقة الايليزيه حيث تناولنا القهوة. ولدى انصرافي خاطبني مالرو وكوف دو مورفيل بالقول: «كيف جعلتم الجنرال يغير عادته؟ انها المرة الأولى التي يتناول فيها القهوة مع ضيف». فقد كانت العادة في الايليزيه خلال عهد دوغول أن ينصرف الحضور بمجرد تناول وجبة الغداء.

ومرة أخرى ومباشرة بعد إعادة ترميم قصر فيرساي. حرص دوغول على أن تقام أول مأدبة عشاء هناك. على شرف ملك المغرب ونجل رفيقه في معركة التحرير. وقد زرت برفقته معظم مرافق القصر وهذا ما جعلني لا افهم تصرفه بتاتا.

سؤال: كيف علمتم بذلك؟

جواب: عن طريق الصحافة. وبالضبط بواسطة وكالة فرانس بريس التي نقلت خطابه. وكنت إذ ذاك بفاس.

سؤال: وماذا كان رد فعلكم؟

جواب: كما سبق ان قلت لكم. فإن الجنرال دوغول قد مس شهامتي وكرامتي. فما كان له أن يفرض علي عزل احد وزرائي. لقد ذهب بعيدا. لقد كان حريا به ان يبلغني رسالة مفادها: «هذه هي العناصر التي أتوفر عليها ولا يليق ان تتلطخ سمعة الحكومة الفرنسية ولا سمعة شخصكم العزيز علي». فعند ذلك كان بالامكان أن نتفاهم حتى ولو ادى ذلك الى ارتكاب اجحاف أو ظلم قد يتم لاحقا تداركهما.

سؤال : ماذا تقصدون بـ« ارتكاب اجحاف أو ظلم »؟

جواب : كنت سأقوم بعزل الشخص او الاشخاص المشتبه فيهم حتى ولو كانت القرائن المتوفرة ضدهم غير كافية أو غير مقنعة على أن أتدارك ذلك فيما بعد . إن مصلحة الدولة فوق كل اعتبار . خاصة امام الرهان الذي كانت تمثله هذه القضية . فانا لم اكن على علم باختطاف ابن بركة . ولو علمت به لأعلنت إدانتي له .

إن كل ذلك كان من الممكن ان يضر في نفس الوقت بتعاوننا مع فرنسا الذي هو معطى اساس . وبعلاقاتي الشخصية مع الجنرال دوغول . فثقل وجسامة الرهان لم يكن يعادلهما سوى مصلحة بلادي . و ما أزال اتساءل عمن اشار على الجنرال دوغول بأن يقدم على ما اقدم عليه .

سؤال : هل كنتم تعتقدون باحتمال تعرض الجنرال دوغول لضغوط او تأثيرات؟

جواب : لقد كان هناك ولا شك . تأثير سيئ . إن من يقدم على محاكمة العقيد ارغو . بعد أن تم اختطافه ولفه في غطاء ووضعه داخل سيارة . لن يكون له رد الفعل الذي كان للجنرال دوغول حيال هذه القضية . إن ذلك لم يكن من شيمه .

واعتقد ان تلك الاحداث وقعت في وقت كان فيه فراي وزير الداخلية وجورج بومبيدو من المقربين إلى الجنرال دوغول ولم يكن هذا الاخير يريد التشكيك في مصداقية جهاز الامن الفرنسي . ولم يكن يرضيه ان يرى بعض مساعديه الأقربين متورطين أو فاقدين لمصداقيتهم . فرد فعله ربما يجد تفسيره في رغبته في حماية ادارته وابعادها عن القضية لتبرئتها .

سؤال : ما هو تعليقكم على سلوك الجنرال دوغول في هذه القضية؟

جواب : يمكن لزمام الامور أن يفلت أحيانا حتى من يد العظماء .

سؤال : الم تعد العلاقات بينكما كما كانت عليه؟

جواب : أبداً .

سؤال : لماذا؟

جواب : بكل صراحة اني اطرح اليوم على نفسي هذا السؤال واقول : لا . « ربما كان يتعين علي - وقد كنت الاصغر سنا والاقل اقدمية في الحكم - أن أقوم بمبادرة ما في هذا الشأن » . الا انني لم أزر فرنسا بعد قضية ابن بركة الا بعد وفاة الجنرال دوغول . حيث توجهت الى كولومبي وحدي للترحم على قبره حاملا ميدالية رفيق التحرير الممنوحة لوالدي من طرفه . وبعد ذلك قمت بتحية عقيلته وانصرفت .

وكان الجنرال دوغول قد صرح في مايو (آيار) 1968 لأحد المقربين اليه : « أنا على يقين . لو أن ابن بركة ظل على قيد الحياة لتظاهر إلى جانب « كوهن بانديت » إن هذا بالضبط ما قاله .

سؤال : متى بدأت تراودكم الشكوك حول أوفقير لأول مرة؟

جواب : لقد كان ذلك عندما توجه عميد الشرطة « الماحي » الى فرنسا . حاملا حقيبة وألقت عليه الشرطة الفرنسية القبض . وقدمته للمحاكمة . أنذاك بدأت اشعر بأن شيئا ما يحيط بهذه القضية إلا أنني لم أدرك ما هو .

سؤال : هل سألتم أوفقير حول اختطاف ابن بركة مباشرة بعد الحادث؟

جواب: بالفعل. فأوفقير من قدماء خدامنا. وقد سألته: «قل يا أوفقير. ما هذا الذي اسمع؟ ألك ضلع في هذه القضية؟» فأجابني: «اني لم أذهب الى باريس الا ليوم واحد. وعدت مساء نفس اليوم». وأقسم باغلظ الأيمان أنه لم يكن له دخل في القضية. واضاف إنه على أتم استعداد لتسليم نفسه الى العدالة بمجرد ظهور قرائن ضده. إذ ذاك لم يعد هناك مبرر للالحاح.

سؤال: ولكن. ربما كان من شأن عودة ابن بركة وما قد يصبح يتمتع به من نفوذ وهو بقربكم أن يقلق أوفقير؟

جواب: لم ادرك ذلك الا فيما بعد. ففي فترة مايو (آيار) - يونيو (حزيران) 1972، ارتأيت اشراك جميع الاحزاب السياسية في الحكومة في اطار وحدة وطنية مع بدء العمل بدستور جديد. واسررت يوما لأوفقير بالقول: «ان علال الفاسي سينضم الينا. وسألته هل يرغب في المشاركة في الحكومة؟.» فرد أوفقير بنبرة طبعها الغضب: «اذا كان الامر كذلك فلماذا لم تخبرونا ،يا صاحب الجلالة، بذلك من قبل لنعد حقائبنا للرحيل عن البلاد». وقد استأت من هذا الكلام، لانني ربطت بينه وبين سوابق أخرى هي أنه كلما كنت بصدد محاولة للتفتح والحوار مع الزعماء السياسيين الذين كان أوفقير يطلق عليهم اسم المتسيسين، الا وقيل لي إن هناك مؤامرة تستهدفني. وقد تراءى لي ذلك من خلال اختطاف ابن بركة سنة 1965، ومن خلال محاولة اسقاط الطائرة التي كانت تقلني سنة 1972 وانا في طريق العودة من فرنسا الى المغرب.

سؤال: وهل تعتقدون ان أوفقير كان في كل مرة متورطا في المؤامرة؟

جواب: أجل.

سؤال: هل هو وحده الذي كان متورطاً؟

جواب: بكل تأكيد.

سؤال: كيف كان وقع اختطاف ابن بركة عليكم؟

جواب: بالاضافة الى وقع فقدان رجل، وخاصة في تلك الظروف، فإني أرى أنه تم بذلك تشويه وتلطيخ سمعة المغرب.

الفصل التاسع

المغرب.. وفرنسا

سؤال: هل حافظتم على علاقاتكم مع دوغول طيلة غيابه عن الحياة العامة؟

جواب: باستمرار. وآخر مرة لقيته فيها كانت قبل عودته الى الحكم سنة 1957. وقد طلب مني ذلك والدي قائلا: «ستذهبون لزيارته في كولومبي». الا ان الجنرال دوغول رد بقوله: «ان قدومكم الى «كولومبي» غير وارد. فسنلتقي بملكيته بسان كلو الواقعة بالقرب من الطريق السيار الغربي على ضفة «نهر السين». وقد التقينا بهذا القصر الذي كان محافظه من اصدقاء الجنرال دوغول. ومكثنا هناك نتجاذب اطراف الحديث إلى أن جنحت الشمس الى الغروب، وتحدثنا خاصة عن القضية الجزائرية. ولا ازال اتذكر الرسالة التي طلب مني ابلاغها لوالدي كلمة كلمة: «ابلغوا صاحب الجلالة بأنني على يقين أن الجزائر ستنال استقلالها حتما».

سؤال: هل كنتم مقتنعين بأن الجنرال دوغول سيعود الى السلطة؟

جواب: بالنظر الى الطريقة التي كانت تسير عليها فرنسا في ظل الجمهورية الرابعة، كنت على يقين بأنه سيعود الى السلطة وأن دوره لم ينته بعد، الا أنه لم يكن لي تصور للطريقة التي كان سيتم بها ذلك.

سؤال: كيف كان يحلل الوضع في فرنسا انذاك؟

جواب: لقد كان منشغلا بمصير بلده أيما انشغال مفصحا عن كل ذلك بتعبير فريد يمزج بين المرارة والسخرية، وكان فيهما نسيج وحده.

سؤال: ماذا كان رأيكم في الجمهورية الرابعة؟

جواب: كنت أرى أن جهازها التنفيذي لم يكن في مأمن من التقلبات. ومن جهة اخرى فإن السلطة فيها لم تكن في يد الوزراء، بل في يد المديرين ورؤساء الدواوين. ومع مجيء الجمهورية الخامسة عادت السلطة والمسؤولية العليا الى اصحابها الحقيقيين. وهذا هو الفرق الهام بين الاوضاع في الجمهوريتين الرابعة والخامسة.

سؤال: كيف كانت العلاقات بين فرنسا والمغرب بعد عودة دوغول الى الحكم؟

جواب: لقد كانت ممتازة مادام قائد فرنسا الحرة يتولى رئاسة بلده ورفيقه في التحرير يعتلي عرش المغرب. وكنت كلما لقيته ألمح في عينيه بريقا يشع بالعطف والاعتزاز، وتبدو عليه السعادة، وهو يرى نجل رفيقه في الكفاح يحقق بدايات مشرفة في مسؤوليته.لقد كانت نظرته نظرة ملؤها العطف والحدب علي، الا انها لم تكن مزعجة، فلم تكن تجعلني أشعر باني في حاجة الى حمايته. وكان اهتمامه بي يبدو من خلال التفاتات غير معتادة لديه لا تراعي البروتوكول أحيانا.

واتذكر في هذا السياق واقعة قد تكون للقارئ الفرنسي، كما كانت بالنسبة لي، مفتاحا لفهم نفسية الجنرال دوغول.

فخلال زيارة قمت بها، وأنا لا ازال وليا للعهد، الى باريس لبحث تطور قضية الجزائر. اطلعني الجنرال دوغول على رغبته في تسوية هذه القضية.الا انه لا يريد استفزاز احد رجاله المخلصين هو «ميشيل دوبري» الذي كان ممن يؤيدون بقاء تبعية الجزائر لفرنسا .وخاطبني دوغول فجأة: «لماذا لا تتصلون «بدوبري» لبحث الموضوع معه». فأجبته: «بكل سرور»، الا انه اضاف: «يجب أن تبقى المسألة في طي السر وأن لا تتخذ طابعا رسميا». ونادى على العقيد «تويا» وهو عقيد من قوات الدرك كان يحظى لديه بتقدير كبير وكان يكن لنا المودة أيام

منفانا حيث كان قريبا منا وخاطبه بقوله: «اعملوا ما في وسعكم حتى يتمكن ولي العهد من دخول قصر «ماتينيون» من الباب الخلفي وان يأخذ المصعد العادي. وسأتصل هاتفيا «بدوبري» لإبلاغه رغبة الأمير في لقائه». لقد كان ذلك من نوع الكذب المباح.

وعندما وصلت الى «ماتينيون»، دخلت - ان لم تخني الذاكرة - الى قاعة الاكل المفروشة بالزرابي ولون جدرانها أزرق فاتح. والتقيت «بميشيل دوبري» الذي سألني على الفور: «ولكن، ما هو رأي الجنرال دوغول؟» فقلت له: «سيادة الوزير الاول، اذا كنت قد جئت في هذه الظروف للقائكم، فإنني اريد أن تبقى الامور سرية قدر الامكان». وكان علي أن أفهمه أن مجيئي اليه يخصه هو بالذات وان الجنرال دوغول يتفادى جرح مشاعره.

وبعد ما انتهى اللقاء، وانصرفت. وكأنما كان الأمر يتعلق بتواطؤ - اتصل بي الجنرال دوغول هاتفيا وقال: «اني أود مقابلتكم صباح الغد لتعطوني نظرة موجزة عما دار بينكما، واني سأصدر أمري بفتح الباب الكبير لكم وستجدونني في انتظاركم بالحديقة». وكان الباب المذكور لا يفتح الا بمناسبة الاحتفالات الرسمية. وفي الغد جئت وحدي على متن سيارتي الى القصر حوالي الساعة التاسعة او التاسعة والنصف. ولم يكن احد على علم بلقائنا. وفتح احد افراد الحرس الجمهوري الباب فدخلت، حيث وجدت الجنرال دوغول يذرع الحديقة جيئة وذهابا، وأخبرته بما دار بيني وبين دوبري، وبعد إصغائه إلي قال: «اعتقد ان الامور قد تسير على ما يرام».

سؤال: ما هي التحفظات التي كانت لميشيل دوبري؟

جواب: لم يكن «لميشيل دوبري» اي تحفظ او معارضة على شيء يريد الجنرال دوغول القيام به. لقد كان اخلاصه فريداً من نوعه. كما كان كل منهما متمسكا بالآخر. وعلى عكس ما قد يقال او يتبادر للاذهان، فان دوغول لم يكن فقط يستعين «بدوبري» ويوظفه في خدمة فرنسا فقط، بل كان ايضاً يكن له المحبة والتقدير. الا أن طريقة الحوار بينهما كانت تشبه طريقة حوار «البرناسيين»، وربما اكون قد نجحت في فتح حوار ايجابي بينهما.

وفي اعتقادي أن هذه الواقعة تعتبر من الأهمية بمكان لفهم شخصية دوغول الذي كان يحرص على عدم جرح شعور وزيره الاول بالرغم من علمه مسبقا أنه لن يعارضه في أمر.

سؤال: كيف تقبل الجنرال دوغول اعتلاء كم العرش سنة 1961؟

جواب: عند وفاة والدي، كانت بعض القوات الفرنسية مازالت مرابطة بالمغرب. وقد أوفد إلي الجنرال دوغول مبعوثه السيد بارودي، الذي كان في نفس الوقت سفيرا ومقاوماً كبيراً وحمّله الرسالة التالية: «ابلغوا الملك انه رغبة في تسهيل مهمته، وتأكيداً لحسن نية فرنسا، وبدلا من اتباع الجدول الزمني المحدد من طرف الحكومتين السابقتين، فإنني سأعمل على ان تسير الامور بسرعة وتنسحب كل القوات الفرنسية من المملكة في غضون شهر. فتلك هي الهدية التي اقدمها لجلالة الملك بمناسبة اعتلائه العرش».

وبعد ذلك قررنا أن نلتقي في سرية تامة. وقبل يومين من موعد لقائنا قام بتعيين «جورج بومبيدو» وزيرا أول. وقد حللت بـ«فيلاكوبلاي» ليلا على متن الطائرة ثم توجهت الى «قصرشان». وفي الصباح التقينا سرا ببلدية «فيرساي». وكان الغداء بـ«قصر شان»، وهو قصر يذكرني بالعديد من الذكريات خاصة وأن والدي كان

قد قضى به فترة نقاهة سنة 1939 . وقد تحدثنا طويلا ، وعدت مساء نفس اليوم الى المغرب .

سؤال : هل اطلعكم على مشاريعه بخصوص الجزائر؟

الجواب : أبدا ، اولا لأنه كان انسانا متحفظا للغاية ثم إنه كان يضع القضايا الوطنية في ترتيبه للأمور فوق كل اعتبار . ومهما تكن العلاقة التي قد تربطه برئيس دولة ، فإنه ما كان ليفضي له بالمشاريع المتعلقة بالقضية الجزائرية الا بعد التداول فيها مع الجهات المعنية في الجزائر . ذلك أن حرصه على كرامة فرنسا ما كان ليسمح له بذلك بتاتا .

سؤال : متى التقيتم به لآخر مرة؟

جواب : كان ذلك سنة 1963 عندما ودعته في ختام أول زيارة رسمية قمت بها إلى فرنسا .

سؤال : ألم تتجدد العلاقات بينكم بعد قضية « ابن بركة »؟

جواب : أبدا .

سؤال : هل تأسفتم للتراجع الذي شهدته هذه العلاقة الوثيقة بعد قضية ابن بركة؟

جواب : لقد كان ذلك بمثابة عائق حقيقي للمغرب . وفيما يخصني كملك حديث العهد بالملك ،فإني شعرت بأن عدم معاشرته سيحرمني كثيرا مما قد احتاجه في حياتي المهنية .

سؤال : هل عز عليكم فراقه؟

جواب : نعم ، بكل تأكيد .

سؤال : هل سبق أن قلتم مع نفسكم احيانا : « لو أني تمكنت من لقائه لتطرقت معه الى هذا الموضوع او ذاك » .؟

جواب : أجل ، وخاصة الحديث عن افريقيا . وقد سبق له في هذا الصدد أن القى خطابا ممتازاً خلال حفل عشاء اقيم بالايليزيه بمناسبة زيارتي الرسمية . واتذكر ، أني زرت مدينة « بوردو » في اليوم السابق لذلك ، رفقة وزير الدولة في الحكومة الذي كلفه الجنرال دوغول بمرافقتي حيث كانت كلية الحقوق ترغب في منحي دكتوراه فخرية . ولدى عودتنا بالطائرة إلى باريس لحضور مأدبة العشاء ، قدم إلي الوزير - سيرا على العادة المتبعة في فرنسا - نص الخطاب الذي كان سيلقيه الجنرال دوغول بالمناسبة ، وقال لي : « هذا هو نص الخطاب ،وبامكانكم أن تقترحوا تغيير ما ترونه منه ان شئتم » .إلا أنني لم اقترح أي تغيير . وقـــد قال لي الوزير : « إنني أعتقد أن الجنرال لن يقرأ الخطاب كما هو » .

وعندما كنا بالايليزيه سلمت نسخة من خطاب الجنرال دوغول الى ابن عمي مولاي علي قائلا له : « ضعها على ركبتيك وحاول أن تتابع معه » . لقد أبان دوغول عن ذاكرة قوية ، حيث كان يتوقف عند النقط ، ويراعي كل فاصلة ، ويعطي الانطباع بأنه يبحث عن العبارات .لقد كان خطابا من ثلاث صفحات كتب بأسلوب بديع وألقي بطريقة بليغة . وعقب ذلك قمت وارتجلت خطاباً حرصت على أن يكون خطابا سليما ما أمكن . وبعد العشاء ، انحنى علي الجنرال دوغول وهمس في أذني : « ليس من السهل التحدث قبلكم يا صاحب الجلالة » فأجبته : « ان الارتجال اصعب بعدكم ياحضرة الجنرال » . وتبادلنا النظرات وصافحني وكأنما قال كل منا للآخر « احسنتم التعبير والرد » .

وخلال مأدبة العشاء، هاته حلل الجنرال دوغول في خطابه، تحليلا «جيوسياسيا»، العلاقات بين فرنسا واسبانيا والمغرب. وأشار إلى أن البلدان الثلاثة محظوظة لوجودها على ضفتي المحيط الأطلسي والبحر الابيض المتوسط. وقلت في خطابي ردًا عليه: «سأحاول الاستفادة من مضمون خطابكم، ونصائحكم، وسأتوقف بمدريد وأنا في طريق العودة إلى بلدي». وبالفعل توقفت في طريق العودة بمطار مدريد حيث وجدت في انتظاري الجنرال فرانكو، وتحدثنا معا لمدة أربع ساعات.

سؤال: كيف كان فرانكو؟

جواب: لبقا للغاية كعادته، ولكنه متصلب.

سؤال: متى عادت العلاقات بين فرنسا والمغرب الى طبيعتها؟

جواب: بعد وفاة الجنرال دوغول ومجيء «بومبيدو».

سؤال: هل سبق ان التقيتم بهذا الأخير قبل توليه الرئاسة؟

جواب: بالفعل، الا أن اول لقائي به خلّف لدي انطباعاً سيئاً للغاية. وكان هذا اللقاء ايضا بطلب من الجنرال دوغول عندما كان بومبيدو مديرا لديوانه. وتم اللقاء بمنزل كارمين تيسيي والوالي دوبوا الكائن بزنقة اكاسيسا، وذلك في وقت كان فيه الاهتمام منصبا على السبل الكفيلة بوضع حد لحرب الجزائر. حين كان الجنرال دوغول قد بدأ يجمع أكبر عدد من المؤيدين لموقفه.

وقد وجدت بومبيدو رجلا عنيدا انهى حديثه معي بقوله: «أيها الامير، إن حرب الجزائر بالنسبة لنا يمكنها أن تستمر طويلا، فهي مفيدة جداً لصناعتنا، فلم يسبق أن صنعنا من المعدات الحربية اكثر مما نصنعه الان، كما أن معامل النسيج تشتغل ليل نهار لتوفير الالبسة العسكرية، والمختبرات الصيدلية التي توفر للجرحى الادوية والضمادات تعرف هي الأخرى ازدهاراً، إن هذه الوضعية يمكنها أن تستمر».

ولقد صدمت كثيراً لهذه التصريحات، واحسست أنه لا فائدة من مواصلة الحديث معه.

سؤال: متى التقيتم به ثاني مرة؟

جواب: عندما ذهبت للترحم على قبر الجنرال دوغول بكولومبي فدعاني الى عشاء خاص بقصر الايليزيه. وكان صديقي القديم شابان ديلماس يتقلد أنذاك منصب الوزير الاول، فتوجهنا معا الى فيلا كان يملكها بضواحي باريس، حيث تناولنا وجبة الغداء، وتحدثنا حول مختلف القضايا. وفي المساء، لقيت بومبيدو بقصر الايليزيه لثاني مرة في حياتي. وفي هذه المناسبة اكتشفت وجهه الآخر. لقد كان مثقفا ولطيفا وذا حديث شيّق. كان زاخرا بالذكريات يفيض حكما وامثالا. حقاً، إن الوظيفة تغير الانسان.

سؤال: هل بحثتما مستقبل العلاقات الفرنسية المغربية؟

جواب: نعم، وقد افصح لي عن رغبته في وضع هذه العلاقات في الطريق الصحيح. ثم التفت الى شابان ديلماس الذي كان بجانبنا واضاف: «وعلى اية حال، لن نجد صعوبة في اعطاء انطلاقة جديدة للأمور، لأن وزيري الأول هو أحد اقدم اصدقائكم». وبالفعل كنت قد تعرفت على «شابان» سنة 1945 خلال اول زيارة قام بها والدي الى فرنسا بعد التحرير. وسافرنا على متن السفينة الطرادة «لاغلوار» التي رست بميناء «بوردو».

سؤال: ولكن اعطاء انطلاقة جديدة للعلاقات الفرنسية المغربية تعني ايضا ايجاد تسوية للمشكل المترتب عن دور أوفقير في قضية ابن بركة؟.

جواب: لم يكن ذلك يمثل مشكلا. لانه لم يصدر الى اليوم اي قرار قضائي. ولا أي دليل اثبات. سواء بادانته أو تبرئته. الا أن هناك واقعة بدت لي غريبة بعض الشيء: ففي 31 يوليو (تموز) 1972 حضرت بباريس حفل عشاء مع الرئيس بومبيدو الذي كان قد عاد من زيارة لالمانيا. وبعد أيام. وكنت لا أزال بباريس مقيما «بفندق كريون» . اتصل بي الرئيس الفرنسي هاتفيا وقال لي: «أود لو تخصون الوزير الأول بيير ميسمير بمقابلتكم. فهل تسمحون بذلك؟» وأجبته: «الأفضل أن يتناول الغداء معي».

وقال لي بيير ميسمير لدى استقبالي له: «إن لي خبرا سارا اود أن أزفه إليكم. اننا عثرنا في الأرشيف على مرسوم يخول رئيس الجمهورية الفرنسية إصدار العفو عن كل شخص. وإن كان غير فرنسي. يكون قد قدم لبلادنا خدمات جليلة». وسألته باستغراب: «وفيم يهمني هذا؟». فأجاب إن الأمر يتعلق «بأوفقير». فقد سبق له أن قدم خدمات جليلة في صفوف الجيش الفرنسي فهو الذي كان يحمل العلم الفرنسي عندما دخلت قواتنا روما ولذا فإني سعيد لأن أخبركم بأننا ....».

سؤال: وماذا كان رد فعلكم؟

جواب: أجبته: «إذا ارتأيتم العفو عنه. فذلك سيريح الجميع». وماذا تنتظرون أن يكون ردي؟ ومما أثار استغرابي هو قيام أوفقير بعد ثلاثة أسابيع بإصدار أوامره لاسقاط الطائرة التي كانت تقلني. الشيء الذي سبب لي العديد من المشاكل فيما بعد.

سؤال: وجعلكم تطرحون العديد من التساؤلات.

جواب: أجل.

سؤال: هل بقيت العلاقات بين المغرب وفرنسا في حالة ركود تام طوال عهد دوغول؟

جواب: تماما.

سؤال: ألم تستقبلوا طوال تلك الفترة ولو بصفة شبه رسمية مسؤولين فرنسيين؟

جواب: أبدا. فذلك أمر ما كنت لأسمح به لنفسي ولا ليسمح به الجنرال دوغول. فبالنسبة له لم يكن يلجأ إلا للقناة الرسمية أو السرية وشريطة موافقته على ذلك.

سؤال: كيف عشتم سياسيا واقتصاديا تلك الفترة؟

جواب: إلى حدود 1968. لم يكن لأي من البلدين سفير لدى الأخر. وبعد ذلك لم يعد المغرب يتلقى المساعدة المالية من فرنسا. والتي كانت تمنح بمقتضى اتفاق من البنك المركزي الفرنسي إلى نظيره المغربي. وكان الأمر يتعلق آنذاك بدعم مهم للغاية. وعلى سبيل المقارنة فإن فرنسا تركت للدولة الجزائرية بعد انسحابها من الجزائر ثلاثمائة مليار فرنك فرنسي.

ومع ذلك فقد مكنتنا هذه الوضعية من بلورة ردود فعل مناسبة. فعندما اردنا بناء أول سد، نشرنا طلب عروض دولية، وتقدمت شركتان فرنسيتان بعرض أقل تكلفة، بينما احتلت شركة ألمانية المركز الثالث بعرض

تفوق قيمته العرض الفرنسي بحوالي مليارين من السنتيمات.

وقد عقدت مجلسا للوزراء، وخاطبتهم بقولي: «هل تريدون أيها السادة شراء استقلالكم الاقتصادي؟ إن ذلك سيكلفكم مليارين من السنتيمات، فالعروض الفرنسية هي التي تتضمن أقل تكلفة. وأعتقد أن الأمر يتطلب منكم التفكير مليا». فرد الوزراء بالاجماع: «لا ينبغي إنجاز هذا المشروع من قبل شركات فرنسية». فكان ذلك، في رأيي، من الانعكاسات الايجابية لتلك الوضعية التي كانت عليها العلاقات الفرنسية المغربية.

سؤال: هل كنتم تعتقدون أن تلك القطيعة ستطول؟

جواب :الواقع أننا قمنا بما يطلق عليه أطباء أمراض القلب، الدورة الدموية الجانبية. ففي هذه الطريقة التي تستعمل لنقل الدم للمصابين بالسداد يتم تقريبا تعويض الوريد الرئيسي المسدود بالاوردة الثانوية في تيسير جريان الدم. وهذا بالضبط ما قمنا به بالنسبة للتعاون الفرنسي المغربي. فقد أولى كل طرف اهتماما بهذا التعاون حتى لا تنفصم عراه في الميدان التقني، وفي مجالي التربية والتجهيز. فبالرغم من أننا لم نصرح بها فإن هذه الروابط الجانبية كانت فعالة للغاية.

الفصل العاشر

القذافي والبوليساريو

سؤال : ألم تساعد كل هذه السنوات المطبوعة بعلاقات متوترة ومحدودة بين المغرب وفرنسا على ممارسة الجزائر لتأثير أكبر لدى باريس؟

جواب : أبدا . وعلى أية حال . فإن ما لحق بالعلاقات المغربية الفرنسية أنذاك . كان أمرا لا محيد عنه . والواقع أن الجنرال دوغول يعد المؤسس الحقيقي للنموذج الجزائري . فقد كان حريصا على أن تكون الجزائر - المستقلة حديثا بدعم منه - مثالا للرخاء والابداع في مجال التسيير . كما كان يسعى الى اظهار نوع من الرضى الأبوي عليها . ومما لا شك فيه . أن الجنرال دوغول . رجح كفة الجزائر . ومع ذلك فان السيد بيناي كان يردد بأعلى صوته على مر السنين : « إني سعيد . لأنه لم تكن لنا مشاكل مع المغرب الذي لم يسبق أن خيب ظن بلادي فيه » .

سؤال : هل راودكم شعور بالغبن؟

جواب :لا . وبالمناسبة سأخبركم بفكرة راودتني مؤخرا . فقد تساءلت ألم يقم الجنرال دوغول - وهو الرجل المثالي والفرنسي الأصيل - بتقديم هدية مسمومة للجزائر . من خلال عدم فرضه تنظيم انتخابات حرة . قبل انسحاب القوات الفرنسية؟ بل ألم يكن ترك الجزائر تعتنق نظام الحزب الوحيد وتدور في فلك « موسكو » و« كوبا » مما يدخل ضمن نظرة واستراتيجية هذا الرجل الذي اعتاد التفكير على المدى البعيد؟ فربما كانت الوضعية الحالية للجزائر أمنية لدوغول تحققت بعد وفاته .

سؤال : هل يعزى ذلك في نظركم . إلى كون النموذج الذي اختاره المسؤولون الجزائريون لا يمكن أن يؤدي إلا الى هذه النتيجة المأساوية؟

جواب :عليكم أن تعلموا أن الكونفدرالية العامة للشغل بفرنسا حاولت التغلغل بشتى الوسائل في صفوف النقابات المغربية . ولكن دون جدوى . وعلى العكس من ذلك . فقد كان يسمح للمواطنين الجزائريين بالانخراط في الأحزاب السياسية الفرنسية . فكنا نجدهم في الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والكونفدرالية العامة للشغل . كما كانت لهم مدارس سياسية من الأهمية بمكان كمدرسة « مصالي الحاج » . التي كان ينتمي إليها الرئيس الراحل بوضياف . فالأمر كان يتعلق إذن بأناس مسيّسين ومؤهلين تماما لممارسة الديمقراطية .

وبالرجوع إلى التاريخ . يظهر أنه ليس هناك إلا نوعان من المشروعية : إما الملكية الدستورية الوراثية المقبولة من طرف الجميع . وإما الديمقراطية الأكثر وضوحا وشفافية . وبما أن الجزائريين لم يكونوا متوفرين على النوع الأول فإنهم لم يكونوا ليرفضوا تنظيم انتخابات حرة لو أن دوغول طلب منهم ذلك كشرط لانسحاب القوات الفرنسية من الجزائر .

لقد فكرت في هذه الفرضية . وأود بإلحاح . أن تنشروها في كتابكم . وحتى لو اعتبر بعض مؤيدي دوغول أنني أسأت إلى ذكرى الجنرال : فعليهم أن يعلموا أنه . كما عرفته . كان سيحظى بالسعادة بأن وجد من يفكر بدله في « هذا السيناريو » .

سؤال : هل كان يقلقكم تنامي قوة الجزائر في اواسط السبعينيات؟

جواب :بكل صراحة .لا . ولو طرحتم هذا السؤال على المغاربة من كل الفئات الاجتماعية والاتجاهات السياسية . فسيكون جوابهم أن الشخص الذي كان اكثر هدوءاً ازاء ما كان يجري في الجزائر . هو جلالة الملك . ومع ذلك فإن

المغاربة أصبحوا منذ أحداث 1963 حذرين للغاية من جارهم.

سؤال: ألم تكونوا قلقين من الموارد الهامة التي كان يدرها عليهم البترول؟

جواب: إن ما جعلني أطمئن هو طريقة استعمالهم لتلك الموارد.

سؤال: لماذا؟

جواب: لأنهم في الوقت الذي كانوا يستغلون فيه البترول، كنت أنا أشيد السدود. وأعرف أن المسؤولين الجزائريين كانوا يتهامسون عني آنذاك بسخرية ويقولون: «إنه يغرس الطماطم في الوقت الذي نحفر فيه نحن آبار البترول» وكنت لا أبالي بقولهم وأقول في قرارة نفسي: «أتمنى لكم حظا سعيدا يوم سيكون عليكم اكل لحم مصنوع من البترول». وها هي الأحداث شاهدة على ما أقول، والتاريخ - والحمد لله - ليس كتلك السيدة التي تحتاج إلى تجميل لتبدو أكثر جمالا. فالتاريخ يبقى دوما هو التاريخ، وهو يظهر كما يجب ومتى يجب وأين يجب.

سؤال: متى بدأتم تعتقدون أن الاختيارات الاقتصادية للجزائر قد تؤدي إلى الطريق المسدود؟ وما هي الدروس التي استخلصتم من ذلك بالنسبة للمغرب؟

جواب: كان ذلك بعد السنة الثالثة أو الرابعة من اعتلائي العرش. وقد خلصت إلى استنتاج لا جدال فيه، وهو أن الدولة لا تحسن المعاملات التجارية، أولا لأنها لا تعرف كيف تبيع وتشتري، وثانيا لأن لها مهام اخرى. ومنذ ذلك الحين أصبحت من أنصار المبادرة الخاصة، شأني في ذلك شأن ذلك البحّار الذي يتمسك بصاري السفينة وهو يخوض الأخطار ويجابه العاصفة. إلا أن الأمر لم يكن يتعلق بموقف متطرف. ذلك أنني أعتبر أن الليبرالية العمياء - مثلها مثل سياسة الاقتصاد الموجه بصرامة - تعد قاتلة. وقد أكدت الأحداث التي شهدتها لوس انجلس مؤخرا أنه يتعين على المسؤولين الأمريكيين اعتماد تدخل الدولة، بعض الشيء، في سياستهم الاقتصادية.

فمنذ 1964 إذن، وأنا أعرف أن الدولة برهنت على أنها تاجر فاشل. إلا أن كل مشكلتي كانت تكمن في كيفية النجاح في اعتماد الليبرالية، إذ لم يكن هناك ادخار وطني. وكنا نجد في مختلف جهات المملكة بعض العائلات الغنية. إلا أن ثرواتها لم تكن تمثل حتى عشر الثروات التي كانت تملكها بعض العائلات الاوروبية، ولتأسيس نظام ليبرالي يتعين امتلاك ثروة وطنية مرتكزة على الادخار، ولم يكن أحد آنذاك بقادر على ذلك، وبالتالي فكان لا بد من الارتجال والعيش دون تخطيط. وفي مثل هذه الحالة تكون «البرغماتية» أحيانا سبيلا للخلاص.

سؤال: ماذا كان رأيكم في قيام فرنسا على مر السنين باستثمار مكثف في الجزائر التي كانت اختياراتها نقيض اختياراتكم؟

جواب: بكل صراحة، قلت في نفسي، ربما كان الأمر يتعلق بتسوية حسابات قديمة، واعتقدت أن الفرنسيين - دون أن يعبروا عن ذلك صراحة، وقد يرجع هذا إلى لا شعورهم أو لأنانيتهم العليا - كانوا يعتبرون والدي أول من اشعل الفتيل الذي فجر فيما بعد كيان الامبراطورية الفرنسية. وهكذا، ففي رأيي كان الأمر يتعلق بضغينة باطنية لم يتحمل أصحابها حتى عناء تحليلها. ذلك بالضبط ما كان يدور بخلدي.

سؤال: هل تحدثتم عن ذلك مع بعض المسؤولين الفرنسيين؟

جواب : لا . لأنني انطلق من مبدأ هو أن المرء يضعف باستمرار كلما حاول مقارنة نفسه بالآخرين والاحتجاج بقوله : لماذا منحتم ذاك ولم تمنحوني أنا؟ وعلى العكس فقد تباحثت مع أصدقاء فرنسيين حينما كانوا خارج الحكومة وكانوا يرون دائما أني على صواب.

سؤال : ماذا يمكنكم أن تقولوا للفرنسيين الذين اكتشفوا اليوم فشل النموذج الجزائري؟

جواب :أقول لهم : « إن ذلك كلفكم غاليا . لكن ذلك كان يستحق المحاولة » .

سؤال : متى علمتم بأن جبهة التحرير الوطني كانت تتدخل في شؤون المغرب وتساند المعارضة المغربية؟

جواب :كان ذلك بعد أحداث 1963 وقد استمر إلى غاية 1973 . وتساءل العديد من الناس عن سبب عدم مصادقتي سنة 1973 على اتفاقية حول الحدود المغربية الجزائرية بالرغم من أنني اعترفت بها ووقعها وزيرا الشؤون الخارجية للبلدين سنة 1972 . إن سبب ذلك يجهله حتى أولئك الذين كانوا مطلعين على أسرار بومدين.

ففي ثالث مارس (آذار) سنة 1973 . أي في يوم عيد العرش . وقد كنت بفاس . تسربت الى حدودنا من الجزائر مجموعة مسلحة من المعارضين المغاربة داخل التراب المغربي . تم نقلها على متن سيارات رسمية تابعة لوزارة الاشغال العمومية الجزائرية . ومن هناك التحقت بجبال الأطلس المتوسط . وقد استغرقت عملية مطاردة عناصر المجموعة والقبض على أفرادها ثلاثة اسابيع استعملنا خلالها قوات الجيش والدرك المدعومة بطائرات مروحية . وكان يتولى آنذاك . منصب وزير الأشغال العمومية بالجزائر مسؤول جزائري وهو صهر مواطن مغربي يدعى « العراقي » كان يدعي بأنه لاجئ سياسي بفرنسا . وقد أقسم لي بومدين بعد ذلك على أنه لم يكن يعلم شيئا عن هذه القضية . إلا أنني استغرب كيف تم استعمال سيارات تابعة لوزارة جزائرية في نقل أشخاص مسلحين وتسهيل عبورهم للحدود .

سؤال : لماذا قمتم سنة 1963 بعد اشتباكات الحدود بسحب قواتكم من مناطق كنتم تسيطرون عليها؟ وهل تفاوضتم في السر - كما قيل - مع المسؤولين الجزائريين حول اتفاق لتفادي أي تدخل في الشؤون الداخلية للمغرب؟

جواب : لقد كان بيسمارك - كما تعلمون - بارعا في التعبير عن ذلك حين قال : « ان واحدة من بين معطيات التاريخ تبقى ثابتة هي الجغرافيا » .

فليس بإمكاني تغيير موقع كل من المغرب أو الجزائر .ويجب أن يتذكر المغاربة والجزائريون دائما أنهم لن يقدروا على تغيير موقع بلديهم.

وإضافة إلى ذلك فليس من مصلحتي أن أترك مكتبي يعج بالملفات والمشاكل. وإذا كان البعض في أنظمة أخرى يسعدهم ترك المشاكل والملفات لمن سيخلفهم . فإن ذلك يعتبر بالنسبة لي جريمة في حق ابني . وعليه فإني أحاول تسوية أكبر قدر ممكن منها .

سؤال : كيف ترون مكانة الجزائر في المغرب العربي؟

جواب : إنها حالة خاصة. لقد أرادت تشييد المغرب العربي على منوالها . وقد كانت البلد الوحيد في المغرب العربي الذي اختار نظام الاقتصاد الموجه . بينما اعتمد النظامان المغربي والتونسي نهج الاقتصاد شبه الليبرالي.

وفي مثل هذه المسائل، فإن الأنظمة التي تكون لها الغلبة هي الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية وليس الارادات السياسية. وعليه فإنه بالرغم من العهود التي قطعناها على أنفسنا بالإخلاص للمغرب العربي، فإن تلك الاختلافات كانت تحول دون قيام وحدة حقيقية. وهذا هو السبب الذي يجعلني أصف الجزائر بأنها حالة خاصة.

وبالاضافة إلى كون «ايديولوجية» الجزائر متعارضة تماما مع «ايديولوجيتنا»، فإن التراب الجزائري شاسع، مما يجعل الاتصالات أمرا صعبا. ومع ذلك فإني اعتقدت دائما أنه ليست لي أية مصلحة في أن يصاب جيراني بالحمى، كما أنه ليس من مصلحتهم أن يصاب المغرب بمرض.

سؤال: على ذكر الاصابة بالحمى، كيف تقبلتم الاطاحة بالنظام الملكي في ليبيا سنة 1969؟

جواب: لم يدهشني ولم يفاجئني. ويمكن القول إنه كان أمرا لا مفر منه، ذلك أن الملك ادريس، وإن كان رجلا مستقيما وشريفا، إلا أنه لم يكن يهتم بتاتا بالشؤون الدنيوية. قد كان يقضي أيامه في التعبد، وهو ما أقدره كثيرا. والواقع أنه عاش مأساة حقيقية، وهو ما يفسر في نفس الوقت سلوكه و مزاجه، ذلك أن ابنه الوحيد قتل على يد افراد عائلته. كما أنه بالرغم من زواجه المتكرر لم يمن عليه الله بولد آخر، مما جعله يشعر بأن ذريته ستنمحي الى الابد، ويعطي الانطباع بانه انما يعتلي العرش لانه لم يكن له اختيار اخر. وبالاضافة الى ذلك، فانه كان يقوم بتغيير وزيره الاول كل ستة أو سبعة أشهر. وبايجاز فاني لا اقول انه قام بكل شيء للتخلي عن العرش، بل أقول إنه لم يقم باي شيء من اجل الحفاظ عليه.

سؤال: كيف كان اول لقاء لكم مع القذافي؟

جواب: بعد فترة قصيرة من توليه السلطة، جاء الى المغرب للمشاركة في مؤتمر للقمة انعقد بالرباط، واكتفينا بالتصافح. الا أن الأمور بدأت تتوتر منذ اليوم الاول، ولاحظت الى اي حد كان غير متحكم في اعصابه وقليل الخبرة. فخلال تلاوة التوصيات، على سبيل المثال، كان يكفي أن اقترح تعويض كلمة باخرى تبدو لي اكثر ملاءمة لينهض معارضا في الحال. وبذلك كانت الايام الثلاثة التي استغرقتها القمة بمثابة حرب مفتوحة بيننا. فالقذافي كان يعتبر كل من يعتلي عرشا، خائنا بالضرورة، وكان يهدف من وراء حضوره تلك القمة مضايقة العاهل السعودي الملك فيصل ومناهضته الى حد الاهانة.

وقد جرت الجلسات في جو مشحون بالتوتر، حيث كان القذافي يضاعف من تلميحاته المزعجة، بينما كان الملك فيصل، الذي كان رزينا وهادئا لا يرد بشيء ولا يأبه بما يوجه له. وكان الرئيس عبد الناصر جالسا بين الاثنين. وتلك هي المرة الاخيرة التي رأيته فيها، حيث توفي في اقل من سنة بعد ذلك. وكان يبدو خلال القمة منهكا ومريضا، اذ كان يعاني من مشاكل صحية ناتجة عن مرض السكري واضطرابات في الأوردة.

وكان يبدو خلال المؤتمر كالليث الذي لا يطمح الا الى أن يخلد للسكون والسلم. وكان يجلس الى جانب القذافي - الذي كان يعتبر الرئيس المصري مثله الاعلى - لمحاولة تهدئته، ثم يلتقي بعد ذلك بالملك فيصل.

ان القارئ قد يفاجأ لما سأقوله. فقد كانت بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل صداقة متينة توثقت على مر السنين. فعندما وصل عبد الناصر الى السلطة كان الملك فيصل يتولى في بلاده منصب وزير الشؤون الخارجية. وكان الرئيس المصري يتحول الى انسان جذاب كلما اراد ذلك، بينما كان الملك فيصل لطيفا جداً ولبقا للغاية.

وكان حتى قبل اعتلائه العرش يزور مصر كثيرا، فكانا يقضيان معا اياما بكاملها في الحديث والحوارات.

سؤال: هل بدا القذافي بعد ذلك انسانا خطيرا لا يستقر على حال وصعب المراس؟

جواب: لقد بدا انسانا يتغير وتستحيل مراقبته وضبطه. وإلى حدود بداية الثمانينيات، كان يبدو مزعجا للغاية. وبالرغم من كل ذلك، فانه يتصف بخصلة حميدة، وهي الوفاء بالوعد عند تعهده الالتزام بشيء.

سؤال: كم مرة حاول الاطاحة بنظامكم؟

جواب: لا علم لي بعدد المرات التي حاول فيها ذلك بطريقة مباشرة او غير مباشرة .ولنقل مرات عديدة. اما من جهتي، فقد كانت محاولاتي أقل. وعلى اية حال... فاننا لم نصل الى مبتغانا، وهو ما جعلنا ننحو منحى اخر. وانا سعيد جدا لذلك.

سؤال: هل كادت احدى محاولاتكم ان تزعزع نظامه؟

جواب: هل تلحون عليَّ أن نخوض في ذلك؟ لقد اخبرتكم بما هو مهم. واعتقد ان التاريخ يحتاج الى حد ادنى من الاحتراس والتحفظ.

سؤال: سنتطرق فيما بعد الى قضية الصحراء، الا أني اود ان اطرح عليكم السؤال التالي: من لعب الدور الاساسي في ميلاد وظهور جبهة البوليساريو، هل هو بومدين ام القذافي؟

جواب: فيما يخص ميلاد البوليساريو، فلا شك ان القذافي كان وراءه. وكانت هناك مراسلات فيما بيننا كان يردد فيها باستمرار: «يجب إلقاء المحتل خارج حدود المغرب، ينبغي خوض حرب ضد الإسبان». فقد كان غالبا ما يوجه الي رسائل من هذا القبيل .كان احد مؤسسي البوليساريو يدعى الولي. وكان يتابع دراسته بكلية الحقوق بالرباط وينتمي الى حزب التقدم والاشتراكية وهو الحزب الشيوعي المغربي السابق. وقد تم طرده من هذا الحزب - لميولاته «التروتسكوية» - من طرف علي يعتة رئيس الحزب. الذي يمكنكم أن تسألوه في هذا الشأن. وتوجه الولي بعد ذلك الى طرابلس، حيث التقى بالقذافي الذي قال له: «اني على استعداد لمساعدتك، لكن ينبغي ان يسمح الجزائريون بمرور الاسلحة التي سأبعثها اليك». وهكذا كان الرئيس الليبي هو أول من أمد البوليساريو بالاسلحة.

سؤال: كيف تم التعاون بين بومدين والقذافي بخصوص دعم البوليساريو؟

جواب: لا يمكن الحديث هنا عن تعاون، لان الامر كان يتعلق باتفاق صريح. لقد كان بومدين يقول «أنا على استعداد لمساعدة البوليساريو شريطة ان تصلني الاسلحة الموجهة اليه واقوم انا بعد ذلك بتسليمها له» وكان على حق لانه كان مستحيلا، كما كان من الخطر نقل تلك الاسلحة بحرية.

سؤال: هل حاولتم خلال تلك السنوات من التوتر الحفاظ على العلاقات مع القذافي؟

جواب: كان كل منا يتجاهل الاخر. ونفس الشيء كان مع بومدين. واعتقد انني لم اكن وراء القطيعة أو سببا فيها.

سؤال: ولكن ما الذي جعل القذافي يحقد عليكم بهذا الشكل؟

جواب: ان ذلك يعود اساسا الى كونه لم يغفر لي عدم السماح له بالمشاركة في المسيرة الخضراء التي نظمتها

سنة 1975.

سؤال: وهل طلب منكم ذلك؟

جواب: نعم، فقد وجه لي سنة 1975. عندما كنت بصدد وضع اللمسات الاخيرة لانطلاق المسيرة . برقية رسمية يقول فيها: «بصفتي ثوريا، فإني اساندكم ألفاً في المائة، واني اريد القدوم الى المغرب على رأس وفد ليبي للتصدي للاستعمار، عدونا المشترك»، ولم يتوصل مني بتاتا بأي جواب، وقد التقينا بعد تسع سنوات من ذلك، في 13 اغسطس (آب) 1984 بوجدة. وبالرغم من أنه كان يتحدث معي بلطف وبكثير من اللباقة، فإنني كنت اشعر أن عدم الرد على برقيته مازال يحز في نفسه. وأسَرّإليّ: «لم اتمكن من فهم رفضكم واعتبرت....» فقلت له: «اسمع ياصديقي العزيز، اود أن اطرح عليكم السؤال التالي وأن تجيبوني عنه بصراحة: لو كنتم قد شاركتم في المسيرة، فهل كنتم ستتفقون معي عندما اصدرت الأمر الى الثلاثمائة والخمسين الف مشارك بالرجوع؟». وردّ في الحال: «لا، ما كنت لأتراجع» فقلت له: «في هذه الحالة كان من الاحسن أن لا تشاركوا في المسيرة الخضراء، لاني كنت سأضطر الى اقتيادكم الى الحدود بواسطة دركيين. وذلك ما كان سيسبب حادثا دبلوماسيا مروعا».

سؤال: لماذا قمتم بالرغم من ذلك بابرام معاهدة للاتحاد بين بلديكما؟

جواب: كان ابنائي يتعرضون آنذاك لقصف مدفعين: احدهما جزائري، والثاني ليبي. وكان من أوجب واجباتي اسكاتهما. فبتوقيع هذه المعاهدة تمكنت من جعل القذافي محايدا، وحصلت على التزامه لي بعدم الاستمرار في تقديم أدنى مساعدة لاعدائي وللبوليساريو. وقد قال لي العديد من المسؤولين آنذاك: «لقد اوقع بكم». وكنت أرد عليهم: «اذا كان الامر كما تصورتم فستكون غلطتي، ولكن عليكم بالتريث قليلا قبل الحكم علي بالاخفاق». وقد تأكد لديهم فيما بعد وفاء القذافي بوعده. وكان الامريكيون بالخصوص هم الذين آخذوني كثيرا على ذلك، لكني قلت لهم: «اسمعوا، إن الاطفال الذين يقتلون في بلدي ليسوا ابناء ولاية ويومينغ او كونيكتيكوت، انهم مغاربة». وكان بوش نائب الرئيس الأمريكي من بين الامريكيين الذين أخذ منهم القلق مأخذه، ولا يمكنكم ان تتصوروا الى أي حد كان ذلك، لقد كنت اعرفه منذ ان كان مديرا لوكالة المخابرات الامريكية، و التقيت به كثيرا. وكان في نفس الوقت مثال الشخصية المهذبة العاطفية، حيث كان ينظر الى هذا المشكل من زاوية سياسية محضة. وقد قال لمستشاري السيد كديرة عندما استقبله في سنة 1985: «أبلغوا صاحب الجلالة انني لم افهم موقفه ويصعب علي ان أرى انسانا يحظى بثقافة عالية واسعة، ووفاء صادق، يثق برجل كالقذافي». انه لم يكن يقبل أن أظهر نوعا من «الشيزوفرينيا» التي كانت تتمثل في تعامل اشخاص يتحلون بالاستقامة مع اشخاص اقل جدية».

سؤال: هل تباحثتم معه؟

جواب: نعم، خلال زيارتي «لواشنطن» وكان اقل قلقا وشرح لي اسباب قلقه.

سؤال: متى فكرتم في ابرام هذه المعاهدة مع القذافي؟

جواب: في سنة 1984 بالدارالبيضاء حيث وجه لي مبعوثا... وكان من حين لاخر يحب القيام بهذه المبادرات. وفيما كنت اقرأ الصفحات الثلاث من الرسالة قراءة سريعة كان المبعوث الليبي يقوم بالتعليق عليها. وتطرق

القذافي في الرسالة، بالخصوص، الى تقاعس الدول العربية عن مناهضة اسرائيل التي قال عنها إنها كانت بصدد الاعداد لمخططات جديدة. وباختصار فلم تكن تلك الرسالة تحمل اي جديد. وبعد لحظة التفت الى ضيفي الليبي وخاطبته قائلا: «السيد الوزير لا يمكنني إلزام جميع العرب بأن تكون لهم نفس افكارالعقيد القذافي، ولكن أبلغوه أن ما يمكنني منحه إياه هو التعاون الاكثر عمقا، إذ هو المناضل من اجل الوحدة العربية فلم لا نتحد؟».

وأذكر أن المبعوث الليبي بقي مندهشا بعض الوقت من جوابي هذا قبل ان يتوجه لي بالسؤال: «يخيل لي اني لم اسمع جيدا» فأومأت له برأسي: «أجل. لقد استوعبتم ما اعني» واضاف: «اسمحوا لي بموافاتكم بالرد غدا، ذلك أني افضل الا اعود فورا الى العقيد القذافي لعدم تأكدي من أني أولت كلامكم التأويل الصحيح». إنه لم يكن يصدق اذنيه. مما جعله يصرح فور خروجه من مجلسي لكل الذين حضروا المقابلة: «سأحاول أن ارسم لكم مخططا للقاعة حتى أبين لكم بشكل واضح اين كنت اجلس والمكان الذي كنتم تجلسون فيه والمكان الذي كان يوجد فيه الملك». وقد اصبح المبعوث الليبي، فيما بعد، أول سفير لبلاده بالمغرب ولا يزال.

وفي الغد عاد ليتلو علي تقريرا دوّن فيه تصريحاتي ثم سألني: «أهذا حقا ما قلتموه لي!؟» فأجبته: «بالضبط».

واستأذنني في استعمال الهاتف. ولما سمع القذافي مبعوثه وهو يخبره بالمقترح قال مندهشا «ماذا!؟ أول من يتجاوب مع شعوري الوحدوي ملك؟ بينما ظل العديد من الرؤساء، لا مبالين». وقمنا باعداد المعاهدة. وأسوق هنا حادثاً طريفاً وهو أن وزير المالية الليبي الذي جاء لمناقشة المعاهدة في شكلها النهائي، كان أستاذه في القانون الدستوري والقانون الاداري هو استاذي السيد «لوبادير» الذي ينتمي لجيل العميد «فيديل». إذ كان أبرز أساتذة القانون العام في جيله.

سؤال: ومع ذلك كان من الطبيعي الا تعطوا لهذا الاتحاد نفس الدلالة التي يعطيها له العقيد القذافي؟

جواب: لا. لقد كان يريد الاتجاه نحو اندماج أوسع ولكنه لم يكن يدافع بتاتاً عن شعور قومي ضيق او موقف هيمني. إذ كان بمستطاع المغاربة الحصول على رئاسة جميع هيئات الاتحاد. وكان ذلك لايعنيه. بل لقد أسرإليَّ: «ليس لدينا الكثير من الاطر، أما انتم فلديكم الكثير». وقال إن الحافز له على كل هذا هو ما كان ينشده من قيام أمة عربية واحدة. وعلى كل حال فقد كان ذلك إيمانه دائما.

سؤال: ولكن لم تكونوا مصدقين في أية لحظة امكانية تحقيق هذا المشروع؟

جواب: يتعين قراءة النص. إذ كان يتضمن أموراً في غاية الاهمية على مستوى التعاون الثقافي والمبادلات التجارية. فمنذ سنة 1984، وهو تاريخ توقيع المعاهدة والى اليوم، حرصت على الا نقترض ولو فلسا واحدا من ليبيا. فالمغرب لم يتسلم قط ولو دولارا واحدا من طرابلس سواء على شكل قرض او على شكل هبة.

سؤال: كيف فسرتم ذلك للقذافي؟

جواب: لقد جاء في زيارة عمل للمغرب قبل حوالي ستة اشهر من التوقيع على معاهدة الاتحاد، الذي تم بتاريخ 13 اغسطس (أب) 1984. وكان ذلك خلال شهر رمضان. واثناء مباحثاتنا قلت له: «حللتم أهلا، يمكنكم اعتبار انفسكم بين ذويكم. ولذلك سأبوح لكم بحقيقة: لقد حاولتم عدة مرات الاطاحة بنظامي وحاولت لمرات عديدة

الاطاحة بنظامكم » . فبدا متفقا على ذلك. وتابعت الحدث متوجها اليه بالسؤال « ولكن في نظركم لماذا كان مسعانا يفشل في كل مرة؟ » أجابني : « لا أعرف سببا لذلك » . ثم قلت له : « لأن هناك ثلاثة آلاف كليومتر تفصل بين بلدينا . ومهما حصل فإن هذه المسافة ستظل قائمة لأن الجغرافيا لا تتغير . لقد حاولنا اذن ولمدة طويلة ربما ، أن نخلق الصعوبات لبعضنا . وبدلا من الاستمرار في محاولة زعزعة الاستقرار ببلدينا ، فإنه باستطاعتنا أن نقيم صرح التعاون بيننا . تلك على الاقل هي وجهة نظري » . فانفجر ضاحكا ثم اجابني : « أنا متفق على ذلك » . فتابعت القول : « كل من حاول الاقتراب منكم لحد الآن فإنه فعل ذلك اما خوفا من مؤامراتكم ، أو طمعا في بيترو دولاراتكم . فعليكم إذن أن تعلموا شيئين : لن أطلب منكم ابدا ولو دولارا واحدا وشبكة ارهابكم لا تزعجني » .وعندما أنهيت حديثي المسهب نظر إلى طويلا دون أن ينبس ببنت شفة . لقد جاء في زيارة لمدة أربع وعشرين ساعة لكنه مكث ثلاثة أيام . لقد سوي كل شيء ، بل لقد سجل شريط « كاسيت » لم ارد بثه ، وجه فيه نداء للبوليساريو يقول له : « أبنائي الاعزاء ، لقد كنت أول من أمدكم بالمساعدة . ولكني اعتقد انكم ترتكبون خطأ . فارجعوا الى وطنكم الأب . ولدي ضمانة بانكم لن تتعرضوا لأي سوء » .

وبعد ذلك وقعنا على المعاهدة التي بفضلها تمكنت من الحصول على السلم الى الآن .

سؤال : ما هي طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين بومدين والقذافي؟

جواب : أذكر الغضب الشديد الذي أضرم غيظ بومدين حين علم بمشروع الوحدة بين تونس وليبيا . كان ذلك في يناير (كانون الأول) سنة 1974 على عهد بورقيبة . على إثره اتصل بي هاتفيا ظهر يوم أحد . وكنت آنذاك قد ذهبت للقنص والاستجمام في ضيعتي . فلم أر قط شخصا يجيش صدره حنقا أفقده صوابه مثلما أحسست به في نبراته .

سؤال : وما هو الحكم الذي حمله في نفسه إزاء القذافي؟

جواب : لقد كان يؤكد قوله : « لقد قلت له أنه اذا كان سيستمر فسأخترق حدوده بفيالق عسكرية . إني لن اقبل أبدا ان أوضع أمام الامر الواقع . كما أني لا أقبل أن تكون ليبيا الى جانبي » .

سؤال : لا شك أن الاتحاد الذي وقعتموه مع القذافي قد جعلكم في وضعية حرجة إزاء حلفائكم الغربيين؟

جواب : كان من عادة والدي ، تغمده الله برحمته ، تناول وجبة العشاء ، كل يوم اثنين على انفراد مع الدكتور « دوبوا روكبير » الذي كان في نفس الوقت جليسه ، وطبيبه الجراح . وكان يقول له دائما ، خلال عهد الحماية : « أوضحوا لأصدقائكم الفرنسيين أنه قبل أكون صديقا لفرنسا فأنا ملك المغرب وعليهم أن يفهموا ذلك » . إن هذ العبارات ستبقى نبراسا أهتدي به ولن أحيد عن نهجه ، كما أني لم أتوقف عن ترديد القول : « إن أناسا من بلدي يموتون كل يوم بأسلحة لا تكلف الذين يستعملونها أي شيء ، بينما تكلفني الأسلحة التي أستعملها الشيء الكثير . فأنا قبل كل شيء ملك المغرب وقائد قواتي ، وعلى القائد أن يكون شديد الحرص على أرواح جنوده » . ولقد كنت أشعر بالضيق عندما أقابل بعدم الفهم . ذلك هو اقتناعي الخاص .

الفصل الحادي عشر

المؤامرة

سؤال: صاحب الجلالة هل لديكم الإحساس بأن التاريخ شيء مأساوي؟

جواب: لا. عندما نرقى إلى مستوى معين من المسؤولية. فإننا لا نعيش فقط على عبر التاريخ. بل نعيش أيضا لصنع التاريخ. هذا الجمع بين الاثنين ليس بالضرورة مأساويا. فالمصير وحده هو الذي يكون مأساويا.

سؤال: كيف يتأتى للمرء إدراك التهديدات والمخاطر؟

جواب: يتعين التوفر على حاسة سادسة أو «امتلاك» رادار. وكما يقول القساوسة القدامى: يجب تعلم قراءة ما بين السطور.

فعندما يكون المرء «حسن الطالع» حسب تعبير المنجمين، فإن الله يهبه أحيانا نورا من عنده. ويبقى على المرء أن يحسن إدراك واستغلال هذا النور الرباني. غير أن الجانب الشاق والعويص في هذه المسألة يكمن في أن المرء يجد نفسه أحيانا في وضع يتعذر عليه فيه ويستحيل معه الاهتداء بهذا النور الرباني.

سؤال: في أي وقت من الأوقات خانكم حدسكم أو حاستكم السادسة؟

جواب: في الوقت الذي تركت فيه البعض يتقلد سلطات واسعة جدا. فكما تعلمون هناك نوعان من السلطة: السلطة النابعة من مسؤوليات محددة في مجلس وزاري، أو بواسطة مذكرات ورسائل وزارية. والسلطة الفعلية القائمة على ممارسة عدد من الصلاحيات المخولة لشخص بعينه، أو لمجموعة معينة من الأشخاص. وفي اعتقادي أن حدسي خانني في الحالة الثانية.

سؤال: هل تفكرون في أوفقير؟

جواب: أجل. وفي آخرين أيضا.

سؤال: هل كانت هذه الصلاحيات المخولة بمثابة عربون ثقة؟

جواب: نعم. وربما أيضا علامة على نوع من الذاتية اللاإرادية التي تجعل المرء يعتقد أو يتمنى أن يسير الاخرون على منواله وأنهم يتحلون أيضا بروح التمييز. وهنا أعتقد أني كنت بالفعل مخطئا، وربما كنت سأصبح زبونا ممتازا لطبيب عيون.

سؤال: وفي هذه الحالة فإن المرء لا يرى شيئا؟

جواب: أجل. إن المرء ينتابه نوع من القلق، ويحس أن هناك شيئا على غير ما يرام، وأن هذه الأنوار موجودة بالتأكيد. لكن يستحيل رؤيتها. حيث يبدو المرء وكأنه يسير وسط رذاذ وضباب ليس ناجما عن البحر، ولكنه ذلك الضباب اللزج الذي يجثم فوق المدن الصناعية، والذي يسود طوق قميص الإنسان. حتى ولو لم يكن قد ارتداه سوى نصف ساعة. إذ يتعلق الأمر بكثافة يصعب معها التنفس. ويزيد من حدتها التنازع بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي. فحينا يحس المرء أن هناك شيئا ما يدبر، لكنه يدحض ذلك في قرارة نفسه ويقول: «لا إن فلانا أو فلانا لا يمكن أن تصدر عنهما هذه الخسة» إن ذلك هو ما جعلني في حيرة من أمري، أنا الذي ليس من طبعه الحذر.

سؤال: ومع ذلك فهذه ليست إطلاقا النظرة التي يكونها الغرب عنكم. إذ له نظرة مخالفة...؟

جواب: إن جميع وزرائي ومنذ 1961 إلى يومنا هذا يمكنهم أن يقولوا لكم إني لست ذا طبع حذر. فأنا لم

أكن أبدا ذلك القائد الذي يريد الإلمام بكل شاذة وفاذة. إن الأوامر والتعليمات التي أصدرها تنطلق من مبدأ أن الجميع يتحلى بنزاهة فكرية. فأنا ليس لي مزاج ضابط صف، أو حارس عام بمدرسة ثانوية سيئ الطبع. لقد حدث أن خامرتني عدة شكوك حول الاختيارات التي قمت بها، لكن الشبهات - كانت للأسف - تأتي على الدوام في وقت متأخر نسبيا.

سؤال: ألم تستشعروا أو ترتابوا في شيء أثناء المحاولتين الانقلابيتين المدبرتين ضدكم سنتي 1971 و1972؟

جواب: سأبوح لكم بشيء، لكن يتعين لفهمه أن تضعوا أنفسكم مكان المؤمنين.

عندما سافرت إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة، اخترت لرفقتي معظم الضباط الذين تورطوا فيما بعد في المحاولة الانقلابية الأولى أو الثانية. وعندما كنا داخل الحرم المكي، وهو مسجد عظيم مربع الشكل، ودون أن أطلب أي شيء، من أولئك الضباط بادروا إلى قسمهم بالوفاء لي. وبعد يومين وإثر وصولنا إلى المدينة المنورة ونحن أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم. جددوا لي قسمهم مرة أخرى. لقد فعلوا ذلك في أقدس مكانين بالنسبة للإسلام. وفي هذا السياق فإن الاستمرار في الحذر يعني فقدان الإيمان بالله.

والأمر هنا تماما بالضبط كمن يحيل ملفه على محام، لكنه يختار مراقبته للتأكد من قيامه بمهمته على أحسن وجه.

وهنا يكمن خطئي. وهو في الواقع ليس خطأ. لقد قاموا بما قاموا به لأن كل شيء كان متوفرا لديهم. لكن لو قدر أن يتكرر ذلك الشيء مرة أخرى سواء بمكة المكرمة او بالمدينة المنورة ما كنت لأغير موقفي ولقلت لمحاوري بعد: «حسبي الله ونعم الوكيل».

سؤال: أليس لكم الإحساس بأنكم تستمعون إلى نفس القول؟

جواب: كلا. فالعديد من الأشخاص المقربين لي يتجنبون الحديث أمامي عن هاتين المحاولتين المدبرتين ضدي، لكني أقول لهم: «بالعكس تحدثوا عن ذلك ما طاب لكم الحديث، لأن ذلك سيمكنكم من التوجه لله يوميا بالحمد والشكر، لان إرادته سبحانه وتعالى، وإرادته وحدها، هي التي جعلتنا ننجو من المحاولتين. لقد خرجت من هذه الأحداث بإحساس غامر: ان الله يحيطني بشيء من رعايته. وأؤكد لكم أنه من الأهمية بمكان أن يعيش المرء على الدوام في كنف هذا الإحساس، وخاصة بالنسبة للمهنة التي أمارسها.

سؤال: في سنة 1971 اقتحم 1200 من التلاميذ الضباط قصركم بالصخيرات حيث كنتم تقيمون حفل استقبال وأخذوا في إطلاق النار على المدعوين. ما هو أول رد فعل صدر عنكم آنذاك؟

جواب: كنت أشعر بالعار أمام هذه المذبحة، وبالخزي بالنسبة للوحوش الذين نفذوها.

سؤال: ومتى خامرتكم شكوك تجاه المذبوح، مدير ديوان الضباط المرافقين لكم، والذي كان أحد مدبري المحاولة الانقلابية؟

جواب: عند الشروع في إطلاق النار لم يخطر ببالي أن المذبوح يمكن أن يقوم بعمل من هذا القبيل. لقد كان رجلا يحترم المظاهر ويوليها من اهتمامه الشيء الكثير، وكان من بين المدعوين سفراء، وشخصيات أوروبية. وفي الواقع لم يكن المذبوح هو الذي أمر بإطلاق النار، ولكن عبابو المتواطئ معه هو الذي فعل ذلك بعد أن أفلت

نهائيا من مراقبة المذبوح.

سؤال: ومتى أدركتم أن المذبوح متورط في المحاولة؟

جواب: عندما شرع التلاميذ ضباط الصف في إطلاق النار، توجهت الى جانب آخر بالقصر صحبة بعض المقربين. وهناك أخذ المذبوح بيدي قائلا: «تعال معي، يجب أن أنقذكم.لذا يتعين أن نذهب لرؤية عبابو فأجبته - وهناك شهود يمكنهم تأكيد ذلك لكم - قائلا «لا، أنا لا أتفاوض مع ضابط تحت إمرتي. فابعث في طلب عبابو هذا ليأتي إلي إذا أردت، أما أنا فلن أخرج من هنا». وفي الواقع كان المذبوح يرى أن الأمور قد بلغت حد الخطر.

سؤال: ألم تعتقدوا آنذاك أنكم ربما قد تموتون؟

جواب: نعم.

سؤال: وبماذا أحسستم؟

جواب: لقد كانت موائد الطعام معدة بالمناسبة.وبدأت أسمع رنين الأواني وهي تتساقط على الأرض.وكانت من السماور والفضة. فصرخت في سخرية أمام المحيطين بي: «إن الفاتورة ستكون باهظة لأن أية شركة تأمين لا تؤمن على مخاطر الحرب». وماذا كان عساي أن أفعل سوى «تزجية الوقت» إن صح هذا التعبير، وبعد ذلك فتح جنود الباب، فتقدم واحد من التلاميذ ضباط الصف وأخذني جانبا وهو شاهر بندقيته في وجهي. وفجأة وقف وأخذه الذعر وعجز عن الحركة وقال «أأنتم..؟ إنني لم أتعرف عليكم. فقد كنت حتى الآن لا أراكم إلا بالزي التقليدي أو العسكري». وكنت في ذلك اليوم أرتدي قميصا رياضيا وسروالا. فأجبته على الفور: «أجل، الآن وقد تعرفت علي، فلتؤد التحية العسكرية، وأين هم زملاؤك؟» فأجاب: «إنهم هناك، ولكن يتعين أن نختبئ لأن العديد من الأشخاص قد يطلقون النار علينا»، فطلبت منه أن يحضر ثلاثة أو أربعة من زملائه وخاطبتهم: «لنبدأ بتلاوة الفاتحة جهرا»، وحينئذ قام المدعوون الذين كانوا محتجزين ومنبطحين على الأرض وأخذ يلتحق بنا جميع التلاميذ ضباط الصف وهم يهتفون: «عاش الملك». لقد حموني، ولهذا السبب أفرجت عنهم جميعا فيما بعد.

سؤال: لكن الإذاعة الوطنية كانت قد أعلنت عن قيام الجمهورية؟

جواب: كما يقع ذلك دائما في الدول السائرة في طريق النمو، كان المتمردون قد استولوا على الإذاعة، لكن طيلة الساعات الاثنتي عشرة التي استغرقتها الأزمة ظلت جميع الثكنات وفية لي. ولم تعرف أية مدينة من مدن المملكة أدنى بداية تمردها. وأنا جد فخور بوفاء وإخلاص قواتي المسلحة.

سؤال: يبدو أن المسؤولين الاثنين عن المحاولة الانقلابية كانت لهما أهداف مختلفة. فالمذبوح على ما يبدو كان يريد أن تظلوا على قيد الحياة؟

جواب: أجل.

سؤال: في حين كان عبابو يرغب في القضاء على الملكية.

جواب: إن عبابو كان شخصا فظا ،ولو لم يبادر إلى قتل المذبوح على الفور، لكان هذا الأخير قد قام بتصفيته جسديا.

سؤال: لقد صرحتم مباشرة بعد أحداث الصخيرات «أن هذه الأحداث لم تكن بالتأكيد أحداثا تلقائية»؟

جواب : لقد انساق المذبوح وراء المصريين .ومعلوم أن الجرائد المصرية تصل إلى المغرب بعد ست ساعات من طبعها . وفي يوم 10 يوليو (تموز) .وبعد سويعات فقط على المحاولة الانقلابية كتبت صحيفة « الأهرام » القاهرية واسعة الانتشارعلى خمسة أعمدة . وتحت عنوان بارز : « مقتل الطاغية الحسن الثاني . انتهى الدكتاتور » . وتطرق المقال إلى انتصار« القوى الحية والوطنية بالجيش » . لقد أخطأوا التوقيت فخانهم التقدير . وساهم هذا الموقف الغريب في إضفاء نوع من الفتور على علاقاتنا مع القاهرة .

سؤال : لقد كانت « الأهرام » جريدة حكومية . مما عقد الأمور أكثر . هل بحثتم الأمر مع السادات؟

جواب : إن أنور السادات كان صديقا وفيا مخلص الود . ولم يكن له أبدا مظهر قاتل أو متآمر . فهذا ليس من شيمه . وعندما تحدثنا في الموضوع قال لي : « تعلمون أن حسنين هيكل مدير جريدة « الأهرام » كان أحد رجالات جمال عبد الناصر . وكتب عني أنا أيضا الشيء الكثير . ولقد تخلصت منه لما سنحت لي الفرصة لذلك » .

والتقيت فيما بعد « بحسنين هيكل » . وتباحثنا طويلا في الموضوع . ولقد وعدته بأن لا أبوح أبدا بما دار بيننا .

سؤال : لماذا؟

جواب : لن أبوح بذلك أبدا .

سؤال : ولكن في نظركم ما هو مصدر المساندة التي تلقاها المتمردون من الجانب المصري؟

جواب : لم أسع أبدا إلى البحث في عمق المشكل . لأنه إذا كان هناك شخص أبعد ما يكون عن الإيديولوجيا الناصرية . وحتى القومية العربية . فهو المذبوح . فأين هي نقطة الالتقاء . إذن؟ إني لم أسع أبدا الى معرفة ذلك إذ يكون أحيانا من الأفضل عدم سبر غور الأشياء .

سؤال : لماذا ترددون غالبا « من الأفضل أن لا يعرف المرء »؟

جواب : لأنني أعتقد أن من الأمور أشياء أكثر أهمية يتعين تعميقها والانكباب عليها بدلا من أن أتصرف كحافر آبار التنقيب عما في أعماقها . وهذا أولا ليس من شيمتي . وثانيا ذلك يجعلني أضيع الوقت . وأخيرا فإن المسؤولية الملقاة على عاتقي تحتم علي ستر عورات الآخرين عوض الكشف عنها . إنها إحدى تعاليم القرآن الكريم .

سؤال : مباشرة بعد أحداث الصخيرات أدليتم للصحفي « جان موريال » من وكالة « فرانس بريس » بحديث أكدتم فيه أن « ما حدث ليس من قبيل الصدفة . فلن أغير سياستي ولكن بالطبع سأغير شيئا ما طريقة حكم بلدي بدءا بنفسي » . فماذا قصدتم بذلك؟

جواب : لقد ترجم ذلك على الفور بما فعلته حين أبرزت ما لي من حرص شديد على تحلي حكومتي بالأخلاق . فقد أحيل أربعة وزراء على المحكمة العليا بتهمة الرشوة .

سؤال : هل تعتقدون أن بعض الفضائح المعروفة لعبت دورا في وقوع أحداث الصخيرات؟

جواب : لقد كانت الفضيحة التي تورط فيها هؤلاء الوزراء الأربعة أحد الأسباب . فالمذبوح هو الذي أطلعني على الاتهامات الموجهة . وكانت تربط المذبوح بهؤلاء صداقات وعلاقات عائلية . وعندما شعر بعزمي على معاقبة المتورطين في الفضيحة قام بالمحاولة .

سؤال: لكن لا داعي لأن يراجع المرء نفسه بعد حادث من هذا النوع، لقد قلتم إنكم تريدون أن تغيروا نفسكم بنفسكم.

جواب: إن المرء يشعر بمرارة عميقة خاصة عندما تستهدف الخيانة شخصه.

سؤال: لقد أخذتم كثيرا أولئك الذين خانوكم.

جواب: وماذا أجداني ذلك. لقد أراحني الله منهم فأنزل بهم عقابه.

سؤال: لكنكم عاقبتموهم أيضا؟

جواب: لا، لم أعاقبهم أنا. «فعبابو» قتله «المذبوح» وهذا الأخير لقي مصرعه فيما بعد ذلك على يد بعض رجاله. أما أوفقير فقد أطلق على نفسه رصاصة في الرأس.

سؤال: مازالت هناك علامات استفهام كبرى حول المحاولة الانقلابية الثانية التي وقعت سنة 1972. ألم تكونوا تشكون إطلاقا في إخلاص أوفقير، وزيركم في الدفاع؟

جواب: لا، والغريب في الأمر هو الطريقة التي حاول بها تنفيذ محاولته. فأن يختار المرء رمي أشخاص مكبلي الأيدي والأرجل في آبار مليئة بالأفاعي والعقارب، فذلك أمر فظيع، لكن أن يقرر المرء إطلاق النار على طائرة، فذاك أكثر فظاعة، لأن الإنسان إذا كان يجيد السير ويحسن السباحة فهو لا يستطيع الطيران. لقد مكثنا بالفضاء أزيد من خمس وعشرين دقيقة في طائرة تعرضت لوابل من الرصاص.

سؤال: لقد تعرضت طائرتكم للهجوم عندما كنتم عائدين يوم 16 أغسطس (آب) في أعقاب زيارة لفرنسا. فلماذا قررتم تقديم موعد مغادرتكم لفرنسا بـ24 ساعة عن الموعد المحدد؟

جواب: لا، لقد عدت في التاريخ المحدد، لكن عشية هذا التاريخ انتابني شعور معين، فطلبت من «مولاي حفيظ» مدير التشريفات تغيير مسار الرحلة، وهكذا توقفنا ببرشلونة حيث تناولت طعام الغداء مع وزير الشؤون الخارجية الإسباني، وعندما أقلعت بنا الطائرة مرة أخرى في اتجاه المغرب قلت للقباج ربان الطائرة: «أريد أن نحلق أطول مدة ممكنة فوق التراب الإسباني». وهذا ما أنقذني، ذلك أن الطائرة عندما تنطلق من برشلونة تمر مباشرة عبر «أليكانتي» ثم تتجه نحو «تطوان» فـ«القنيطرة» فـ «الرباط»، وكان المتآمرون يعتقدون أننا سنتبع هذا الخط.

سؤال: لقد كان هدفهم إسقاط طائرتكم في البحر؟

جواب: نعم، فوق المياه الإقليمية حتى تسقط الطائرة في البحر، ولا يتأتى العثور لها على أي أثر، ولن يكون في مقدور أي كان اكتشاف آثار الرصاص الذي أطلق عليها.

سؤال: لكن كيف انتابكم ذلك الإحساس الذي تكلمتم عنه آنفا؟

جواب: لا يمكنني أن أشرح لكم ذلك، فلكل امرئ حدسه، أليس كذلك؟

سؤال: ألم يكن هناك ما يثير شكوككم؟

جواب: لا، أبدا.

سؤال: لكن أوفقير كان يلعب دورا هاما إلى جانبكم وكان رجلا قويا، وسبق أن قلتم لي إن الشكوك أخذت

تنتابكم تجاهه شيئا فشيئا؟

جواب : كنت أعرف أن الأمر يتعلق بإنسان طموح. لكن لم يخطر ببالي أبدا أنه يمكن أن يدبر مخططا جهنميا يتمثل في إسقاط الطائرة التي كانت تقلني فوق البحر الأبيض المتوسط. واستغلال الدستور بعد ذلك للإعلان عن مجلس الوصاية. وتنصيب ابني البالغ من العمر تسع سنوات على العرش. فذاك كان مخططه. إنه كان يريد أن يصبح المغرب متوفرا على حكومة صورية يسيرها حُجّاب الملك. مما كان سيؤدي بالبلاد إلى كارثة.

سؤال : ماذا اعتقدتم وأنتم ترون المطاردات الستة من نوع . ا ف 5 . وهي تقترب من الطائرة التي كانت تقلكم؟

جواب : قلنا لهم :« ماذا تريدون؟ » فرد قائد السرب :« لقد أتينا لخفركم » فأجبته : « يمكنكم العودة إلى قواعدكم فأنا لم أطلب الخفر ».

سؤال : ألم يبادروا بإطلاق النار على الفور؟

جواب : لا . لقد شرعوا أولا في تحديد موقع الطائرة قبل مهاجمتها. وعلى أية حال لن أخفيك أن ما قام به ربابنة هذا السرب لم يكن ليجعلني أفتخر بربابنتي. لأنهم كانوا يطلقون النار على طائرتي بشكل عشوائي ينم عن غباوة.

سؤال : بالفعل كيف لمطاردات من هذا الطراز أن تخطئ هدفا بحجم طائرة بوينغ من نوع 727؟

جواب : لو كنا على متن طائرة من طراز بوينغ 747. لكانت حظوظ البقاء على قيد الحياة أوفر. وبالفعل فكلما كان حجم الطائرة أكبر. كانت النقط الحساسة بها متباعدة. وهنا تحضرني إحدى الجزئيات الغريبة. فقد كان يتم بالطائرة ـ حتى الأكثر تطورا آنذاك وربما حتى في الوقت الراهن ـ تسخين الماء بواسطة غاز البوطان. وعندما بدأت المطاردات تطلق النار على الطائرة التي كنت على متنها استقرت إحدى الرصاصات على بعد سنتيمترين بالضبط من أنبوب قنينة الغاز. فلو أصابت الرصاصة ذلك الأنبوب لانفجرت الطائرة.

سؤال : فيم فكرتم في بداية الهجوم؟

جواب : ربما ستظنون مرة أخرى أني متعصب. فليكن. فليست لدي أية عقدة بهذا الشأن. لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يردد الدعاء التالي : « أعوذ بالله بالكلمات التامات من شر ما خلق. بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ». وكان يوصي صحابته بترديده صباح مساء. لأن من يتلوه مرات عديدة لن يتوفاه الله في يومه. وفي أحد الأيام قال له الصحابة وهم مندهشون : « لكن يا رسول الله. عندما يأتي الموت فلا راد لقضاء الله » فرد الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا جاء أجله نسيه ». وهكذا عندما بدأ الهجوم على الطائرة قلت للمضيفات ولمرافقي :« اطمئنوا. فلن تصابوا بأذى فذاك مستحيل. لقد تلوت هذا الدعاء مساء أمس. وصباح اليوم. وحتى الآن » وهكذا عشت هذه الأحداث بشكل سريع وبطيء في آن واحد. لقد أراد مرافقي منحي قناع الأوكسجين. لأن الرصاص اخترق الطائرة وجعلها تنقص من قوة ضغطها. وقد رفضت ذلك ثم ساعدت أحد مرافقي وهو السيد « سكيرج » في إدارة مقود الطائرة من أجل محاولة إخراج عجلات الهبوط التي كانت محصورة لا تتحرك.

سؤال: ماهي الصور أو الانطباعات التي تولدت لديكم في تلك اللحظة؟

جواب: لم يحصل لي أن عرفت سيناريو ذلك الشخص الذي يحتضر ويستعيد شريط حياته بشكل سريع. لا، لم أعرف ذلك. فقد ارتأيت أنه لا يتعين الاستسلام للذعر والهلع، وأن أتصرف بكل أناة وتحمل ثم أنتظر. وماذا كان بوسعنا أن نفعل غير ذلك؟

سؤال: هل اعتقدتم في لحظة ما بأنكم لن تفلتوا من هذا الاعتداء؟

جواب: تقتنيا كدنا نهلك، فلم يبق سوى محرك واحد للطائرة شبت فيه النيران، وكان ربان الطائرة السيد «القباج» - تغمده الله برحمته - ربانا بارعا حيث كان يشرف على منح رخص القيادة لربابنة طائرات المسافات الطويلة التابعة للخطوط الجوية الفرنسية، وفي لحظة ما توجه إلي بقوله: «هل تسمحون لي بارتكاب أكبر خطأ يمكن أن يرتكبه ربان طائرة، ألا وهو تشغيل المحرك الذي شبت فيه النيران. إنها فرصتنا الوحيدة». فأعطيته موافقتي. وهنا حدثت المعجزة حيث اشتغل المحرك. فلو لم يفعل ذلك لتحطمت بنا الطائرة، لا سيما وأن جميع أجهزة القيادة المائية قد تعطلت. والواقع أن «القباج» ومساعده «البكاري» كانا يبدوان وكأنهما يحملان على كاهلهما ثقل الأربعين طنا، - وهو وزن طائرة البوينغ - مما جعلهما يظلان بعد نجاتنا، لمدة تزيد على عشرة أيام، طريحي الفراش نتيجة ما أصابهما من تشنج عضلي وإرهاق شديد.

سؤال: هل أدركتم منذ الوهلة الأولى من أين أتى الهجوم؟

جواب: بالنسبة لي كانت الأمور جلية ولا غبار عليها. فأوفقير كان وزيرا للدفاع، وبالتالي فهو الوحيد الذي كان بإمكانه السماح للمطاردات بالإقلاع وإصدار الأوامر بإخراج الذخيرة المحفوظة بكل عناية من المستودعات.

سؤال: بمجرد هبوط طائرتكم وقع اعتداء آخر على مطار الرباط سلا؟

جواب: لقد نزلت الطائرة بأرض المطار بعجلة واحدة ومخازنها مازالت ممتلئة بالوقود، وذلك أمر بديهي لأننا لم نحلق كثيرا في الجو.

وقد نزلت من الطائرة عن طريق المزلاج، وامتطيت سيارة كانت واقفة هناك ووصلت إلى القاعة الشرفية حيث كان الوزراء يتجاذبون أطراف الحديث، وكان أفراد الحرس الملكي، الذين كانوا سيؤدون التحية على نغمات النشيد الوطني جالسين هم أيضا، والبنادق والطبول موضوعة على الأرض. فلم ينتبه أحد لما حدث. وبمجرد وصولي وقف الجميع وأدوا التحية، ثم استعرضت فرقة من الحرس وتقدم الوزراء للسلام علي، وعندئذ فقط قلت لهم: «هل تعلمون أن طائرتي تعرضت لإطلاق النار؟» فذهل الجميع.

سؤال: وأين كان أوفقير؟

جواب: لقد كان حاضرا مع الوزراء قبيل هبوط طائرتي، ثم صعد إلى برج المراقبة حيث نودي عليه بدعوى مراجعته في قضية ما. وفي الحقيقة قد يكون قيل له: «لقد فشلت المحاولة ولم تتحطم الطائرة» وعند ذلك غادر المطار وتوجه إلى مقر وزارة الدفاع.

سؤال: ولماذا أمر ثانية بإقلاع المطاردات الستة للهجوم هذه المرة على المطار؟

جواب: لقد كان يريد القضاء علي بأي حال من الأحوال.

سؤال: وماذا فعلتم في تلك اللحظة. فلم يعرف أحد إلى أين توجهتم. وحسب العديد من الشهادات فقد لجأ شقيقكم الأمير مولاي عبد الله إلى إحدى السفارات وأنتم إلى سفارة أخرى؟

جواب: إن ذلك ليس صحيحا. التجأ مولاي عبد الله إلى بيت أحد الفلاحين. أما أنا فقد التقيت بأحد موظفي المطار على متن سيارة صغيرة ربما كانت من نوع «بوجو»، وطلبت منه «أن يترك لي سيارته». ولازلت أذكر أنه أجهش بالبكاء، من شدة تأثره، فامتطيت السيارة وسلكت ممرا يعبره التلاميذ، ثم قطعت الطريق المقابل للمطار الذي يؤدي إلى سلا. وبعد ذلك اجتزت المدينة بكل هدوء وأنا آمل ألا تكون على الطريق حواجز لرجال الأمن. وبما أن أوفقير لم يبق وزيرا للداخلية، فكنت أظن أنه لا يملك الوسائل لاتخاذ مثل هذه الإجراءات. ومن حسن الحظ صدق ظني.

سؤال: كيف يشعر المرء وهو يقود سيارة من هذا النوع ومهدد بأن يضبط في أية لحظة؟

جواب: كنت أقول مع نفسي. واسمحوا لي بهذا التعبير. «لقد سبق أن رأيت أشخاصا ذوي دناءة ومهانة لكن لم يسبق لي أبدا أن رأيت أشخاصا بهذه الخسة».

سؤال: وأين توجهتم؟

جواب: لقد توجهت مباشرة الى قصري بالصخيرات حيث كان أفراد عائلتي ووالدتي ينتظرونني. وبمجرد وصولي، استحممت في مسبح ممتلئ بماء البحر، لأستعيد سابق هدوئي، ثم أديت الصلاة شكرا وحمدا لله.

سؤال: أظن أنكم بعد ذلك اتخذتم إجراءات للبحث والعثور على أوفقير؟

جواب: لقد ظل مختفيا إلى أن جاء إلى القصر الملكي بالصخيرات.

سؤال: وهل أتى إلى القصر؟

جواب: بالتأكيد.

سؤال: لماذا؟

جواب: ليعرف ما جرى لي.

سؤال: وهل استقبلتموه؟

جواب: لا، فقد كنت أستحم، ووالدتي هي التي استقبلته، فانحنى يقبل يدها فصرخت في وجهه: «ماذا حدث هذه المرة أيضا؟ لماذا لا تتركون أنتم الجنود ابني وشأنه؟ ماذا فعل لكم؟» فأجابها أوفقير بكل وقاحة قائلا: «للاَ، أقسم لك أنه لا دخل لي في ذلك. وكما سترين فسيحملونني مرة أخرى مسؤولية ماحصل». وجاءت والدتي لتحكي لي ذلك، حيث وجدتني أجفف جسمي بعد الاستحمام.

سؤال: وماذا كان اعتقادكم؟

جواب: هو أن ذلك كان اعترافا منه بجريمته.

سؤال: وماذا حدث بعد ذلك؟

جواب: لقد انصرف أوفقير إلى حال سبيله ثم انتحر.

سؤال: في هذا الشأن بالضبط شكك العديدون في أطروحة الانتحار هاته. فلماذا تم التصريح في البداية بأنه

انتحر وفاء للعرش، ثم صدر بلاغ يقول إنه بسبب خيانته؟

جواب: إنني أعرف أوفقير. والواقع أن لقطاع الطرق أيضا مفهوما معينا للشرف، فجميع الشهود سيؤكدون لكم أنه عندما كنت على أهبة مغادرة المغرب في اتجاه فرنسا على متن الباخرة، جاء أوفقير يودعني وهو يذرف الدموع. وكثير من الناس قالوا لي فيما بعد أنه كان يبكي لأنه كان يعتقد أن تلك آخر مرة يراك فيها.

سؤال: ولماذا اخترتم عند توجهكم إلى فرنسا أن تستقلوا القطار حتى طنجة ثم الباخرة حتى مرسيليا. هل كنتم تخشون التعرض لاعتداء؟

جواب: أبدا. فأنا أحب البحر. وقد زاولت الخدمة العسكرية لمدة ثلاثة أشهر ونصف على متن سفينة «جاندارك». كما أني أحب التنقل على متن الباخرة. ومن جهة أخرى فإني أتنقل كثيرا عبر المغرب على متن القطار. لأن ذلك يمكنني بالخصوص، من رؤية مستوى السكنى والتعمير عن كثب ذلك أن المباني الأقل جمالية هي التي تكون في الغالب على جنبات الطرق. أما البنايات الأكثر بشاعة فهي التي توجد محاذية لخطوط السكة الحديدية.

سؤال: هناك رواية أخرى بشأن وفاة أوفقير مفادها أنه تمت تصفيته من طرف أحد مساعديكم وهو السيد الدليمي؟

جواب: أؤكد لكم أن الأمور تمت بالفعل كما رويتها لكم. إني كنت أعرف أوفقير جيدا. فالرجل الذي كان يقدم نفسه كأوفى الأوفياء وأخلص المخلصين، لم يكن ليطيق أبدا أن يحاكم من قبل زملائه الجنود، وأمام محكمة عسكرية، ليساق بعد تجريده من رتبته العسكرية إلى حبل المشنقة. فأوفقير لم يكن بالشخص الذي يتحمل ذلك.

سؤال: هل كنتم ستشملونه بعفوكم؟

جواب: لا. إنني سأموت عندما يحين أجلي، وعندما يرى الله سبحانه وتعالى أنني أديت رسالتي. أما أن أموت سنة 1972 وفي مناخ أقل استقرارا بالنسبة للمغرب مما عليه اليوم، وأن يعتلي العرش طفل عمره تسع سنوات، مع تنصيب مجلس للوصاية فتلك لا شك مغامرة طائشة كانت ستؤدي إلى حرب أهلية بالمغرب وإلى تفكك هذا البلد. إذ لم يكن باستطاعة أي كان أن يقبل هذا الوضع سواء عشائريا أو عرقيا. ولا يجب أن ننسى أن المغرب مملكة يتعين الحفاظ عليها بصيانة لحمتها الأساسية ألا وهو النظام الملكي ذو الطابع الديني.

الفصل الثاني عشر

حساسية الرشوة الصغرى

سؤال: صاحب الجلالة إن المرء لا يستسيغ الثقة التي وضعتموها في أوفقير والسلطة التي خولتموها له؟

جواب: على كل حال أنا لم أختره وإنما ورثته عن والدي.

سؤال: الذي كان يحبه كثيرا؟

جواب: لا، إطلاقا، يمكن القول إن أوفقير فُرض علينا. فهو لم يكن الضابط المغربي الوحيد الذي عمل في صفوف القوات المسلحة الفرنسية، وعند عودتنا من المنفى إلى المغرب في 16 نوفمبر (تشرين الثاني) 1955وجدنا أوفقير الذي كان تابعا آنذاك للإقامة العامة في انتظارنا لدى نزولنا من الطائرة حيث تقدم للسلام علينا ثم أخذ مكانه بجانب سائق السيارة كأحد الضباط المرافقين لنا، وغداة ذلك وجدناه في صفوف الحرس الملكي... وهكذا دواليك. وبالنسبة لي فأنا ورثته فقط عن والدي ولم تكن تربطني به أية علاقة شخصية، في حين كنت أفضل ضباطا آخرين كانوا أصدقائي.

سؤال: ولكنكم عينتموه في مناصب حساسة خاصة منصبي وزير الداخلية ووزير الدفاع.

جواب: نعم، لأنني لا أخالف أبدا قرارات اتخذها والدي كما لا ألغي ترقيات خصه بها. فالتضامن شيء أساس في مهنتنا. لا أعلم ما إذا كان أوفقير قد فُرض علينا قضاء وقدرا أم أن شخصا ما هو الذي فرضه علينا؟ غير أني أعتقد أن ظهوره إلى جانبنا هكذا لم يكن بمحض الصدفة.

سؤال: هناك شيء يبدو لي غامضا إلى حد ما بالنسبة لمحاولتي الانقلاب لسنتي 1971و1972 ،فمن المفترض أنه كانت هناك روابط متينة بين المخابرات المغربية وبعض نظرائها في أوروبا الغربية وخاصة المخابرات الفرنسية. فكيف أن مخابراتكم ولا حتى المخابرات الفرنسية لم تتمكن من اكتشاف ما كـــان يحاك ضدكم؟

جواب: إن التعاون بين هذه المصالح لم يتم إلا فيما بعد.

سؤال: لم يكن هذا التعاون قائما لا سنة 1971 ولا سنة 1972؟

جواب: لا، وأنا جازم تماما بهذا الشأن، فرئيس المخابرات الفرنسية في ذلك العهد كان هو «الكونت دو مارانش» الذي ظل على الدوام عميد جميع رؤساء المخابرات. والواقع أني لم أتعرف على مارانش إلا سنة 1973، عندما جاء لمقابلتي، حيث شرعنا في العمل والتعاون فيما بيننا. ولم يكن قبل ذلك أي تعاون.

سؤال: إذن، لم يتأت لأي من مصالح المخابرات بدول صديقة إخطاركم؟

جواب: لا، لم يخطرني أحد.

سؤال: هل كان لديكم سنة 1972 الاعتقاد بأن الملكية تزعزعت بفعل هاتين المحاولتين المأساويتين؟

جواب: إن النظام الملكي لم يكن أبدا مهددا ،ذلك أن الأمر لم يكن يتعلق بثورة. أعني أنه لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن كانت هذه الأحداث ناتجة عن تمرد السكان على من يحكمهم. فعندما قتل رافاياك هنري الرابع ،لم يطعن أحد في مشروعية آل بوربون. كما أن المؤامرات التي حيكت ضد دوغول لم يكن من شأنها لو كتب لها النجاح، أن تهدد الجمهورية. بل كان المتمردون بالجزائر العاصمة هم الذين سيحكمون دائما باسم هذه الجمهورية.

سؤال: يبدو أنه كان هناك جفاء بينكم وبين المسؤولين العسكريين.

جواب : لا ، ربما كان لهم انطباع بأنهم أهملوا نوعا ما . وغداة المحاولة الانقلابية الفاشلة سنة 1972 جمعت المسؤولين العسكريين بالصخيرات وقلت لهم : « إن ذلك سيتطلب مني وقتا ، ولكني سأتولى شخصيا أموركم . إن ما ينقصكم هو ممارسة السياسة » . وهكذا شرعت في تسييس الأطر العليا بالقوات المسلحة حتى لا يبقى لهم أبدا انطباع بأنهم مواطنون مهمشون . وشرحت لهم أنه يتعين عليهم أن يلموا بالضرورة بحقائق السياسة الإقليمية . وقد أعطى ذلك ثماره عندما قررنا استرجاع الصحراء . و قلت لهم أيضا : « في اليوم الذي تشن فيه إضرابات . فبالتأكيد سيكون أحد أفراد عائلتكم من بين المضربين . ويتعين عليكم أن تعرفوا لماذا شارك في الإضراب . وهل كان على صواب »؟

سؤال : هل كانت بعض دول المنطقة متورطة في المحـــاولة الانقلابية لسنة 1972؟

جواب : عند الهبوط الاضطراري للطائرة التي كانت تقلني ، توجهت إلى قصر الصخيرات وهناك تلقيت مكالمة هاتفية من بومدين الذي كان مذعورا حيث قال لي : « ماذا حدث؟ يقال إن طائرتكم قد تعرضت لإطلاق النار . هل أنتم بخير؟ » وقد لمست في نبرة صوته شيئا من التأثر الصادق . وطبعا كانت العلاقات بيننا آنذاك على ما يرام . فطمأنته قائلا : « كل شيء على ما يرام . وقد تمت السيطرة على الموقف » . وفي هذا الوقت بالذات أضاف قائلا : « إن القذافي كلمني هاتفيا قبل قليل . ليطلب مني السماح لطائراته بعبور أجواء التراب الجزائري . فهو يريد أن يرسل سربا من المقاتلات لمساعدة المتمردين وقصف قصركم بالرباط » فأجبته : « على أية حال فالمسافة طويلة . ولن يتأتى أبدا لطائراته الوصول إلى المغرب » . واستطرد بومدين قائلا : « إن القذافي لم يطلب مني السماح لطائراته بعبور الأجواء الجزائرية فحسب ، بل إنه يريد أيضا أن أسمح لمقاتلاته بالتزود بالوقود في الجزائر . وتذكرون جيدا أني لم أكن لأسمح له بذلك » .

سؤال : بعد أزمتين متقاربتين مثل هذا التقارب ، الأولى في سنة 1971 والثانية سنة 1972 ألم تشعروا بنوع من التذبذب ، أفلم يساوركم شيء من الارتياب؟

جواب : كلا ، لأن ذلك كان سيشكل كارثة . وسأبوح لكم بأمر : لقد أدركت كل شيء في اليوم الأول لاعتلائي العرش ، عندما ذهبنا لصلاة الجنازة على جثمان والدي - رحمه الله - فنادى الإمام لصلاة الجنازة : « صلاة الجنازة يرحمكم الله ، جنازة رجل » . وكان هناك حوالي مليوني شخص بالشوارع ، وقد انتحر بعض المواطنين عندما شاهدوا جثمان والدي . وكانت عبارة « صلاة الجنازة يرحمكم الله . جنازة رجل » أكبر درس في التواضع تلقيته في حياتي .

سؤال : ما الذي غيرتموه بعد سنة 1972 بالنسبة لطريقة ممارستـــكم الملك والحكم؟

جواب : لست أنا الذي تغير ، وإنما المناخ هو الذي تغير . لقد شاء الله تبارك وتعالى أن يطهرنا ويخلصنا في ظرف سنتين من كل الشوائب ، بحيث كان من شأن هذين الإعصارين الرهيبين أن يأتيا على الأخضر واليابس . غير أنهما ولله الحمد ، كانا في نهاية المطاف بمثابة ذلك النسيم العليل ، وتلك النفحة الطيبة التي طهرت المغرب ، ونقته من جميع الشوائب ، وجعلته أكثر صفاء . وهكذا وجد المغرب نفسه يواجه مسؤولياته ، بدم جديد وأناس جدد .

سؤال : صاحب الجلالة في هذا الشأن بالضبط يتردد أن عددا من المقربين إليكم كانوا مرتشين وانتهازيين .

الشيء الذي كان له صدى سلبي للغاية لدى المواطنين. هل كنتم واعين بذلك؟

جواب: ماذا تقصدون بمن تسمونهم مقربين؟

السائل: إنني لست على إلمام بالنظام المتبع داخل البلاط. لكنني أتكلم عن أشخاص مقربين نسبيا لكم.

جواب: لن أكون صادقا معكم لو أكدت أنه لم يكن هناك مرتشون. وكما كان يحلو لصديقي إدغارفور أن يقول: «فلو لم يكن هناك من يشتري المسروقات لما كان هناك لصوص». وأنا أقول: «لولا وجود راشين لما كان هناك مرتشون».

إذن فإذا كان هناك أناس من المحيطين بي مرتشين. فإن الراشي هو الذي يسعى إليهم. وليسوا هم الذين يبحثون عن الرشوة.

وعندما تعلق الأمر بعملية ارتشاء كبرى متصلة بتهريب ملايير من البلاد. فقد وجد ـ كما قلت لكم ـ أربعة وزراء أنفسهم أمام المحكمة. غير أنه من الصعب علي الاستمرار في ذلك. لأن من شأن هذا أن يشغل الجميع بالحديث عن التحقيق والمتابعات. وما كان يتعين القيام به بالفعل هو إصلاح عمل المسؤولين. أما الرشوة فكانت موجودة على مر العصور. وستظل موجودة في كل أنحاء الدنيا.

سؤال: ألا يخامركم شك في ذلك؟

جواب: لقد تحدثت ذات يوم في الموضوع مع الرئيس جيسكار ديستان. وبادرته بالقول: «احكوا لي شيئا ما عما يحدث عندكم. لأن مايقض مضجع عامة الشعب عندنا في المغرب ليس ذلك الشخص الذي يربح مائة مليون أو ملياراً. فهم لا ينظرون إليه. بل إن ما يشغلهم هو ما يؤدونه رشوة مقابل الحصول على عقد ازدياد شهادة ميلاد. أو إيجاد مقعد لابنهم في المدرسة. أو الحصول على رخصة الدفن. وهذه الوثائق يسلمها موظفون صغار. وتؤثر الرشوة بشأنها على جيوب ذوي الدخل المتواضع».

فتطلع إلي الرئيس جيسكار ديستان مبتسما وأجاب: «جلالة الملك. لا تضيعوا وقتكم في محاربة هذا النوع من الرشوة التي هي عندنا متفشية بشكل أوسع. لكن أولوا اهتمامكم للرشوة التي تكون على مستوى أعلى والتي نعاني منها كما يعاني منها جيراننا. وسنعاني منها أكثر في المستقبل» هذا هو جواب السيد «ديستان». ومع كل ذلك تبقى في نظري الرشوة الصغرى هي الأكثر حساسية. ويتعين القضاء عليها.

فالشخص الذي يتقاضى شهريا ألفا وخمسمائة فرنك ويجد نفسه مطالبا بأداء مائتين أو ثلاثمائة فرنك مقابل الحصول على كل وثيقة. ماذا يبقى له المسكين في نهاية الشهر؟ أما العمليات الكبرى فنراها كل يوم وفي جميع الجهات تقريبا وهي ما فتئت تتكاثر.

سؤال: لكن ألا يخفي عليكم المقربون منكم أو مساعدوكم الأقربون بعض الأشياء في الأوقات العصيبة؟

جواب: لقد كنت أقول دائما: «إن مؤامرة الصمت هي أسوأ المؤامرات. فبعد الأحداث المأساوية لسنتي 1971 و 1972 أسرّ لي البعض بأنهم قد استشعروا لدى أوفقير والمذبوح مؤشرات على تدبيرهما شيئا ما.

سؤال: ما هي هذه المؤشرات؟

جواب: لم يريدوا الإفصاح لي عن ذلك. كما لم يكن من المجدي في شيء الحصول على اعترافاتهم فيما بعد.

فالجميع . وعندما أقول الجميع أقصد أولئك الذين يعيشون حولي . قالوا لي « استشعرنا شيئا ما آنذاك ولم نكن نعتقد أن ... » فأجبتهم « صارحوني دائما بما يخطر ببالكم واتركوا لي معالجة الأمور بعد ذلك » .

سؤال : ألا تعتقدون أن المقربين منكم كانوا يخشون أحيانا البوح لكم ببعض الأمور؟

جواب : لا ، لم أكن أبدا مصدر خوف لأي كان؟

سؤال : ومع ذلك فإن شخصيتكم تفرض الاحترام ونوعا من الرهبة؟

جواب : هناك فرق بين الاحترام والرهبة... ولا أعتقد أبدا أني كنت مصدر إرهاب لمن يحيطون بي سواء تعلق الأمر بسكرتيرتي الاثنتين أو بأطبائي . فهؤلاء هم من أسميهم المقربين مني . أما الوزراء فشيء آخر . إذ لا تربطني بهم سوى علاقة العمل .

سؤال : لكن كيف يتسنى لكم إدراك تطلعات وأحيانا إحباطات شعبكم . أفلا يلجأ المحيطون بكم في الأخير الى إطلاعكم على أشياء وتبقى بالتـــأكيد أشياء لا تبلغ لكم؟

جواب : نعم . فالواقع أن الأشخاص الذين يتبوأون المناصب العليا ليسوا هم الأكثر دراية بواقع البلاد . فأنا أتوفر على وسائل أخرى تمكنني من البقاء على اتصال مستمر بالواقع اليومي للبلاد . فالمحيطون بي ليسوا كما يتصورهم البعض . فقد التقيت بكم مراراً لكنكم لا تشاطرونني حياتي اليومية . ويمكن أن أقول لكم مثلا ما هو السعر الذي تباع به يوميا الطماطم والمواد الغذائية الأساسية في المحلات التجارية والأسواق .

سؤال : ما هي الوضعية الراهنة للمغرب؟

جواب : لقد كانت المحاصيل سيئة بسبب الجفاف . لكن الرأي العام يشعر على الصعيد السياسي أننا بصدد الدخول في منعطف حاسم . وهو يتساءل فقط عن زاوية هذا المنعطف . كما ألاحظ أن هناك نوعا من التباعد بين قيادة بعض الأحزاب السياسية ومناضلي هذه الأحزاب الذين كانوا يلاحظون المبالغة الكثيرة في خطاب القيادة .

وبالإضافة إلى ذلك هناك نشاط يتيح للمرء بالتأكيد تلافي جدار الصمت .ألا وهو مطالعة الجرائد التي تكشف عن كل شيء . فعندما تكون الأمور على ما يرام تميل الجرائد إلى القول إن الأمر ليس كذلك . وعندما أطالع انتقاداتها اكتشف أن نسبة الحقيقة فيما أوردته لا تتعدى أحيانا العُشُر . وأحيانا أخرى لاتتجاوز واحداً في المائة .

ويمكنني القول إن المغاربة الآن مترقبون شأنهم في ذلك شأن خيول السباق المتهيجة في انتظار إشارة الانطلاق . لكني لم أحس بأن الناس يشعرون بخيبة أمل . أو ينتابهم الارتياب . إذ ليس هناك ما هو أسوأ بالنسبة لبلد من أن يستيقظ سكانه كل صباح وهم يتساءلون بشيء من الألم عن مصير مجهول .

سؤال : ألا تتذكرون تعاليق الصحافة الدولية غداة المحاولة الانقلابية الفاشلة لسنة 1972؟

جواب : إن ما كان يضايقني هو أن جميع الجرائد - وخاصة في فرنسا - كانت تتطرق باستمرار إلى « البركة » التي منّ الله بها علي . أجل إنني أتمتع ببركة . غير أن الطريقة التي كانت تتناول الصحف بها هذا الموضوع ذكرتني على الدوام بسكيتش هزلي لروبير لاموروه الذي كان يردد فيه : « ... ولا زالت البطة دائما على قيد الحياة » .ولم يكن ذلك يروق لي إلى حد ما . ومع ذلك أعتقد أنني استطعت البرهنة أن على المرء بإمكانه ليس فحسب مواجهة أحداث من هذا الحجم . والبقاء على قيد الحياة .بل بإمكانه أيضا الحفاظ على حياته وحياة الآخرين .

سؤال: لكن لهجة الجرائد اتسمت بالنقد تجاهكم؟

جواب: أتعتقدون ذلك؟ لقد أتاحت لها الأحداث في نهاية المطاف المناسبة لكي تبين ـ بموضوعية حسب اعتقادها ـ أنها كانت صائبة فيما كانت تكتبه عن الحسن الثاني من أنه لن يستمر طويلا في الحكم... الخ. ولم يكن بإمكاني أن أحرمها من تلك النشوة. وربما كانت قد بالغت شيئا ما في تخميناتها التي دحضتها اثنتان وثلاثون سنة من الملك.

سؤال: في رأيكم لماذا كنتم مستهدفين من طرف وسائل الإعلام الفرنسية لسنوات عديدة؟

جواب: ربما الخطأ خطأي. لقد كان يتعين أن أعطيها الانطباع بأنني مرتاح جدا في وضعي هذا. وربما كان هناك أيضا نوع من الحسد. فأنا بالنسبة لهم ذلك المغربي المحظوظ جدا الذي ما كان له أبدا أن يصل إلى ما وصل إليه فكل ذلك كان مثار انزعاجها. إنني أتقن اللغة الفرنسية جيدا وأدرك تمام الإدراك ردود فعل الفرنسيين بالرغم من أني لست فرنسيا. بالإضافة إلى أني ملك بلد كان خاضعا للحماية الفرنسية. وعلى أية حال فبعد جيل ستزول جميع هذه الأحكام المسبقة.

سؤال: في رأيكم ألم يلعب كونكم ملكا دورا في ردود الفعل والأحكام هذه؟

جواب: بالطبع لا يمكن بتاتا أن تتصوروا في ديموقراطياتكم الأوروبية شخصا ظل على رأس السلطة طيلة أربع ولايات في كل ولاية سبع سنوات. وقضى حوالي أربع سنوات من الولاية الخامسة. إنكم لن تستسيغوا ذلك أبدا. فخمس ولايات على رأس السلطة شيء يتنافى والنظام الجمهوري. ويوحي بعهد «بونابارت». وخلاصة القول إن التحليل الأوروبي والفرنسي على الخصوص ليس متسامحا إلى حد بعيد. وهذا ما حدا بي لأن أكون متشبثا في موقفي وأبدو متماديا في عنادي. فالأجنبي يريد أن يعلمني كيف أعيش. ويرسخ في ذهني تقاليد أخرى. ويريد أن يجردني من عقليتي العربية والمغربية والعلوية. وباختصار يريد تجريدي من كل ما هو أصيل. كما يتمنى هذا الأجنبي إعطائي دروسا في نمط حياتي السياسية. وهذا بالطبع شيء أرفضه كل الرفض. لأنني عنيد جدا. نعم سأظل متفتحا لكوني أحبذ الطرق البيداغوجية. لكن لا أقبل أبدا أن تفرض علي دروس الأستاذية.

سؤال: وهل تعتقدون أن فرنسا كان لها تجاهكم موقف قريب في غالب الأحيان من فرض هذه الدروس؟

جواب: أعتقد أن فرنسا ستبدي ـ ولفترة أخرى أطول ـ مواقف من هذا القبيل تجاه المغرب. وعندما أؤاخذ الفرنسيين على ذلك يردون بالقول دائما: «اعلموا أنه لولا حبنا لكم لما تدخلنا في شؤونكم.ولما كان لشؤونكم صدى عندنا في فرنسا». في حين أنه فيما يتعلق بي. فإني أتعامل مع فرنسا كما هي. إذ لكل بلد إيجابياته وسلبياته وله ثقافته ومشاكله التي تختلف عن مشاكل غيره من البلدان. وبالتالي فيتعين على فرنسا أن تتعامل مع المغرب كما هو. ففي الوقت الذي انكببت فيه على تحليل السياسة الفرنسية أقامت جريدة «لومانيتي» الدنيا ولم تقعدها حيث كتبت تقول: «من يكون الحسن الثاني حتى يتجرأ على التدخل في سياسة بلدنا؟» فماذا تفعل الصحف الفرنسية يا ترى سوى قضاء وقتها في تحليل سياسة المغرب؟

وألاحظ أنكم توجهون فيما يبدو النقاش إلى المنحى الذي يجعلني أثير نقمة الصحافة علي. وبكل بساطة أقول لكم إنني لا أبالي بذلك. بل على العكس. فلن يؤثر ذلك على اعتدادي بنفسي.

سؤال: لعل جزءا من الانتقادات يرجع إلى كونكم تتميزون بنوع من الثنائية. فهناك من جهة ملك المغرب الإنسان الجذاب واسع الثقافة، ومن جهة أخرى هناك العاهل المستبد ذو السلطة المطلقة؟

جواب: ليست لي أية سلطة مطلقة. فسلطتي حتى لو اعتبرت مطلقة فليس هناك ما يقننها في خانة الحكم المطلق.

سؤال: إنها صيغة مهمة للغاية. فهل تتفضلون بتوضيحها؟

جواب: أقصد أن نظام حكمي ليس استبداديا. فما حيلتي إذا كان شعبي يكن لي حبا جما إلى درجة التضحية بنفسه. فإذا طلبت غدا من المغاربة التعبئة للقيام بمسيرة خضراء جديدة، فإنهم سيستجيبون لطلبي على الفور، وبكل تلقائية وعفوية. فشعبي لم يرفض لي أبدا طلبا، لأنه على أتم اليقين من أني بدوري لا أرد له طلبا أبدا.

سؤال: هل أنتم واثقون من ذلك؟

جواب: أجل. ان التفوه بذلك دون الإيمان به من شأنه أن يعرضني ويعرض عائلتي لخطر كبير.

سؤال: ومع ذلك فإذا أحسستم بأن الأمور تغيرت ماذا ستفعلون؟

جواب: سأقر في البداية بذنبي، لأنني سأكون واثقا من أن المغاربة لم يتغيروا وإنما أنا الذي تغيرت.

سؤال: إذن فعندما يقال: «الحسن الثاني ملك ذو سلطة مطلقة» بماذا تردون؟

جواب: سأطرح عليكم سؤالا. ألم تكن لدوغول أيضا سلطة مطلقة، وله فضلا عن ذلك إشعاع وشخصية فذة ومشروعية؟ وأنا أيضا أتمتع بهذه المقومات. فالجنرال دوغول أكسبته مناسبة 18 يونيو (حزيران) 1940 مكانة مرموقة وخولته مشروعية السلطة. وكانت لوالدي مناسبة 20 أغسطس (آب) تاريخ نفيه. كما كانت لي مناسبة سادس نوفمبر (تشرين الثاني) 1975 تاريخ انطلاق المسيرة الخضراء. إنها أحداث لا تأتي هكذا عرضا أو بمحض الصدفة. فما وهبني الله لا يمكن لأي كان أن يسلبه مني.

سؤال: ومع ذلك كنتم تقولون لي إنه ليس من المستحسن أن يمكث المرء لمدة طويلة جدا في الحكم وأن قوة الإدراك تأخذ في التلاشي مع تقدم العمر.

جواب: بالتأكيد، وأنا ما زلت على رأيي. غير أنني لا أبلغ من العمر الآن إلا ثلاثا وستين سنة. وبالتالي فما زال أمامي متسع من الوقت.

الفصل الثالث عشر

المسيرة الخضراء والإسقاطات

سؤال: بالنسبة لقضية الصحراء، يبدو أنه كان هناك مستويان: النزاع مع إسبانيا من جهة، والمواجهة مع الجزائر من جهة أخرى.

جواب: أجل. ففي ثالث مارس (آذار) 1965 وبمناسبة عيد العرش استقبلت بفاس السيد صوليس مسؤول حزب الكتائب الإسباني الذي جاء ليمثل الجنرال فرانكو في الاحتفالات. وقلت له «ياسيد صوليس، أبلغ الجنرال أنه لو رفض فتح حوار معنا فإنني سأبتليه بفيروس تقرير المصير في الصحراء. وسأطلب من الأمم المتحدة تقرير المصير في هذا الإقليم». وبما أننا لم نتلق أي رد على ذلك طرحنا رسميا في سبتمبر (ايلول) 1965 قضية تصفية الاستعمار بالصحراء.

سؤال: وبضع سنوات بعد ذلك بعثتم برسالة شديدة اللهجة إلى الجنرال فرانكو ذهبتم فيها بعيدا إلى درجة التهديد بتدخل عسكري.

جواب: أستغرب أن يكون قد صدر عني ذلك: فأنا أتذكر جيدا ما أتفوه به. وليس من طبعي أبدا أن أكون بهذا الوضوح عندما يتعلق الأمر بتهديدات. فقد بعثت بالفعل خطابا إلى الجنرال فرانكو. وما زلت أحتفظ بمسودته. لأني حررته بنفسي. فالخطاب في جوهره كان حقيقة قاسيا ولكن كان مهذبا ولبقا في شكله. على كل حال ففرانكو رجل مسن. وكان له تجاهنا بعض الود وإن لم يكن ذلك الود في مستوى ما كنا دائما نتوخاه. غير أن ذلك ليس بالسبب الذي يجعلنا غير مهذبين وغير لبقين معه.

سؤال: وهل لقيتموه بعد ذلك؟

جواب: بالضبط. وعند ذلك فقط أدركت لماذا أكد هتلر بعد أزيد من أربع ساعات من التفاوض معه - لكي يسمح للقوات الألمانية بعبور إسبانيا في اتجاهها إلى إفريقيا الشمالية - بأنه كان يفضل الذهاب عند طبيب أسنانه للعلاج بدون بنج. على أن يذهب للتفاوض مع «فرانكو». حيث أني لقيت هذا الأخير سنة 1971 بمدريد عندما كنت أقوم بزيارة عمل. لقد كان إنسانا مهذبا للغاية، ومن الأنصار المتحمسين جدا للنظام الملكي. كما كان يكن احتراما كبيرا للملوك. وكنت أول من تناول الكلمة محاولا أن أشرح لفرانكو أن مصلحة إسبانيا تكمن في أن يكون لها تعاون في المنطقة يطمئنها على الحماية الاستراتيجية لجزر الخالدات، ويضمن لها ذلك التعاون الاقتصادي الذي تتطلع إليه، سواء تعلق بالخيرات الموجودة على سطح الأرض أو بما في باطنها، أو بثروات البحر. وبالنسبة للصحراء، ذهبت إلى حد اقتراح إقامة قواعد عسكرية بها في إطار اتفاق يتم بيننا على قدم المساواة. واسترسلت في الحديث ساعتين دون انقطاع. في حين التزم فرانكو طيلة هذه المدة بسكوت وهدوء، مثيرين للدهشة. ولم يكن يتحرك في جسمه سوى العينين وأهدابهما. وبعد أن أنهيت عرضي استلقيت بظهري على الكرسي وأنا أقول مع نفسي: «الآن وقد عرضت عليه وجهة نظري فسأستمع لرده». وقد أجابني عن كل ذلك بعبارة واحدة هي «إن ما تطلبونه منا يا صاحب الجلالة عملية انتحارية، فلا أنا ولا إسبانيا مستعدان لذلك». هذا كل ما قاله. وبعد ثلاث دقائق أضاف: «إذا سمحتم هيا لتناول طعام الغداء، لقد أعددت لكم إقامة بالجناح الشمالي للقصر فهل تودون غسل يديكم؟»

وفعلا نهضنا. والحقيقة أنني لا أنسى هذه الازدواجية في معاملة فرانكو لي. فقد أفضت في عرض وجهة نظري

حوالي ساعتين في حين كان رده في منتهى الإيجاز. كما أن رفضه لاقتراحاتي لم يمنعه من أن يكون معي في غاية الود واللطف طيلة مدة إقامتي بإسبانيا. وقد تجاذبنا أطراف الحديث لفترة طويلة كما ذهبنا للقنص معا، لكنه ظل على موقفه ولم يتزعزع عنه قيد أنملة.

سؤال: وما هو الانطباع الذي خرجتم به من لقائكم مع فرانكو؟

جواب: لقد خرجت بانطباع أولي ألا وهو وجود هوة بين جيلين ترتب عنها عدم التفاهم في التحليل. كما أدركت أنه كانت تخونه القدرة على استشفاف المستقبل. إن الأمر في ميدان السياسة شبيه إلى حد ما بتصميم «بيغ بن» إذ يتعين القيام بقفزة «أنطولوجية» كبرى (كما يقول كانط). لكنني أدركت أن سن فرانكو لا تتيح له القيام بهذا المجهود. وآنذاك قدرت مدى الخطورة التي قد يأخذها تطور الأحداث بين إسبانيا والمغرب. وعدت إلى بلدي قلقا جدا وأنا أتضرع إلى الباري: «يارب، قنا شر بعضنا البعض. وجنبنا أية مواجهة بيننا» ذلك أني كنت واثقا من أن الحوار أصبح مستحيلا.

سؤال: لكنه مع ذلك تم الإبقاء على الاتصالات والمفاوضات؟

جواب: لقد جاء السيد لوبيز برافو وزير الشؤون الخارجية الإسباني لزيارتي ثلاث مرات، واكتشفت في النهاية أنه إنما كان يراوغ فقط وأنه يطعننا من الخلف. وفي المرة الأخيرة التي استقبلته فيها قلت له: «يا سيد برافو تعهدوا لي بأنكم لن تمنحوا الاستقلال الذاتي للصحراء. ورغم أنني سأبدو صلفا. فأنا مستعد لأن أفضل مرة أخرى استمرار الاحتلال الإسباني. إلى أن نتوصل إلى اتفاق. (لأن هذا الإقليم جزء من المملكة) على أن أراكم تسلمونه لآخرين» فرد السيد «برافو» «بالطبع اطمئنوا فأنا أعدكم. وسأبلغ فرانكو ذلك».

واكتشفت فيما بعد أنه كان في الوقت نفسه يتفاوض مع الجزائر بشأن صفقة غاز عن طريق وساطة شركة «ماتيسا» التي كانت في ملكية أخيه الذي كان وراء أكبر فضيحة مالية عرفتها إسبانيا. وباختصار وجدت نفسي في وضعية لا يخرج منها إلا من كان بارعا في الكذب.

سؤال: لقد كانت الصحراء بمثابة مباراة غريبة الأطوار في الشطرنج مع بومدين.

جواب: إن تكويني القانوني علمني أنه على المرء أن يتحلى دائما بحسن النية، فبكل صراحة لم أكن أعتقد أبدا أنني أمام محاور ذي شخصية مزدوجة. فقد كان بومدين يظن أنني أوقعت به. ففي سنة 1974 كنا مجتمعين بأكادير وبمعيتنا الرئيس الموريتاني ولد داده. والحقيقة أنني لم أكن مرتاحا. فحدسي كان ينبئني بأن هناك تواطؤا ما يدبر في الخفاء. ومكثنا يومين وليلة. وفي المساء. قلت لضيفيّ «لقد ضحيت بالكثير من أجل إقامة علاقات صداقة مع بلديكما. وتوخيت من ربط هذه الصداقة ضمان استقرار المغرب والمنطقة. وعملت على نسج خيوط التعاون بين دولنا الثلاث. فإذا كان من شأن قضية الصحراء، أن تحدث شرخا في هذا النسيج القائم بيننا، فأقترح - حفاظا على هذه الصداقة - أن ينكب كل واحد منا على الشؤون الخاصة لبلاده دون أن ينخر مشكل الصحراء جسم هذا الثلاثي»...

واعتقد بومدين أن كلامي كان موجها إليه. وفي المساء، ونحن على مائدة العشاء بدا بومدين مقطب الجبين، فانحنيت تجاهه بكل لطف وهمست في أذنه: «لماذا يبدو على محياكم هذا العبوس. إنكم ترددون أينما حللتم

وارتحلتم وفي شتى المناسبات أن لا أطماع لكم في الصحراء. وإذا كان منا من يتعين عليه أن يحس بالحرج فهو صديقنا الرئيس الموريتاني الذي يطالب بهذا الإقليم. خذوا إذن راحتكم وابتسموا. ولا تستاؤوا من أقوالي».
فأجاب: «لا. لا. فأنا لا أشعر أبدا أنكم قصدتموني بكلامكم». ثم انتقل بما عُرف عنه من تملص إلى موضوع آخر. لكنني أحسست أن الرجل انقبض كما تتكمش المحارة عندما تصب عليها نقطة من حامض الليمون.

سؤال: في يوليو (تموز) 1975 قرر الإسبان قبول نقل السيادة على الصحراء. كيف كان رد فعلكم؟

جواب: لقد احتج المغرب على ذلك وعرضنا القضية على محكمة العدل الدولية بلاهاي ووجدت إسبانيا نفسها مضطرة لانتظار الرأي الاستشاري للمحكمة.

سؤال: واصلت المحكمة النظر في القضية حتى نهاية شهر أغسطس (آب) 1975 وأصدرت رأيها في 16 أكتوبر (تشرين أول). فماذا فعلتم في غضون ذلك؟

جواب: في 20 أغسطس (آب) كان علي أن ألقي خطابا بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، وهي الذكرى التي تخلد تاريخ نفي الأسرة الملكية. وعشية ذلك اليوم كنت أتساءل مع نفسي: «ترى ماذا عساي أن أقول في هذا الخطاب»؟ وفي المساء، وبعد أن أديت صلاة العشاء، أخلدت إلى النوم. فاستيقظت فجأة في منتصف الليل تراودني فكرة نفذت نفوذ السهم إلى ذهني وهي: «لقد رأيت آلاف الأشخاص يتظاهرون في جميع المدن الكبرى مطالبين باستعادة الصحراء، فلماذا إذن لا ننظم تجمهرا سلميا ضخما يأخذ شكل مسيرة»؟ وهنا أحسست أني قد تحررت من عبء ثقيل للغاية.

وقد اكتفيت في خطابي لليوم الموالي بالتطرق لبعض القضايا العامة. إثر ذلك استدعيت وزير التجارة ووزير المالية وقلت لهما: «إن شهر رمضان قد يكون قاسيا، إذ المحاصيل الزراعية كانت متوسطة، فهل يمكنكما من باب الاحتياط تخزين كمية من المواد الغذائية؟ حتى إذا وجدنا أنفسنا في حاجة إلى عرضها في السوق أمكننا المحافظة على سعر ثابت لها» فأجابا: «بكل تأكيد، وما هي الكمية التي يتعين تخزينها؟» فقلت لهما «تموين يكفي لشهر أو شهرين.» ولم يفطنا لشيء. وهذا ما كنت أرغب فيه. واستدعيت بعد ذلك أولئك الذين سيصبحون إلى جانبي المسؤولين الثلاثة عن المسيرة الخضراء، وهم الجنرال أشهبار الكاتب العام لإدارة الدفاع، والجنرال بناني من المكتب الثالث، والكولونيل ماجور الزياتي من المكتب الرابع. وبعد أدائهم اليمين بعدم إفشاء السر حتى ولو لم يكونوا متفقين على ذلك، شرحت لهم أن عدد المشاركين في المسيرة سيصل إلى ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة. فقالوا مستفسرين: «لماذا كل هذا العدد؟» فأجبتهم: «إن المسألة في غاية البساطة. فهناك ثلاثمائة وخمسون ألف مغربي ومغربية يولدون كل سنة، وبالتالي فإن هذا العدد ليس بالأهمية التي قد تؤثر على عدد السكان». وقد ألهبت الفكرة على التَّوّ حماسهم وشرعوا في العمل بدون كاتبات أو أجهزة حاسوب، وكانوا يحررون كل شيء بأيديهم، حيث كان يتعين إحصاء كمية الخبز اللازمة لإطعام ثلاثمائة وخمسين ألف شخص، وعدد الشموع الضرورية لإنارة الخيام. وهكذا عملنا - نحن الأربعة - في سرية تامة حتى مطلع شهر أكتوبر (تشرين أول). وهنا كان لا بد من الإسرار للحكومة بذلك، وكذا لعمال الأقاليم حتى يفتحوا في الوقت المناسب المكاتب لتسجيل المتطوعين.

سؤال : لماذا تأخرتم كل هذا التأخير في إخبار الحكومة؟

جواب : لأن كتمان السر كان أسهل بين أربعة أشخاص، أكثر منه بين ثلاثين، فما بالكم إذا أفشي السر لأزيد من أربعين عامل إقليم، سيما وأن تسرب هذا السر كان سيكون مميتا وستكون له انعكاسات وخيمة على الصعيد الدولي.

وبحلول 16 أكتوبر (تشرين أول) أصدرت محكمة العدل الدولية «بلاهاي» رأيها الاستشاري واعترفت فيه أن روابط البيعة كانت قائمة على مر العصور بين المغرب والصحراء. فوجهت خطابا إلى شعبي أعلنت فيه عن تنظيم المسيرة الخضراء. وقبل أن أتم خطابي، وكان ذلك في الساعة الثامنة والنصف مساء، في بهو مفتوح النوافذ، بدأت أصداء الصيحات المتعالية من الأحياء المجاورة للقصر بمراكش تصل إلى مسامعي. ففي كل مدن وقرى المملكة خرج الناس إلى الشوارع يهتفون ويصيحون : «نحن متطوعون». لقد تجمهرت في كل مكان حشود تفيض حماسا منقطع النظير. وكان بالإمكان لو أردنا ذلك أن نعبئ مليونا أو مليوني شخص لهذه المسيرة. وقد شكلت النساء عشرة في المائة من العدد الإجمالي للمتطوعين. واكتشفنا فيما بعد أن منهن من كن حاملات. وأن إحدى عشرة وضعن حملهن إبان المسيرة، ولم تحدث خلال شهر ونصف أية وفاة.

سؤال : ألم يبد بعض الزعماء الأجانب انزعاجا بمبادرتكم؟

جواب : على الصعيد الرسمي لم يكلف أي منهم نفسه عناء استفساري، على أنه إذا كان علينا خوض حرب فتلك قضية ترجع إلينا. وبما أن المغرب كان معبأ أحسن تعبئة فإن طرح سؤال من أي كان سيبدو سخيفا، كما أنه لم يحصل استفساري لمعرفة وجهة نظري من أي رئيس أجنبي. لقد انهمكنا في إعداد الأغطية، والمواد الغذائية، والأدوية اللازمة لثلاثمائة وخمسين ألف شخص. كما اشترينا لهم خزانات مطاطية لحفظ الماء، حتى لا يعانون من أي نقص فيه. ولم يحدث في أي وقت من الأوقات أن عرفت الأسواق خصاصا بسبب عدم التمكن من نقل الطماطم أو اللحوم مثلا. وكنت أنام قليلا، لكنني كنت أشعر بحيوية ونشاط ربما لم أحس بهما من ذي قبل. لقد كنت فخورا بشعبي. كما كنت في نفس الوقت أعي جيدا أنه لو سارت الأمور على خلاف ماكنت أتمناه لكان ذلك بمثابة كارثة أتحمل تبعتها وحدي.

سؤال : على أي شيء كنتم تراهنون وأنتم تعلنون عن هذه المسيرة؟

جواب : كان الأمر يتعلق ببرهان سيكولوجي يتوقف عليه كل شيء، حيث كنت أعرف أن فرانكو وحاشيته عسكريون. فإذا تصرفوا كعسكريين حقيقيين فما كنت أخالهم يطلقون النار على ثلاثمائة وخمسين ألف مدني عزل. وفي المقابل إذا تصرفوا كسفاكي دماء... والواقع أنه ابتزاز فظيع، لكنه ابتزاز مباح لا يعاقب عليه أي قانون.

سؤال : ولو حدث أن وقعت مواجهات ومذابح؟

جواب : في عديد من الخطب التي وجهتها آنذاك كنت أحذر المشاركين في المسيرة من أننا «قد نجد حقول ألغام ومصفحات، وقد نواجه مدفعيات، فوهاتها مصوبة نحونا». فخلال الشهرين اللذين كنت أهيئ فيهما للمسيرة الخضراء، كان هاجس واحد هو شغلي الشاغل. وكان يتمثل في ذلك السؤال الذي ما فتئت أردده على

مسامع جميع محاوري « ترى هل سيشبه الشباب المغربي المدلل الآن بمظاهر التقدم آباءهم؟ وهل ستكون لهم كامل الشجاعة لمواجهة الدبابات؟ » وكان كل من طرحت عليه السؤال يرد قائلا : « إن الشباب المغربي لم يتغير . إنه من طينة نفس الشعب » .

سؤال : هل كان خوان كارلوس مشاركا في المفاوضات؟

جواب : كلا . لم يكن في الواقع مشاركا . فقد تم إيفاده إلى جزر الخالدات لكبح جماح العسكريين وإفهامهم أن الأمر يتعلق بقضية اتخذت منحى سياسيا وليس عسكريا . وكان الجنرال فالديز قائد القوات الإسبانية بالصحراء رجلا في غاية الانضباط .كما أنه لم تصدر عن إذاعتنا الوطنية - طيلة المدة التي استغرقتها المسيرة - ولو كلمة واحدة نابية تجاه إسبانيا . وما كنا نردده باستمرار هو « أن محكمة العدل الدولية قد أنصفتنا » .

سؤال : في أي وقت بالضبط قررتم وقف المسيرة؟

جواب : في الوقت الذي أدركت فيه جميع الأطراف المعنية أنه يستحسن أن تحل الدبلوماسية محل الوجود بالصحراء .ولم يكن إرسال المغاربة في مسيرة إلى الصحراء بالأمر الأكثر صعوبة . بل كان الأكثر من ذلك هو التأكد من أنهم سيعودون بنظام وانتظام عندما يتلقون الأمر بذلك . وهم مقتنعون بأن النصر كان حليفهم . وذلك ما حصل بالفعل . وبهذا الخصوص فقد روى لي الملك « خوان كارلوس » فيما بعد واقعة طريفة للغاية . هي أن صحفيا إسبانيا استقل سيارة أجرة من « أكادير » للالتحاق بالمسيرة الخضراء في طرفاية . وعلى بعد مائتي كيلومتر من أكادير سمع السائق خطابي الذي أعلنت فيه أن المسيرة قد أدت مهمتها . وطلبت من المشاركين فيها العودة . فتوقف السائق على الفور وعاد على أعقابه . فسأله الصحفي وهو في غاية الاندهاش : « ترى ماذا دهاك »؟ . فأجابه السائق : « لقد أمر ملكنا بالعودة وعلي أن أمتثل لأمر سيدنا »

سؤال : كيف كان رد فعل بومدين تجاه المسيرة الخضراء؟

جواب : لقد أوفدت له الحاج محمد باحنيني وزير الدولة الأمين العام للحكومة - الذي كان صديقي وأستاذي والذي كان بحق ذاكرة المغرب - وبعد عودته روى لي أن بومدين في حالة غير طبيعية حيث بادره القول : « إنها حماقة . إن تجميع 350 ألف شخص ليس أمراً هيناً إذ تصعب السيطرة على الوضع . لاسيما وأن ذلك يحدث على حدود بلادي وأنا معني بهذا الأمر » . والواقع أن بومدين كان يبحث عن أي سبب يمكنه من الزعم أنه معني بالموضوع .. فهو لم يخف محاولته هاته ...إذ كان يردد مطالبته على الدوام بتقرير المصير في « فيتنام » و« الكامبودج » انطلاقا من اقتناعه الراسخ . لذلك كان يرى أن من الجور الصارخ ألا يطالب بنفس الشيء للبوليساريو الذي كان يوجد على حدود الجزائر . إنه لغريب حقا أن يقول بومدين عن نفسه إنه مولع بالديموقراطية ومناصر لتطبيق مبدأ تقريرالمصير .

سؤال : ومتى التقيتم به بعد المسيرة الخضراء؟

جواب : لم أره قط منذ المسيرة الخضراء . ففي سنة 1979 كنا قد اتفقنا على الالتقاء في سرية تامة ببلجيكا . وأشعرنا بذلك السيد « راس » رئيس المخابرات البلجيكية الذي بحث الموضوع مع العاهل البلجيكي . والوزير الأول . ووزير العدل . وقد هيأ لنا البلجيكيون قصرين متجاورين . واقترح علي بومدين تاريخ 10 يوليو (تموز)

فقلت له : « إنني في يومي تاسع وعاشر يوليو (تموز) أكون دائما منشغلا بعيد الشباب. ألا نلتقي بعد بضعة أيام من ذلك؟ » إلا أنه بعد أيام قليلة سقط طريح الفراش ونقل إلى موسكو ثم أعيد إلى الجزائر وهو في غيبوبة تامة. إلى أن وافاه الأجل المحتوم. وعلى أية حال كان من الأفضل عدم التقائنا.

سؤال : لماذا؟

جواب : لأنه كان سيسفر عن لقائنا بدون شك اتفاق وتسوية لقضية الصحراء. وكان سيتوقف عن أي تدخل في شؤوننا الداخلية. لكنه لم يكن ليقبل مطلقا أن نسترد النصف الآخر من الصحراء الذي كان يريده إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. غير أن هذا الجزء من الصحراء رد إلينا بعد شهر من ذلك وبالضبط في 16 أغسطس (آب) 1979. وإذ ذاك تنفست الصعداء، وقلت مع نفسي « من حسن الحظ أن لقائي على انفراد مع بومدين لم يتم ». وكان جليا أنه لم يكن في مقدور الموريتانيين الحفاظ على الجزء الجنوبي من الصحراء. وأنهم كانوا سيتخلون عنه ذات يوم. كما كان باديا للعيان أيضا أن البوليساريو سيستغل الفرصة لينقض على الداخلة وجميع ضواحيها. لقد فطنت لذلك وقمت أنا ووزيري في الداخلية إدريس البصري والأركان العامة للقوات المسلحة الملكية بإعداد إدارة محلية انكبت على دراسة الخرائط الجغرافية. وذات صباح باكر. وبعد أن غادر آخر جندي موريتاني برج المراقبة بالداخلة. أقمت جسراً جويا تم عن طريقه نقل جميع السلطات العسكرية والمدنية والقضائية ومسؤولي الأشغال العمومية.

سؤال : أود أن أعود مرة أخرى إلى المسيرة الخضراء. فكيف يشعر المرء أن أمراً هاما يتم الإعداد له. وأن هناك فرصة سانحة يجب انتهازها؟

جواب : إن الأمر شبيه إلى حد ما بحالة الطقس. شريطة ألا يعيش المرء في بلد ذي فصلين فقط. حيث يكون نصف السنة شتاء ونصفها الآخر صيفا. وحيث يحس المرء بقرب تغير الجو. وعندما تتلبد السماء يتعين عليه اتخاذ قرار إما باللجوء إلى أقرب ميناء للاحتماء به. أو مواصلة الإبحار مع تلافي الصخور. والواقع أنني استشعرت تلك الأشياء. لكن لا أستطيع أن أشرح لكم ذلك بمزيد من التفصيل.

سؤال : ومع ذلك ففي سنتي 1979 و1980 كان يبدو أن الملف المغربي حول الصحراء لم يكن بالشكل المطلوب على الصعيد الدبلوماسي؟

جواب : أبداً. فلا يجب أن نغفل أن العالم كان آنذاك مقسما إلى مجموعتين. فهناك الغربيون الذين كانوا ينتمون إلى ناد، وهناك الاتحاد السوفياتي ومن يدور في فلكه الذين يكوّنون معسكرا. ففي النادي ليس هناك تضامن مطلق، سواء على المستوى الأفقي أو العمودي. أما في المعسكر، فإن التضامن يكون فيه مطلقا عن كل قيد. ومن هذا المنطلق فليس صحيحا أن الملف المغربي حول الصحراء لم يكن مسيراً بالشكل المطلوب. كل ما هناك أن الملف الجزائري كانت تتكفل به أزيد من ستين دولة. ففي كل مرة كان يذهب فيها مبعوث جزائري إلى إحدى العواصم الخاضعة لنفوذ الاتحاد السوفياتي كان يحصل على كل ما يطلبه من دعم لوجيستيكي سوفياتي. أما بالنسبة للمغرب، فلم يكن يعتمد إلا على بلد واحد أو بلدين من النادي الغربي وحتى هذا الاعتماد كان مرتبطا بمزاجهما. في حين أن الجزائر كانت تتلقى السند من جميع الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي بما في ذلك

سفاراتها وشبكاتها الإعلامية.

سؤال: وعندما تم سنة 1979 اعتراف خمس وثلاثين دولة بالجمهورية الصحراوية ألم يكن ذلك برهانا على كفاءة المعسكر السوفياتي؟

جواب: بكل تأكيد، وسأقدم لكم مثالا آخر. لقد ذهبت في زيارة رسمية للاتحاد السوفياتي، وكنت أعرف معرفة جيدة الوزير الأول السيد أليكسي كوسيغين الذي أعتبره من أبرز الشخصيات التي قابلتها. وقد كان ملما بملفاته أكثر بكثير من بريجنيف، وكان يتميز بسعة صدر مدهشة. وهنا أسوق لكم رواية: فقد كنت أتناول معه طعام الغداء بحضور بريجنيف وبودغورني، وحين حمل إلي كبير الخدم الشاي الذي أعده بالنعناع مال نحوي كوسيغين وهمس في أذني: «كيف تودون تقديم الشاي لهذين الفلاحين الروسيين وهما لا يعرفان إطلاقا حتى ما تعنيه كلمة شاي. دعهما يحتسيان الفودكا».

وخلال مقامي بموسكو حاولت التوصل إلى اتفاق بشأن إحدى القضايا. ذلك أن المغرب كان يستورد 80 أو 90 في المائة مما كان يحتاجه من مادة السكر. وكان يتعين عليه فضلا عن ذلك تسديد ثمن هذه المادة بالدولار. فتقدمت بالاقتراح التالي إلى كوسيغين: «إن الاتحاد السوفياتي ينتج السكر، فلماذا لا نبرم اتفاقا بهذا الشأن بحيث يستورد المغرب السكر من الاتحاد السوفياتي ويستورد الاتحاد السوفياتي من المغرب الحوامض والفوسفاط اللذين هو في أمس الحاجة إليهما، نظرا لأنه لا يستطيع استغلال منتوجاته بحكم ما يعرفه طيلة نصف سنة من صقيع وجليد. فرحب كوسيغين بالفكرة أيما ترحاب لأنه وجدها فكرة ممتازة. إلا أنه عاد لمقابلتي بعد الزوال وهو في غاية الحرج والضيق قائلا لي: «لقد أطلعتني المصالح التابعة لي أن هناك بندا في الاتفاقية المبرمة مع كوبا يمنعنا بتاتا من مضايقة أسواق «هافانا» وهنا أيضا يطفو المعسكر على السطح. فكوسيغين كان يعرف جيدا أنه سيخسر الكثير بعدم إبرام هذه الصفقة معي لكن لم تكن بيده حيلة. إذ لا يستطيع مضايقة كوبا.

سؤال: هل سبق أن التقيتم بكاسترو؟

جواب: في سنة 1963، وبعد قضية الصواريخ جاء كاسترو إلى الأمم المتحدة حيث كنت موجودا أيضا فاستمعت له وهو يوجه السب والشتم إلى الولايات المتحدة طيلة أربع ساعات.

وكانت الخطوط الجوية السوفياتية التي تؤمن الرحلات بين موسكو وهافانا تتوقف بالرباط. وذات يوم أشعرت أن كاسترو يود، وهو في طريقه إلى موسكو، الالتقاء بي أثناء توقفه بالرباط. وفعلا اجتمعنا لمدة ساعتين، وتناولنا طعام الفطور معا. وكان يرتدي الزي العسكري دون نياشين. وكان بسيغاره المعهود يتمتع بكياسة وثقافة مدهشتين.

سؤال: وما هي المواضيع التي تطرقتما لها؟

جواب: تحدثنا عن اختلافنا الإيديولوجي. ولقد ترك لدي الانطباع بأنه ليس ماركسيا متشبعا بالفكر الماركسي فحسب، ولكن أيضا كان رجلا مصمما على عدم الاقتناع بما سوى رأيه، مصما أذنيه عن كل المحاولات. وأعتقد أنه ذهب بعيداً في تعهداته. وكان يدرك أن الإخلال بالالتزامات يكون أحيانا أكثر أذى من مجرد التمسك باختيار معين.

ومهما يكن الأمر، وبما أنه كان يستعصي علي أن أجعل منه مسلما غير شيوعي كما كان يستحيل عليه أن يحولني إلى شيوعي ملحد، فقد أضعنا وقتنا ولكن بذكاء.

سؤال: لقد كانت وضعية المغرب بالصحراء سنتي 1979 و1980 صعبة للغاية وهو يتعرض لهجومات عنيفة؟

جواب: إن ما كان يفقد الأمور توازنها هو أننا لم نكن أبداً نرد على كل هجوم مكثف بهجوم مضاد، بحيث حرصت على الدوام على احترام أراضي الدول المجاورة. ولو فعلنا خلاف ذلك لعمت الحرب إفريقيا الشمالية.

سؤال: كيف تفسرون الموقف المتصلب لخلف بومدين الرئيس الشاذلي بنجديد؟

جواب: يتعين في البداية العودة بالذاكرة لظروف الجزائر آنذاك. فبعد وفاة بومدين كان هناك خمسة مرشحين لخلافته. وفي آخر لحظة قرر الجيش أن من يخلف بومدين يجب أن يكون عسكريا أولا، وفي نفس الوقت متوفرا على أسمى وأقدم رتبة عسكرية، فتوجهوا إلى الشاذلي الذي لم يكن له أي طموح، وكان شديد الحرص على الإقامة بوهران. وأفهموه أن مستقبل الجزائر واستقرارها رهينان بقبوله تولي السلطة. وفي الحقيقة فقد أجبر على تولي رئاسة الجزائر.

سؤال: ومن كانت له اليد الطولى على السياسة الجزائرية: هل العسكريون أم المدنيون؟

جواب: لقد أحدث المدنيون لنا متاعب أكثر مما خلقها لنا العسكريون. فقد أبان الحزب الوحيد في الجزائر عن تصلب يفوق بكثير تصلب القادة العسكريين، فهؤلاء كانوا سيختارون طريق التراضي، لكن رأي الحزب هو الذي تغلب في الأخير.

سؤال: رغم ما كان للجيش من وزن؟

جواب: لا تنسوا أن حزب جبهة التحرير الوطني كان آنذاك في أوجه، وكانت سياسة التصنيع المفرطة تبدو وكأنها حققت نجاحها في مجال إحداث مناصب للشغل،كما أن العملة الصعبة كانت تتدفق على البلاد بسبب ارتفاع أسعار البترول. وأمام تماسك الحزب أبى العسكريون إحداث مشكل للدخول في نوع من الانشقاق، غير أنه في سنة 1991 وبعد أحداث الجزائر العاصمة انسحب الجيش من الحزب الوحيد وذلك بمبادرة من الرئيس الشاذلي.

سؤال: متى تم أول لقاء بينكم وبين الشاذلي؟

جواب: بمحض الصدفة، وكان ذلك بمكة المكرمة بمناسبة القمة الإسلامية بالطائف، فجميع رؤساء الدول والوفود قرروا أداء مناسك العمرة والطواف حول الكعبة المشرفة. وبما اني كنت أديت هذه المناسك، فقد صعدت إلى قلب الكعبة للتعبد، بينما كان الآخرون يطوفون حولها. وفي الوقت الذي خرجت فيه من الكعبة المشرفة صادفت الشاذلي أمام الباب، ووجدنا أنفسنا مضطرين لتبادل الابتسامة ثم تصافحنا. والحقيقة أن القدرة الإلهية شاءت أن نلتقي.

سؤال: وماذا جرى بعد ذلك؟

جواب: لقد التقيت مع الشاذلي بعد بضع سنوات بمبادرة من الملك فهد. وتم اللقاء على الحدود قرب وجدة وجاء لتناول طعام الغداء معي تحت خيمتي، وتباحثنا طويلا لكن دون جدوى، وترك لدي انطباعا بأنه لا

يؤذي. وأنه طيب، ومستقيم. وليس فظا ولا مغرورا. وكنت على علم بأنه سبق للشاذلي أن ذهب مرارا لمقابلة بومدين ليقول له: «إنك لست على صواب في قضية الصحراء. وأنا ضد ما تفعله». غير أنه للأسف ترك لدي أيضا انطباعا بأنه قد جرفه تيار نظام الحزب الوحيد الذي كان الجيش ينتمي إليه آنذاك.

سؤال: ميزتم قبل قليل بين النادي والمعسكر. من هم أعضاء النادي الذين كانوا أكثر تحفظا تجاه المغرب في قضية الصحراء؟

جواب: لقد كان الإسبان الأكثر تحفظا وأساؤوا إلينا كثيرا ومارسوا لعبة مزدوجة. إلى أن جاء الاشتراكيون إلى الحكم فأبانوا عن قدر كبير من الواقعية. والآن فإن اتفاقية صداقة تربطنا بإسبانيا ونحن نعيش في صفاء تام.

سؤال: وماذا كان موقف «خوان كارلوس»؟

جواب: يحق لي أن أفتخر وأعتز بأنني كنت أول من كاتبه بصفته ملكا. وعلاقاتنا جد حميمة ونتخاطب بصيغة المفرد. وقد إعتدنا أن يتصل بي هاتفيا أو أتصل أنا به كلما حدث مشكل. لم تكن له سلطة تغيير مجرى سياسة حكومته. لكنه اعتبر على الدوام أن الصحراء مغربية. وأن هناك بلدا يتعين إرجاعها إليه هو المغرب دون غيره. كما أن العديد من العسكريين الشباب المستنيرين كانوا يشاطرون خوان كارلوس هذا الرأي وجميعهم ينتمون للجيل الجديد.

سؤال: هل تحدث لكم خوان كارلوس عن دوره الحاسم في إفشال المحاولة الانقلابية لـ 23 فبراير (شباط) 1982 بإسبانيا؟

جواب: لقد قال لي بكل خجل: «قبل أن أتوجه إلى محطة التلفزيون لإلقاء خطابي المندد بالمحاولة الانقلابية استدعيت أبنائي لأشرح لهم كيف يتعين الإعلان عن قراري وأية إرادة يجب أن تواكب اتخاذه والتعبير عنه» فسألته: «هل ساورك القلق في لحظة من اللحظات؟» فرد: «أبدا. فقد كنت أعلم أن الجيش سيعيد الأمور إلى نصابها لكنه كان علي أن أبين عن الحزم» وهنا انتهى حديثنا.

الفصل الرابع عشر

الخلافة

سؤال: ماذا كنتم ستفعلون لو أخفق رهانكم على المسيرة الخضراء؟

جواب: عندما عدت إلى الرباط قادما من أكادير صعدت إلى شرفة القصر لأتأمل اخضرار ملعب الغولف. ونظرت إلى البحر نظرة مغايرة وأ نا أخاطب نفسي: «لقد كان من الممكن أن لا تعود إلى الرباط إلا للم حقائبك استعدادا للمنفى». فلو فشلت المسيرة لكنت استقلت. إنه قرار أمعنت التفكير فيه طويلا بحيث كان يستحيل علي أن أترك على الساحة ضحايا لم يكن لهم من سلاح سوى كتاب الله في يد والراية المغربية في اليد الاخرى. إن العالم كان سيصف عملي بالمغامرة... وكما نقول عندنا في اللهجة المغربية: «ما كان بقي لي وجه أقابل به الناس».

سؤال: كيف كنتم ستتصرفون دستوريا وسياسيا؟

جواب: كنت سأشكل مجلسا للوصاية في انتظار أن يبلغ نجلي سن الرشد، وكنت سأذهب للعيش في فرنسا أو في الولايات المتحدة الأمريكية وبالضبط في نيوجيرزي، حيث أتوفر على ملكية هناك.

سؤال: أكنتم سترحلون عن المغرب؟

جواب: أجل. وفي هذه الحالة كان غيابي سيكون جسديا فقط، لأن المرارة لن تفارقني لاسيما وأنني ذقت طعم المنفى.

سؤال: ألم ينتبكم الخوف من أنكم كنتم ستتركون وراءكم سلطة ضعيفة وهشة؟

جواب: على أية حال لم يكن علي أن أغادر المغرب فورا.

سؤال: ألم تكونوا أكثر استعجالا للأمور من والدكم؟

جواب: كنت أكثر استعجالا عندما كان عمري عشرين سنة. وخفَّ هذا الاستعجال عندما بلغت الخامسة والعشرين. وقلَّ بشكل كبير وأنا في الثلاثين من العمر.

سؤال: والآن ألا تعتقدون أن الوقت يظل عاملا هاما؟

جواب: الآن أنا أكثر استعجالا، لأنني أرى أنه قد يصل المرء الى سن يسقط معها في الخَرَف ويجر معه بلده في متاهته.

سؤال: مما يعني؟

جواب: مما يعني أنه ينبغي على المرء عندما يبلغ سنا متقدمة من العمر أن يتنازل عن الحكم. ومادمت قادرا على حل مشاكل بلادي فإنني أفضل العمل على حل أكبر ما يمكن من هذه المشاكل. إن لديَّ تراكما من الدروس هي خلاصة أزيد من ثلاثين سنة من التجربة عانيت فيها أحيانا الأمرين. وأريد ان أعطي لهذا البلد كل ما في طاقتي وما تختزنه جعبتي ما استطعت إلى ذلك سبيلا. ولهذا السبب فأنا مستعجل.

وعلى صعيد آخر، فهناك الآن نقاش حاد بين فقهاء القانون الدستوري الانجليز منذ أن أثيرت إمكانية تنازل ملكة انجلترا عن العرش لفائدة نجلها شارل. فمدرسة ارتأت انه ليس من حق الملكة إليزابيت التنازل عن العرش. وبالنسبة لأصحاب هذه المدرسة، فالشعب الانجليزي هو الذي أجلسها على العرش وهو وحده، بعد الله تعالى، الذي يمكنه وضع حد لملكها. إني لا أتفق مع وجهة النظر هذه وأعتبرها قمة العبودية. إذ ينبغي أن تترك لكل

إمسان إمكانية التقاعد.

في هذا السياق، فإن قصة الجنرال دوغول فريدة في نوعها في الحياة المعاصرة، فقد توفي وهو في أكثر مما كان عليه سنة 1945، نشاطا وصفاء ذهن. وعلى العموم، فمن النادر أن يبلغ المرء تلك السن المتقدمة التي بلغها دوغول ويبقى محتفظا بجميع ملكاته.

سؤال: ومتى انتابكم هذا الاحساس بالاستعجال النسبي؟

جواب: منذ حوالي عشر سنوات. فبمجرد ما يتجاوز المرء سن الخامسة والأربعين يراوده الشعور بأن الشيخوخة بدأت تدب إليه. فالسلطة كما تعلمون شبيهة بالرحى، فإن لامسها المرء بلطف صقلته، وإن هو، على العكس، ضغط عليها بقوة مزقته إربا إربا.

سؤال: وأنتم، ألا تتمنون قضاء بقية عمركم في السلطة؟

جواب: لو ترك لي الاختيار وأراد الله، لما فعلت ذلك. ففي هذه المهنة لا ينبغي أن يظل الخلف مدة طويلة جدا في الظل، لانه قد يشعر بنقص وتأخذ شخصيته في التلاشي، وعلى أية حال، فالأمر يتعلق هنا بحالة نفسية.

سؤال: بعدما يزيد على ثلاثين سنة من ممارسة السلطة أفلا ينتاب المرء مع ذلك الشعور بأنه أصبح لا يمكن الاستغناء عنه؟ أفلا يميل إذ ذاك إلى الاعتقاد كما كان يعتقد دوغول عن نفسه: «أنا ومن بعدي الطوفان»؟

جواب: هناك دول تشبه تلك الدُمى التي مُلئ جوفها بمعدن الرصاص، فحتى وإن وضعت على رأسها فإنها لا تلبث أن تستقيم وتعود إلى وضعها الطبيعي. هذا هو حال الدول العريقة، كلما تعرضت إلى نكبة إلا واسترجعت قوتها بسرعة. انظروا إلى انجلترا سنة 1940 وإلى فرنسا، وإلى المغرب. من كان يظن أن والدي الذي كان أصغر إخوته هو الذي سيعتلي العرش؟ الدول العريقة تظل دولا عظمى وتسترجع دائما همتها حتى ولو تعرضت إلى نكبات. ليس من الضروري إذن أن يشرف المرء على كل كبيرة وصغيرة.

سؤال: لكن كل شيء يظل محتملا، ففي دستوركم اختيار خلف الملك متروك للملك؟

جواب: إن الملك هو صاحب القرار، وبالطبع فلا بد من تعيين ولي للعهد لكي يتقلد زمام الأمور في حالة اختفاء مفاجئ للملك وبالتالي تلافي حدوث فراغ، غير أن هذا القرار يجب أن يزكى ببيعة، كما فعل والدي عندما عينني وليا للعهد. فلا ينبغي أن تكون هناك حتمية تجعل ولاية العهد من حق الابن البكر.

سؤال: هل يشكل ذلك بالنسبة لكم أمراً مهماً؟

جواب: نعم، في غاية الأهمية.

سؤال: وما هو شغلكم الشاغل؟

جواب: إن ما يشغلني كثيرا إلى درجة أنني أفكر في تحرير ظهير بشأنه - وليس قانونا لأنه سيمس مجالي أنا كما سيمس الملكية وأفراد عائلتي - هو تقنين زواج الأمراء المقبلين، لأنني أريد ان أحظر وإلى الأبد الزواج من أجنبية ولو عربية كانت أو مسلمة. فالوطنية والتعلق بالوطن والتمسك بأصالته أشياء نرضعها مع حليب أمهاتنا، كما أريد في نفس الوقت أن أقنن زواج الامراء أو ملوك المغرب.

سؤال: هل يمكن فعلا أن يتنحى الملك عن العرش؟

جواب : أجل ، بإحدى الطريقتين : إما أن يختاره الله إلى جواره ، وإما أن يقول مع نفسه : « على كل حال مالي وذلك . فليدبروا شؤونهم بأنفسهم » أي أنه يبقى ملكا لكنه لا يقوم بأداء رسالته .

سؤال : لم تراودكم أبدا هذه الطريقة الثانية؟

جواب : لا ، أبدا . فهذا البلد وهذا الشعب أعطياني الكثير ولم يبخلا عليّ أبدا بشيء .

سؤال : ومع ذلك فمع مرور الزمن ألا يتسرب إلى المرء نوع من الملل؟

جواب : في اليوم الذي سأصبح فيه ضعيف الجلد بحيث لا يحس هذا الجلد بأي شيء ، فسأكون مثل ميزان الحرارة المعطل ولن يكون بوسعي قياس درجة حرارة بلادي .

سؤال : ما هو أكبر خطر في ممارسة سلطة كالسلطة التي تمارسون؟

جواب : إنها أخطار عديدة ، لكن أكبرها بدون شك هو أن لا يكون هناك تجاوب بين الحاكم والمحكومين . وهذا قد يحدث ، والخطأ دائما يكون خطأ الحاكم . والحقيقة أن 26 مليون مغربي لا يمكن أن يجدوا أنفسهم هكذا فجأة غير متجاوبين مع شخص واحد ، فذاك سيكون خطأ قاتلا .

سؤال : ألا زلتم تحافظون على نفس طريقة العمل واستيعاب المشاكل كما كنتم قبل عشرين أو ثلاثين سنة؟

جواب : إن الأمر يختلف ، فمن قبلُ كان علي أن أتعلم كل شيء ، أما الآن فعليّ فقط تطوير معارفي وبلورتها . وعلى أية حال فإننا لم نشاهد في مجال طرق إدارة دفة الحكم اكتشافات أو اختراعات بأهمية الاكتشافات والاختراعات الحاصلة في ميدان العلوم . فالطبيب أو الباحث مطالب بالاطلاع وإجراء التجارب باستمرار . أما في السياسة فهناك فقط تكيُّف متواصل مع معطيات الحياة التي لا تبقى هي نفسها وذاتها دائما ، بل تتغير كل مرة . غير أنه يتم التعامل معها بنفس الوسائل .

سؤال : وكيف يكون رد فعلكم اليوم تجاه فشل ما؟

جواب : عندما يكون المرء في فورة الشباب لا يكتشف الفشل بسرعة . لأن هذا الفشل قد يأتي من أحد شيئين : إما تجاهل للأهداف ، أو جهل من طرف المرء بنفسه . غير أنه مع التجربة يتحول جهل المرء شيئا فشيئا إلى نوع من المعرفة الصرفة ، وتتقلص لديه احتمالات الخطأ .لنأخذ مثلا مسألة المديونية الخارجية ، فلقد استطعنا حتى الآن معالجتها بشكل طيب ، وإذا تعقدت الأمور في الأشهر القادمة - وهو شيء غير وارد - فيمكنني عندئذ أن أؤكد لكم أن ذلك سيكون بالنسبة لي بمثابة فشل ذريع .

سؤال : هل يمكن أن تذكروا لي مشروعا عظيما تودون إنجازه بحيث يكون مسك ختام رسالتكم؟

جواب : إن المغرب بمثابة فسيفساء بشرية وجغرافية . ولهذا الغرض أريد تحقيق اللامركزية لأترك يوما الجهات تتمتع باستقلالية كبيرة على شاكلة المقاطعات الألمانية « لاندر » ، وذلك سيكون بالتأكيد في مصلحة المغرب ، بحيث يكون التنفيذ أسرع والتصور أكثر واقعية . فالمغرب حباه الله بتنوع رائع لأنه يزخر من الناحية الجغرافية بصحراء شاسعة ، وواحات نخيل وارفة الظلال ، وثلوج تكسو جباله ، وسهول خصبة ، فضلا عن سواحل مترامية الأطراف على المحيط الأطلسي ،والبحر الأبيض المتوسط ، ولا ينقصه إلا صقيع القطب الجنوبي .

سؤال : أفلا تخشون من أن تتسبب هذه اللامركزية في تشجيع تصاعد موجة التوتر وبروز نوع من الانفصال؟

جواب: لا. إن الأمر لا يتعلق بمركزية مطلقة دون أن يكون هناك حد أدنى من الارتباط بالسلطة المركزية. وأثير هنا احدى الخصوصيات، هي أننا يمكن أن نسير في اللامركزية إلى أبعد الحدود مادمنا متمسكين برابطة البيعة. فكلما تم احترام هذا الميثاق من طرف الأجيال المقبلة كان بإمكان السلطة المركزية ترشيد الجهات المغربية أكثر فأكثر، لأن المواطن المغربي سيبقى على مر الأحقاب ذاك الإنسان المؤمن الذي يؤدي فريضة الصلاة ويصوم رمضان ويحج إلى بيت الله الحرام. وطالما أن هذا البلد بلد مسلم فلن يكون هناك أي خطر. وعندما يصبح بلدا علمانيا، وهذا لن يحدث على الإطلاق، عند ذاك فقط يمكن أن تؤدي اللامركزية إلى التصدع.

سؤال: وهذا يعني أن خلافتكم ثابتة ومستقرة؟

جواب: بالطبع، لأن هذا ما ظل عليه الحال منذ 1200 سنة. فهناك معجزة مغربية لا أقول علوية أو إدريسية أو موحدية. فالحكمة الإلهية شاءت ذلك طيلة 1200 سنة، وعندما تشاء القدرة الإلهية غير ذلك فلن يبقى للملكية وجود مهما كانت خصال من سيخلفونني ولا بد هنا أيضا من الإيمان بالقضاء والقدر.

سؤال: يحس المرء أنكم حائرون بين الرغبة في أن تسير الأمور كما تتوخون والإيمان بالقضاء والقدر.

جواب: لا. إنه ليس ذلك القضاء والقدرالذي تحدث عنه بعض الفلاسفة الأوروبيين الذين لا يفقهون في ذلك شيئا، إنه على العكس من ذلك نوع من الشك الميتافيزيقي الذي ليس هو التشكيك، بل يجعل المرء يقترب من اليقين.

سؤال: عندما يكون المرء على رأس السلطة ألا يشعر حقا بأنه يؤثر في الأحداث ويصنع نوعا ما التاريخ؟

جواب: بكل تأكيد. فبتولي المرء زمام الأمور وتحليه بالرغبة في إعطائها مسارا معينا فإنه يجد نفسه حتما يساهم في صنع التاريخ.

سؤال: وكيف يكون شعور المرء؟

جواب: هناك بدءا الشعور بتحقيق إنجاز هش، وكأن المرء أمام مولود جديد يتعين السهر عليه ورعايته حتى يكبر وينمو. وهذا ليس بالأمر اليسير. فالأمراض التي تتربص بهذا المولود، إما لسوء احتساب الوقت، أو لسوء تقدير البيئة الإقليمية، أو لسوء تنفيذ التدابير من طرف الساهرين على تنفيذها تجعل الوليد مهددا بالموت في أية لحظة.

سؤال: إذن بالنسبة لكم فممارسة السلطة شيء هش، معرض للعطب وليس هناك وضع سياسي ثابت على الدوام؟

جواب: إن الأمر يتعلق هنا بهشاشة وبحركة دائبة وبمجرد ما تأخذ هذه الحركة مسارها الصحيح فإن خطورة الهشاشة تتقلص بشكل كبير.

سؤال: بعد ثلاث وثلاثين سنة من الملك، هل في المغرب ثوابت تعتقدون أنه لا محيد عنها أبدا؟

جواب: أجل، أولا، وجهنا المغاربة نحو الزراعة الكثيفة وتشييد السدود كما شرعنا في اقتحام مجال الصيد البحري الذي يشكل ثروة هائلة، وهذه ثوابت لا محيد عنها. وخلال أربع سنوات من الجفاف التي عرفناها لم ترتفع أبدا أسعار الحوامض والفواكه.

وأعتقد أنني مكنت المغاربة أيضا من كتاب جديد للجغرافية، أو على الاقل طبعة جديدة لها، بحيث أصبحوا يعرفون جيدا المكانة التي سيتبوأها بلدهم في القادم من العقود. وهذا التبوؤ ستساهم فيه العديد من الروابط والأواصر.

سؤال: وأين تكمن مواطن الضعف بالنسبة لهذه المكتسبات؟

جواب: هناك مواطن ضعف، لكنها ترجع إلى عدم الاستقرار المتنامي الذي يعرفه العالم، غير أنها مواطن ضعف بنيوية فيما يخص المغرب.

سؤال: ما هو النهج الذي تسلكونه في مواجهة نفاد صبر فئة من الشباب واحباطاتهم وهم يريدون الذهاب بعيدا وبأقصى سرعة؟

جواب: في رأيي أنه أمام نفاد الصبر هذا لا ينبغي إطلاقا أن يكون الرد هو تقديم دروس في الأخلاق، بل يجب أن يكون الرد على الشكل التالي: «تريدون بلوغ الهدف في ظرف أربع سنوات، أنا أرى أن ذلك يلزمه ست سنوات لكن ذلك لا يمنع من أن نحاول ونجرب حظنا» وأحيانا يكون رأيي هو الصائب. وفي بعض الأحيان تكون أربع سنوات كافية لتحقيق ذلك.

وفي غالب الأحيان يجد المرء نفسه في مفترق الطرق حيث يختلط نفاد الصبر بالصبر، لتتمخض عنهما نسبة معقولة من الطمأنينة. وفضلا عن ذلك فأنا أعي أن هناك نوعا من التباطؤ في عمل الإدارة. كما يوجد جمود قوي مرتبط بالعمل وبالتالي فلم أكن أبدا ممن يقولون: «فلننطلق لكن على مهل».

سؤال: بالنظر إلى المجتمع المغربي وتقاليده ما هي السرعة التي قد يأخذها هذا التحرك؟

جواب: في هذا الشأن بالذات أعتقد أن هناك أمورا لا يتعين تحريكها كاحترام التقاليد وحرمة الآباء والأساتذة. فلا يوجد من بين أفراد المجتمع المغربي ولو طفل واحد كيفما كان سنه ومستواه الاجتماعي لا يقبّل يد والده. لأنه لو فعل خلاف ذلك فسينظر اليه على أنه غريب عن المجتمع المغربي.

سؤال: بماذا توحي لكم إذن المجتمعات الغربية حيث الأواصر العائلية متفككة في الغالب الأعم؟

جواب: إنها تبعث على الشفقة. فإذا ما شرعنا يوما ما في بناء دار لإيواء العجزة بالمغرب فذلك يعني أن المغرب الحق قد انتهى. وعلى أية حال سأكون أول من يتقرب الى الله بإحراقها.

سؤال: لقد كانت هناك أحداث عنف وموجات استياء في سنوات 1965 و 1981 و 1984 وحتى مؤخرا، هل أخذتم في ذلك على حين غرة؟

جواب: إن هذه الأحداث ولله الحمد لم تكن عامة بل كانت محصورة في بعض المناطق والمدن كفاس والدار البيضاء...

سؤال: فأنتم إذن، لا ترون في الأحداث العنيفة المحصورة خطورة؟

جواب: أنا لم أقل ذلك، فأحداث الشغب مُعدية ـ عكس المرض الذي يمكن التغلب عليه بعلاجه ـ ولا علاج يوقف تفشي وباء فكري.

سؤال: بخصوص مدينة الدار البيضاء، ما هي الأحداث التي جرت بها والتي تعتبرونها أشد خطورة، هل هي

أحداث سنة 1965 أم أحداث 1981؟

جواب: لا جدال أنها أحداث 1981. ففي سنة 1965 كان الأمر يتعلق تقريبا بجيل تلقائي. وعلى العكس من ذلك فأحداث سنة 1981 كانت مقصودة ومنظمة.

سؤال: لماذا؟

جواب: لأنها حدثت قبيل أربعة أيام فقط من توجهي إلى نيروبي للدفاع عن ملف الصحراء.

سؤال: فالأحداث إذن كان مخططا لها بتنظيم. لكن من خطط لها؟

جواب: هناك شيء، قد لا تستسيغونه. فليس هناك ما أستهجنه أكثر من أن أتحدث عن فئة من شعبي أو من سكان بلادي حديث المعلم عن تلميذ قبيح السلوك. إني لا أطيق ذلك. على العكس من ذلك أرتاح كل الارتياح لإعطاء نقط جيدة والإعلان عنها، وأنا فخور. لكن عندما يتعلق الأمر بالشجب والتنديد فإنني أحبذ أن تبقى الأمور في الكتمان.

سؤال: لكن أحداث الدار البيضاء لسنة 1981 كانت بسبب مشروع لحكومتكم كان يقضي بالزيادة في أسعار بعض المواد الغذائية.

جواب: لقد أجرم المتظاهرون لسببين: اولا لاستباقهم الاحداث فالمرء لا يلجأ أبدا إلى الاحتجاج قبل أن يلحقه ظلم بالفعل. ثانيا هناك ألف طريقة وطريقة للاحتجاج. لقد ارتكبت جرائم قتل من طرف أشخاص يعانون من مشاكل كانت تتطلب التسوية.

سؤال: لقد ألقيتم بعد ذلك خطابا حاولتم فيه تهدئة الأمور واعترفتم فيه بأن الوضع في الدار البيضاء، مع ما تعج به من أحياء الصفيح، قابل للانفجار. وبين يدي الآن النص الحرفي لما صرحتم به.

جواب: إني راغب في الاستماع إليه.

سؤال: لقد جاء ذلك في خطابكم بتاريخ ثامن يوليو (تموز) 1981، حيث قلتم يا صاحب الجلالة: «.. ذلك السكن الذي لا يليق بالكرامة الإنسانية (...) الذي تركناه نحن المسؤولين يبنى (....) وهنا نجد خللا كبيرا وقع في المغرب منذ خمس وعشرين سنة. فمنذ هذا التاريخ لم نهتم إلا بالمدن والقرى، ونسينا البادية. والنتيجة ها نحن نراها ...».

جواب: أعتقد أن هذا أبعد من أن يشكل صك اتهام لي.

سؤال: إنه ليس باتهام ولكنه فقط إثبات لحالة متدهورة.

جواب: هل يمكن أن تذكروا لي، ولو بلدا واحدا، لا يعاني من البطالة، وليس به مدن صفيح ولا بؤساء. إنها للأسف، حالة بلدان الشمال وبلدان الجنوب معا. وقد كانت لي على الاقل الشجاعة للاعتراف بذلك في خطاب رسمي أعلنت فيه كذلك عن عدد من التدابير.

سؤال: أفلا تشكل الدار البيضاء مدينة تمركزت فيها كل المشاكل التي يتعين على المغرب التصدي لها خاصة ما يتعلق بالكثافة السكانية والتكتل العمراني؟

جواب: بالتأكيد يمكن أن نقول إن الدار البيضاء حوت عينات لجميع المشاكل. لكن إجراءات عديدة تم اتخاذها.

فهناك الآن خمس عمالات أسست بالدارالبيضاء، حتى تكون الإدارة قريبة من المواطنين وتلبي حاجياتهم. ثم حاولنا إيقاف الهجرة القروية إلى هذه المدينة. وقد كانت الإحصائيات التي نشرت قبل ستة او سبعة أشهر جد إيجابية. فالدارالبيضاء ليس بها الآن. سوى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة. في حين كانت التوقعات تقدر لها حتى الآن أربعة ملايين ونصف مليون نسمة.

وهناك معطى آخر. هو أن الدارالبيضاء ليست مدينة عتيقة. إنها لم تكن شيئا يذكر إبان الحماية. إلا أنها عجت شيئا فشيئا بالبدو الذين أصبحوا بيضاويين. وهذه الهوية اصبحت قائمة الآن كما هي قائمة منذ قرون بالنسبة لسكان مدينة الرباط مثلا وفي رأيي أن ظاهرة العمران الذي تعرفه الدار البيضاء عنصر هام جدا لأمنها واستقرارها. بالنسبة لمستقبل المغرب.

الفصل الخامس عشر

الثورة الإسلامية.. والشاه

سؤال: في نهاية السبعينيات، شكل سقوط شاه إيران، الذي كان يعتبره الغرب نظاما مستقرا وقويا، حدثا بارزا، هل فوجئتم بذلك؟

جواب:لقد كان الشاه صديقي، لكنني أحسست في وقت ما أنه ارتكب خطيئة التكبر، وأنه بدأ ينحرف، وقد لاحظت ذلك لاول مرة سنة 1972 عندما أقام احتفالا ضخما بمدينة بيرسيبوليس التاريخية، حيث أراد أن يتباهى بألفي سنة من التاريخ، ناسيا بضعة قرون من الإسلام ذلك أنه في ذلك العهد لم تكن إيران مجرد موطن للثقافة والديانة الإسلامية، بل غدت مركز إشعاع للفكر والحضارة الاسلاميين. إذن فعندما رأيته يقيم جدارا من الصمت على الفترة الإسلامية ليظهر الأسطورة الآرية، أحجمت عن الاستجابة لدعوته.

سؤال: ما هو التبرير الذي قدمتموه له؟

جواب: لم أقدم له تبريرا،قلت له فقط إنني مشغول جدا، وأوفدت شقيقي، وقد أخذني الشاه على ذلك، لكنه عندما جاء إلى المغرب كلاجئ تكلمنا في الموضوع معا، وقال لي «ربما كنت على صواب».

سؤال: ألا تعتقدون أن اختيارات الشاه السياسية ترجع في معظمها إلى تكوينه وإلى التربية التي تلقاها؟

جواب:لا يجب أن نغفل أمرا أساسيا: هو أن مناطق إيران الكبرى التي طبعت هذا البلد بطابع الإسلام، هي مناطق الوسط والجنوب، والشاه كان ينتمي إلى شمال كاسبيان، تذكروا ملامح وجهه، فلم تكن بشرته سمراء كبشرتي او كبشرة أغلبية الايرانيين.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تربيته تمت خارج إطار الحضارة الإسلامية، فقد تربى في مدرسة سويسرية، في حين أن ما أنقذني أنا، هو أنني قضيت بسبب ظروف الحرب سنوات شبابي هنا بالمغرب، وإلا ربما كنت سأصبح نصف غريب في بلدي.إن الشاه لم يترعرع وسط محيطه الذي يمكن أن أقول انه كانت تصطرع فيه تناقضات ولكن بصفة إيجابية، أعني أنه كان مجتمعا محافظا وذا نزوع الى المعاصرة، فالخطأ إذن لم يكن خطأ الشاه وحده، كما أن الشاه تقلد الملك مبكرا بعد أن اطاح الحلفاء بوالده.

لقد شهدت حياة الشاه حدثا شبيها بقضية أنف كيلوباترا،إذ لولا ذلك الحدث لما حل بإيران ما حل بها، بعد عودة الشاه من المنفى ذهب لدفن والده بمصر حيث اقام مدة طويلة، وهناك تزوج أخت الملك فاروق واتى بها معه الى طهران، وهكذا أصبح خدام بلاطه كلهم مصريين من الحاجب إلى المارشال، مرورا بمختلف الخدم، وكانوا جميعا يتكلمون العربية وكان المحيط السيكولوجي إسلاميا سنيا، ولو أنجبت له فريدة أخت الملك فاروق وليا للعهد لما طلقها، ولأدى الصلوات الخمس كل يوم، ولكانت هناك رابطة ثقافية وروحية مع مصر عن طريق توأمة جامعة الأزهر بالقاهرة مع جامعة أصفهان وشيراز، ولكان في النهاية من شأن هذه الروابط أن تغير مجرى التاريخ الإيراني.

إلا أن الشاه عوض أن يقوم بذلك وبعد تطليقه لفريدة تزوج ضريا ذات الأصلين الإيراني والألماني وانزلق هكذا إلى العلمانية.

سؤال: وما هي الأخطاء الفادحة التي ارتكبها الشاه؟

جواب: إن الخطأ الجسيم الذي ارتكبه الشاه هو في نظري تعيينه للشاهبانو وصية على العرش، فلا الاسلام،

(ولا أتكلم هنا عن الأصولية أو النزعة الدينية المتطرفة). ولا المجتمع الإيراني كان بإمكانهما قبول اختيار من هذا القبيل. إنني لا أتصور جنرالات إيران ومارشالاتها المرصعة صدورهم بالنياشين والشخصيات السياسية كانوا يرضون أن تقودهم امرأة. فذلك ليس من تقاليد الشعب الإيراني. واكتملت حلقات المسلسل عندما بدأت عائلة الشاه تكيد للامبراطورة. وذات يوم التقيت السيدة فرح وكان ذلك قبل سقوط النظام وقلت لها معلقا على تسميتها وصية على عرش إيران: «لقد قُدمت لك أسوأ خدمة بتخويلك دور الوصي على العرش».

وحين استقر الشاه فيما بعد بالمغرب تباحثنا طويلا في الموضوع. وقلت له: «إن الوصي على العرش في بلد مسلم يعني أنه يقيم الصلاة باسم جماعة المسلمين. وينحر أضحية عيد الاضحى نيابة عن الأمة. ويمكنه أن يصعد الى المئذنة ليؤذن للصلاة. أي أنه يقوم بكل ما هو محرم على المرأة القيام به في بلد إسلامي يأخذ بالمذهب السني». إنه لشيء غريب ولا يخطر ببال أحد.

سؤال: ما هي العبر التي استخلصتموها من سقوط الإمبراطورية الإيرانية؟

جواب: إن أول درس يمكن استخلاصه من ذلك هو أن النظام لا بد أن يكون له حد أدنى من الجذور التي يقوم عليها. ومأساة الشاه تكمن في أن نظامه لم يتوفر له الوقت الكافي ليتجذر. وثاني درس هو انه في بلد متمسك بدينه كإيران، كان الأمر يتطلب تلافي عدد من الاستفزازات.

سؤال: ما هي هذه الاستفزازات؟

جواب: استفزازات دينية. بحيث كان ينبغي مثلا تلافي اظهار الامبراطورة فرح في مسجد أصفهان وهي ترتدي تنورة تكشف عن ساقيها. وهو شيء محرم في الأماكن المقدسة الإسلامية. كما كان يستوجب تلافي بث صور الشاه على شاشة التلفزة أثناء تقديم الأخبار وهو يرفع يده حاملا نخب الشامبانيا.

سؤال: هل يتعلق الأمر بأخطاء أم باستفزازات؟

جواب: ربما لم يكن الأمر بالنسبة للشاه يتعلق باستفزاز بل بما هو أدهى من ذلك ألا وهو اللامبالاة.

سؤال: ألا يعتبر الفشل السياسي قبل كل شيء فشلا لشخص؟

جواب: في حالة الشاه الفشل فشل شخص افتقد الأسس والجذور.

سؤال: ألا يعود فشله أيضا إلى سعيه الدائم إلى حرق المراحل للاسراع بعصرنة بلاده والارتباط بالغرب ارتباطا وثيقا.

جواب: لقد خلق بالخصوص بورجوازية أبانت عن عقوقها له. ولاسيما النساء اللائي كن بفضل الشاه يتزعمن التقدم ومع ذلك قبلن في ما بعد العودة إلى التشادور.

سؤال: ألا تعتقدون أن الغربيين تنكروا لجميل الشاه. فقد كان حليفهم إلا أنه بمجرد ما فقد السلطة أصبح منبوذا منهم وكأنه أصيب بالطاعون أو الجذام.

جواب: وأين يتجلى تحالفه مع الغرب؟

سؤال: لقد كان الأمريكيون يعتبرونه دركي الخليج كما كان يلعب دور المعتدل في مواجهة مطالب الدول الأعضاء في منظمة الأوبيك.

جواب: لكنه في سنة 1973 هو الذي كان وراء أول أزمة بترولية. وكاد يقوض جميع الشركات الأمريكية الكبرى التي كانت تبيع للعالم كله تجهيزاتها والتي وقعت ضحية ارتفاع أسعار البترول.

سؤال: لكنه ظهر بعد ذلك أكثر اعتدالا.

جواب: أجل. لكن السيف سبق العذل.

سؤال: إذن فالشاه في نظركم لم يكن حليفا للغربيين؟

جواب: بلى. إنه كان يبدو كحليف للغرب. لأنه كان يجهل كل شيء عن العالم العربي والإسلامي الذي لم يكن يقيم معه اية علاقات خاصة.فالعلاقات الوحيدة المتميزة كانت له مع الباكستان. إذن فبجهله لهذه الدول بدا الشاه وكأنه حليف للغرب وعندما حدثت الكارثة لم يجد أحدا يدافع عنه.

سؤال: فبالنسبة لكم إذن لم يكن هناك تنكُر من الغربيين للجميل؟

جواب: إنني لا اعرف مدى العلاقات التي كانت تربط بينهما وبالتالي فلا يمكن أن اقول ان موقف الغربيين منه كان واقعيا أو ناكراً للجميل.

سؤال: أيتناسق الأمران معا أحيانا؟

جواب: نعم. لكن في هذه الحالة يكون الموقف لا أخلاقيا البتّة.

سؤال: السياسة تكون أحيانا لا أخلاقية أليس كذلك؟

جواب: لا أعتقد ذلك.

سؤال: أو على الأقل فاقدة للحس الأخلاقي..

جواب: ولا حتى هذا أيضاً. فلنأخذ مثلا حالة تاليران عندما قال له نابليون: «عدني أن لا تخونني أبدا» فكان رد تاليران «صاحب الجلالة أعدكم أنني سأخبركم ليلة قبل تنفيذ خيانتي لكم». فهنا أيضا شيء من الأخلاقية. ولكنه ضنيل وضئيل جدا. وأنا شخصيا أعتقد أن المرء بإمكانه أن يقول لغيره: «لم أعد أتفق معك. لأن مصلحتي أو مصلحة منطقتي تتطلب أن أعارض ما تمثله. وها أنا أعلن لك عن ذلك بكل صدق. فلنبق أصدقاء. لكنني سأقف في طريقك معارضا لك». إن أفضل المساعي هي التي يأخذ بها خصمك علما ولا أقول عدوك.

إذن لا بد أن يكون هناك سبب معقول يجعل المرء يتحول إلى الخندق الآخر ليجد نفسه في مواجهة صديق. غير أنه في مهنتنا نحن قادة الدول. فإن هذا السبب الهام ليس هو من نوع الأمراض التي يستحيي منها المبتلى بها والتي يتعين إخفاؤها. بل لا بد من التعبير عن ذلك بكل صراحة. وأؤكد لكم أن المرء سيخرج دائما بهذه الطريقة من المأزق بأقل ما يمكن من الخسائر.

لقد كان والدي يقول لي باستمرار: «إن الجهر بالحقيقة هو أفضل سياسة خارجية». فالتآمر ليس من طبعي إطلاقا.

سؤال: متى قررتم دعوة الشاه إلى المغرب؟

جواب: بمجرد مغادرته إيران. بحيث عندما علمت أنه حل بالقاهرة اتصلت به هاتفيا لأقول له: «إنني يا رضا حزين لما أصابك.ومهما يكن فاعلم أنك إذا أردت المجيء إلى المغرب فستجد أبوابه مشرعة لك على مصراعيها

وسوف يسرنا غاية السرور أن نستقبلك ويمكنك أن تمكث بالمغرب ما شئت من الوقت».

سؤال: وماذا كان جوابه؟

جواب: كان يبدو بالغ التأثر. وقال لي: «أشكرك». وبعد أسبوع من ذلك هاتفني ليقول لي: «إني قادم». وأقام بالمغرب عدة أشهر وكان يقود سيارته بنفسه ويتجول في الشوارع. وكان الطريق الذي يسلكه محاذيا للجامعة. ولم يحصل قط أن ارتفع صوت واحد مناهض له. وعندما كان يذهب إلى المدينة القديمة كان الناس يحترمون وجوده ويعاملونه وأفراد عائلته كضيوف. ولم يشتك قط من أي مظهر من مظاهر العداوة أو البغض ولا حتى من نظرة يشتم منها ذلك.

سؤال: وكيف كان؟

جواب: لقد كان قد تخلى تماما عن فكرة العودة إلى إيران مما شكل له تمزقا داخليا.

سؤال: ولماذا غادر المغرب؟

جواب: لقد كنت بصدد الإعداد لاستقبال المؤتمر التحضيري لوزراء الدول الإسلامية وكانوا - لا محالة - سيثيرون ضجة أو يمتنعون عن المجيء إلى المغرب إذا ظل به الشاه. وبالتالي فإن الرأي العام المغربي سيتأثر لذلك. وبما أنني لا أحبذ تصعيد الأحداث خصوصا السلبية فإني فضلت أن أطلب منه مغادرة المغرب وهكذا أطلعته على الأمور ووضحت له أن الأمر يتعلق بالمصلحة العليا لبلادي «فيستحسن أن تبحث لك عن مكان آخر تقيم به بعض الوقت ثم تعود».

سؤال: وكيف كان رد فعله؟

جواب: كان حزينا وكئيبا.

سؤال: ما هي آخر ذكرى تحتفظون بها عنه؟

جواب: لقد صعدت إلى الطائرة التي كانت ستقله لتوديعه. وآخر رسالة تلقيتها منه كانت عبارة عن نظرة ملؤها الحزن العميق. نظرة إنسان يفوض أمره لله.

سؤال: ولماذا لم يعد؟

جواب: لقد تطورت الأمور بشكل سيئ بالنسبة له. لقد توجه إلى باناما حيث تدهورت حالته الصحية. ولم أكن أعرف أن المرض الذي يعاني منه سيؤدي سريعا إلى نهاية مأساوية. ثم استوجب الأمر نقله إلى الولايات المتحدة الأمريكية قصد العلاج. وأعتقد أن ادارة الرئيس كارتر فقدت شجاعتها. إذ لولا الضغوط التي مارسها عليها كل من نيكسون وكيسنجر وروكفيلر والتدخلات الفعالة لأصدقاء آخرين لما تأتى للشاه أن يطأ التراب الأمريكي. لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمر آنذاك بأزمة أخلاقية كبرى لم تزدها قضية الرهائن المحتجزين بالسفارة الأمريكية في طهران إلا استفحالا.

سؤال: كيف كان رد فعلكم على الثورة الإيرانية ووصول الخميني إلى السلطة؟

جواب: لقد رأيت في الثورة رمزا لانتقام شديد القسوة. لأنه لم يكن فقط انتقاما للملالي من الجهل - المقصود أو غير المقصود - بقواعد الدين. بل بالخصوص انتقاما من أولئك الذين لم يكونوا يملكون شيئا من الذين كانوا

يملكون كل شيء تقريبا . وقد كنت فيما أعتقد أول من اتخذ موقفا واضحا عندما أعلنت براءتي من الإسلام الذي يدعو إليه النظام الجديد . ويمكنني القول إن الخميني خيب ظني فيه فيما بعد .

سؤال : ما هو الشيء الذي انتظرتموه منه ولم يفعله؟

جواب :كنت أعتقد أن هذا الرجل سيدعو إلى العودة إلى الاسلام الحق وإلى احترام التعاليم الإسلامية ، وأنه كان في نفس الوقت مدركا لتقدمه في السن ، وواعيا بعدم إلمامه بحقائق بلاده التي عاش بعيدا عنها أزيد من خمس عشرة سنة . لقد استمعت له في شرائط مسجلة ، وكنت أقول في نفسي إن هناك بالتأكيد هامشا بين الدعاية والبرنامج . وعندما كنت أرى ذلك الحشد من الشباب المكوَّن في الجامعات الأمريكية والأوروبية والإيرانية الذي كان يحيط به كنت أتوقع أن يقول لهم : « لقد عدت وحققت هدفي . والآن جاء دور الشباب لينهض بشؤون هذا البلد » . وظللت اعتقد ذلك إلى آخر لحظة . وكنت أقول لوزرائي : « الله وحده يعلم من هو الفريق الذي سيشكله الخميني لتسيير البلاد ، فقد كانت له حرية الاختيار بين أولئك الشباب المعتزين بهويتهم الإيرانية و ثقافتهم الإسلامية العربية » .

وحين رأيت أنه لم يكتف بالبقاء في السلطة ، بل شكل حكومة من أناس منغلقين مانحا بذلك كل القوة للأئمة والملالي ، أدركت أن إيران تتجه نحو المجهول .

سؤال : فلننتقل إلى موضوع آخر ، كيف كانت علاقتكم مع الرؤساء الأمريكيين؟

جواب : لقد تعرفت على كنيدي الذي أعطاني دلائل على ما كان يضمره من صداقة حقيقية وذلك سنة 1963 إبان الحرب مع الجزائر . وخلال هذه الفترة المضطربة ذهب إلى حد إيفاد زوجته السيدة جاكي إلى المغرب لقضاء بضعة أيام بمراكش رغم أن الأمريكيين متشددون عادة فيما يخص توفير الأمن لأنفسهم .

كم كنت أتطلع إلى أن أرى كيف كان سيدير سياسته الخارجية لكنه وافاه أجله المحتوم . لقد كان يهتم بقضايا العالم الثالث وفي نفس الوقت كان يبدو - وقد ظهر ذلك جليا مع كوبا - جد منشغل بالحفاظ على قوة الولايات المتحدة الأمريكية وإشعاعها الدولي . وما أزال أتساءل كيف كان سيعمل من أجل استقطاب دول كانت تشكل أنذاك الزبون الآيديولوجي والفكري للاتحاد السوفياتي ويحافظ في نفس الوقت على موقف حازم تجاه موسكو .

أما نيكسون فكان رجل سلطة وحزم وفيا لالتزاماته ومخلصا كل الإخلاص لأصدقائه . وبالتأكيد كنا سننجز الكثير معه لو لم يضطر إلى مغادرة السلطة في ظروف مؤلمة .

سؤال : في أبريل (نيسان) 1986 وعندما قرر الرئيس رونالد ريغان قصف ليبيا ألم يطلعكم على ذلك من قبل؟

جواب : لا . وأنا سعيد بكونه لم يخبرني . لأنني كنت دخلت مسلسل الاتحاد مع ليبيا وكنت سأجد نفسي مضطرا لأنبه العقيد القذافي إلى ذلك ، وكان الرئيس ريغان يعرف ذلك . وربما لهذا السبب لم يخبرني . ونفس الشيء كان سيحصل لو أن القذافي قال لي : « سأضرب هدفا أمريكيا » لكنت أجبته : « لم يكن يستحسن أن تخبرني بذلك لأنه سيتعين علي إخبار أصدقائي » . لقد رصدت راداراتنا بعض التحركات ولكننا لم نعرف إلا في اليوم الموالي أن الطائرات الأمريكية قصفت منزل الرئيس الليبي .

سؤال: متى تم أول لقاء بينكم وبين الرئيس الأمريكي السابق بوش؟

جواب: لا أتذكر السنة التي تم فيها ذلك على وجه التحديد. ولكن كان ذلك بمناسبة زيارة عمل قام بها إلى المغرب عندما كان مديرا لوكالة المخابرات الأمريكية. وقد مكنته هذه الوظيفة من اكتساب معرفة مدققة للقضايا. غير أن إحدى نقط ضعف عدد من رؤساء الدول تكمن في عدم امتلاكهم ذاكرة جغرافية. وأؤكد لكم أن عشر دقائق من الحديث مع مخاطبكم أمام خارطة تغني عن عرض يستغرق نصف ساعة.

سؤال: هل تعتبرون أن للمخابرات دورا أساسيا؟

جواب: أجل. إذا كان حبل التفاهم موصولا بينكم وبين رئيس دولة يمكنم الاتفاق على التواصل خارج القنوات الدبلوماسية التقليدية بواسطة المخابرات. ويكون الاقتناع إذن حاصلا من أن رسالتكم ستصل مباشرة دون أن تكون موضوع تعليق أو تمر عبر شخص آخر. وتلك طريقة أمارسها مع عدد معين من البلدان فنحن نقوم بواسطة السفراء بتسوية القضايا الجارية. ولكن عندما يتعلق الأمر بإبلاغ رسالة مستعجلة أو ظرفية بشكل مباشر الى المسؤول عن البلد المعني فإنني إذ ذاك أستعمل قناة خاصة تمكن من الحصول على رد في ظرف 24 ساعة.

سؤال: ولكن هل من الممكن أن تندس داخل المخابرات عناصر تكتشف لصالح الغير ما يجري بها وأن تكون مصالح المخابرات نفسها مسخرة للغير؟

جواب: إنني أتعامل مع رؤساء المصالح. وهذه الأمور لا يمكن التعامل معها إلا من منطلق الجدية. في كثير من الأحيان يحضر عندنا بالمغرب بمناسبة الاحتفال بعيد العرش أو بعيد الشباب (ذكرى ميلادي) العديد من رؤساء المخابرات. وقد حدث أحيانا بمراكش أن جلس خمسة رؤساء للمخابرات إلى نفس المائدة. وكان في إمكان كل أحد أن يراهم في مجلسهم ذاك. ولا ينبغي نسج روابط في سرية تامة مع مخابرات أجنبية. بل يجب أن يعلم بذلك الآخرون مما يجعل الجميع يتقيد بالحكمة ولا يحتاج معه إلى تبريرات لما يعمل في هذا المجال. فلا أعدى لي من أن أكون مضطرا إلى تبرير ما فعلته.

سؤال: هل تولون أهمية قصوى للأخبار التي ترد عليكم؟

جواب: أجل. كم من مرة أخطأت في تحاليل تتعلق بأحداث كانت تجري في بلدان أجنبية. ومع ذلك فإنني أتابع بحرص التحاليل المنجزة من طرف الآخرين. والتي يمكن أن تكون عواقبها وخيمة بدل مواصلة أخطائي. إن أخطائي لا يمكن أن تكون ذات وقع مأساوي على سير العالم. إن ماهو مهم هو أن تقدر أن تقول لأصدقائك «انتبهوا. لقد بادرتم بشكل خاطئ. لأنه ينقصكم هذا التقييم أو ذاك بالنسبة لسياسة الشرق الأوسط أو العالم الإسلامي مثلا».

سؤال: ولو أنكم اكتشفتم مثلا تسرب عناصر من وكالة المخابرات الأمريكية الى مصالحكم المخابراتية.

جواب: وهل أحتفظ بأسرار تستحق أن تكون سببا للإضرار بشكل مستمر بصداقة ثابتة؟

سؤال: كيف تفسرون كون العديد من القادة يظهرون الحذر الكبير تجاه مصالحهم الاستعلامية؟

جواب: لأنهم لم يعينوا هم أنفسهم رؤساء هذه المصالح ولأنهم لا يعملون معهم مباشرة. ففي ألمانيا وأمريكا وانجلترا واسبانيا يتم تعيين المسؤولين عن الاستخبارات من طرف الوزير الأول وهم يتعاونون مع من يعينهم بشكل

منتظم. أما في فرنسا فيسود التساهل التام. (واستسمح على استعمال هذا اللفظ). إن فرنسا البلد الوحيد من بين الدول العظمى - فيما أعلم - الذي يدعو وضعه في هذا المجال إلى القلق.

سؤال: هل كان بلدكم نقطة لقاء بين مصالح استخبارات متضادة؟

جواب: في المغرب تم أول لقاء بين وكالة المخابرات الأمريكية ومنظمة التحرير الفلسطينية. حيث صرح صديقي الجنرال فرنون والترز، الذي كان مديرا مساعدا لوكالة المخابرات الأمريكية للفلسطينيين لدى لقائه بهم للمرة الأولى: «أنا جنرال في الجيش الأمريكي ولن تكون لي فيكم أدنى ثقة إذا ما ضربت منظمة التحرير الفلسطينية إحدى المصالح الأمريكية». ولم يحدث ذلك أبدا. مما جعل والترز يعرف أن الفلسطينيين رجال يقفون عند وعودهم. وهكذا تواصلت الاتصالات.

سؤال: هل تولون نفس الاهتمام للمخابرات الداخلية المتعلقة بالوضعية في المغرب؟

جواب: إني أهتم بالمخابرات الخارجية لأنها تمدني بالمعلومات. وعكس ذلك فعندما تقدم إلي نشرة عن الأحوال الجوية وتقرير حول الوضعية الداخلية فإني أضع هذا الأخير جانبا.

أقرأ نشرة الأحوال الجوية باهتمام لأن المطر مهم عندنا. فمحصول زراعي سيئ يعني نبأ سيئا. وبعد يوم من العمل أفضل أن أقوم قبل النوم بتصفح كتاب أو مشاهدة فيلم على أن أقرأ تقريرا. إني أفضل أن أبقى بعيدا أسمع وأرى وأحلل على أن أكون مشدودا إلى النوم بالمطالعة.

الفصل السادس عشر

الإسلام والمسيحية والبابا

سؤال: في أية مناسبة التقيتم مع البابا يوحنا بول الثاني؟

جواب: إنني رئيس لجنة القدس، وكنت مفوضاً من طرف قادة الدول العربية للاجتماع به. وهكذا توجهت إلى الفاتيكان، مرفوقا بعدد من الفقهاء المغاربة، ودامت المقابلة بيننا نحن الاثنين أزيد من ساعة.

سؤال: كيف كان شعوركم وأنتم تدخلون حاضرة الفاتيكان؟

جواب: شيء عجيب! حينما يعبر المرء تلك القاعات الرائعة، وتلك الصالونات التي تجسم تاريخا تليدا وثراءً متنوعا، فإنه يجد نفسه متجردا تماما من أية نفحة روحانية. إن الذاكرة تعود بنا إلى عصر النهضة ومشيل آنج والبورجياس. وباختصار، فإن المرء لا ينصب تفكيره إلا على السلطة الدنيوية. لقد كان لديَّ انطباع بأنني كنت أعيد قراءة مؤلفات مالي وإسحاق. ثم فجأة ووسط كل هذه الكنوز التي لا يمكن لأية مجموعة شركات تأمين في العالم أن تؤمّن عليها ضد الحرائق، يلاحظ المرء هامة بيضاء عادية تتحرك دون ضجيج، تبدو وكأنها تنزلق، أو تحلق في تناسق مع هذا الديكور. وفي هاته اللحظة بالذات، وبصفتي مسلما محافظا على أوقات صلواتي فقد تأثرت أيما تأثر لهذا المشهد».

سؤال: ما هو انطباعكم عن يوحنا بول الثاني؟

جواب: إنه رجل يتمتع بشخصية فذة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ذلك أنه يؤثر حقا في الآخرين.

إنه يبدو لي في الوقت ذاته مثاليا وواقعيا، إذ هو مزيج من الروحية والمادية. إننا لا نراه وقد نزل من الطائرة ووطئت قدماه أرضا إلا وقبّلها. فهل هي حركة لا إرادية لمواطن بولوني رزحت بلاده تحت وطأة الاحتلال مرات عديدة على مر القرون؟ أو هل يريد أن يستدل بعمله هذا على أن الله موجود في كل مكان، وأن الأرض هي قبل كل شيء، وحيث كانت أرض الله؟ لا أدري! فهذا الخليط الغريب وهذه الازدواجية يظهران كذلك في طريقة حديثه. لقد تحادثنا باللغة الفرنسية. وقد كان يركب جمله بدون عناء، ويتحدث بلكنته الجشة لغة فرنسية سليمة يمكنني القول إنها مشوّقة للقراءة لو قمنا بكتابتها كما يتفوه هو بها.

سؤال: وكيف تمت المقابلة؟

جواب: كانت هناك في البداية بعض المشاكل الصغيرة فيما يخص البروتوكول. لقد أصر المسؤولون بحاضرة الفاتيكان الذين استقبلوني، كل الإصرار، على أن أبدأ زيارتي بمقابلة كاتب الدولة المونسنيور كازارولي. وقالوا لي: «تعلمون ياصاحب الجلالة أن جميع رؤساء الدول يفعلون هكذا. فإذا لم يتم الأمر على هذا النحو فسيخلق سابقة».

وكان جوابي: «بالفعل، ليست هناك سابقة، إنها المرة الأولى التي يزور فيها الفاتيكان رئيس دولة إسلامية، فضلا عن كونه سبط الرسول وأمير المومنين. إنني جئت هنا لأقابل البابا وليس المونسنيور كازارولي الذي يمكنه أن يلتحق بنا فيما بعد».

وبمجرد تسوية هذا المشكل توجهنا مباشرة لمقابلة سماحة البابا الذي كان استقباله لنا في منتهى الحفاوة. لقد سبق الاتفاق على ألا يستقبل إلا ستة أو سبعة أشخاص من أفراد الوفد المرافق لي، وكان يضم مربيات ووصيفات فرنسيات وإسبانيات كن حريصات على اغتنام هذه المناسبة لمقابلة البابا.

وعلى العموم. فقد خلقنا جوا من الفوضى في الفاتيكان وخرقنا مقتضيات البروتوكول : لقد استقبل البابا خمسة وعشرين شخصا من المرافقين لي وأحاطهم بعناية فائقة. ولم تكن السُبحات متوفرة بالقدر الكافي. فأحضر أخرى. وكان هناك نقص في عدد شارات الصليب فطلب إحضار المزيد. وكنت أتأمل هذا المشهد. لقد كان البابا يبتسم ابتسامة تنمّ عن سخرية وهو يعاين ارتباك المسؤولين عن البروتوكول. وأعتقد أنه كان لديه الانطباع بأنه أوقعهم في مأزق.

وإثر ذلك بدأنا مباحثاتنا التي كانت مستفيضة مركزة جدا.

سؤال : ما هي المواضيع التي تناولتها المباحثات؟

جواب : الوضعية القانونية للقدس.

سؤال : هل كانت مواقفكم متباينة؟

جواب : أبدا. فلقد اتفقنا على الإقرار . وهذا هو أيضا موقف قادة الدول الإسلامية . بأن القدس لن تستعيد وضعيتها السابقة. ولا ينبغي الإبقاء على وضعيتها الحالية. ومن المحتمل أن تكون هاته النقطة من أعسر النقط في المفاوضات مع إسرائيل. فحينما نتحدث عن القدس. فإننا نضيف دائما لفظ الشريف أي أن المدينة مقدسة. وأذكركم أن المسيحيين وضعوا في الماضي كنيسة القيامة تحت حماية المسلمين. لأنهم كانوا يعلمون أن الدين الإسلامي يفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بسيدنا موسى. وسيدنا عيسى. في حين لا يؤمن المسيحيون واليهود بسيدنا محمد.

سؤال : ما هي نظرة البابا للإسلام؟

جواب : بادئ ذي بدء. أعتقد أنه ينبغي القول إن يوحنّا بول الثاني ليس كسائر البابوات. فقد كان من قبل نقابيا وممثلا مسرحيا بل وخطب للزواج. فهو بهذا مغاير للآخرين. إنه نسيج وحده. حينما يتناول مشكلا لا يمكن القول إن هذه مقاربة الفاتيكان أو مقاربة الكنيسة. إنه قبل كل شيء تحليل يوحنّا بول الثاني. لذلك لا أعتقد أن البابوات الذين سيتولون هذه المسؤولية في الأمد القريب سيكونون من نوعه. إنه يناضل من أجل نشر الدين المسيحي ولكن هدفه في مرحلة أولى هو استقطاب الملحدين. وأود القول إنهم أكثر عددا مما نظن.

سؤال : هل يعرف الإسلام جيدا؟

جواب : ليس كما كنا نتصور. بيد أنه كان يطرح أسئلة وجيهة. وقد التقيت به فيما بعد. ولاحظت أنه عمّق الملفات التي كنا قد تطرقنا إليها وقرأ كتبا وبحث في مراجع تتعلق بالإسلام. وبذلك نمّى معلوماته ومداركه. ولا ينبغي أن يعزب عن بالنا أنه سافر كثيرا. ومن المستحيل أن يجهل الإسلام وهو يمارس من روما نوعا من الوصاية على المسيحيين اللبنانيين الذين هم عرب يدينون بالدين المسيحي. ولكنهم يعيشون في مجتمع عربي.

سؤال : حينما يلتقي أمير المومنين برئيس الكنيسة الكاثوليكية ماذا يمثل هذا اللقاء؟

جواب : أعتقد أنه يمثل بالنسبة لي لقاء بين زميلين لا أقل ولا أكثر.

سؤال : أين قابلتموه فيما بعد؟

جواب : هنا بالمغرب بعد أن وجّهت إليه الدعوة. وحينما قدم الأسقف المكلف بحمايته للتحضير لهذه الزيارة

طرح مشكلا. لقد قال للمسؤولين المغاربة: «إن البروتوكول يقتضي أن يدخل البابا وحده إلى ملعب الدار البيضاء، حيث كان سيلقي خطابا. وهذا أمر يجري به العمل في كافة البلدان التي يزورها قداسته». لقد وضعت بذلك مصالح التشريفات والأمن عندنا في وضع حرج. لذلك ردّت عليه بقولها: «يتوجب علينا أن نستشير جلالة الملك في هذا الأمر». وفعلا عرضوا عليّ القضية. وحينما استقبلتُ الأسقف قلت له: «مونسنيور، لا يوجد سكان مغاربة مسيحيون. إذن أصغوا جيدا لما سأقوله لكم. فنحن نمثل بالنسبة إليكم أناسا ضالين. بينما نحن نعتبركم كفارا. فكيف تريدون أن يدعو زعيم الضالين السكان للخروج لتحية زعيم الكفار. هذا أمر مستحيل». فسألني الأسقف «أليست لديكم سيارة مصفحة؟» فأجبته: «لا. أبدا. أنا لا أركب سيارة مصفحة». وفي الأخير توصلنا إلى حل وسط. لقد امتطينا سيارتين من طراز مرسديس 600 سقفاهما قابلان للانفتاح. وتقرر أن يستقلّ البابا واحدة وأستقل أنا الأخرى، على أن نسير جنبا إلى جنب مسبوقين بفرقة من رجال الأمن الممتطين لدراجات نارية. وما أن أعلن بلاغ التشريفات أن ملك المغرب سيخرج بمعية سماحة البابا مهيبا بالسكان أن يخصصوا لسماحته استقبالا يليق بمقامه حتى احتشد مليونا نفر على جنبات الطريق الذي سيمر منه الموكب الرسمي انطلاقا من القصر الملكي بالدار البيضاء، إلى ملعب محمد الخامس. حيث تجمع مائة ألف شاب كانوا في غاية الانسجام والتجاوب. وبعدها أسر إلي البابا: «مواطنوكم يفهمون جيدا اللغة الفرنسية. فقد تتبعوا خطابي بدقة». لقد صفقت الجماهير طويلا تحية للبابا. وهكذا تمكن زعيم الضالين من استقبال زعيم الكافرين وشرفه أعظم تشريف.

وقبل بضعة أشهر توجهت في زيارة رسمية لإيطاليا. فقمت بزيارة سماحة البابا مرة أخرى. وهاته المرة تعانقنا ونحن نتوادع.

وخلال أحد لقاءاتنا قلت له: «سماحة البابا أدع لي كلما سنحت لكم الفرصة بذلك». وفيما بعدُ نقل إلي أحد المقربين من سماحته ما أسر به إليه: «قل لجلالة الملك إنني أفكر يوميا في ملك المغرب وأدعو له. إنها الإرادة الإلهية».

سؤال: هل هذا تشجيع لكم؟

جواب: بطبيعة الحال. ذلك أن الديانة المسيحية ديانة سماوية.

سؤال: ما هو في نظركم الفرق الأساسي بين الروحية في المسيحية والروحية في الإسلام؟

جواب: إن النفحة الروحية في الديانتين هي هي. وأعتقد أنه يتم إرهاق أذهان الأطفال المسيحيين بالكثير من الخرافات ذلك أنه في اعتقادي لا توجد في نهاية المطاف أسرار غامضة في الديانة المسيحية. بل هناك فقط رموز ميتافيزيقية. إننا نجد أيضا في القرآن الكريم الحديث عن الروح القدس الذي هو الوسيط بين الإله وخلقه على الأرض. وهو الذي جاء بالبشرى إلى مريم، المرأة الوحيدة التي ذكرها القرآن بالاسم.

سؤال: هل قرأتم الأناجيل؟

جواب: لقد قرأت العهد الجديد وجزءا من التوراة وزابور داوود وحكم سليمان وزكرياء. ويمكنني أن أقول إن الإنجيل الذي فهمته جيدا أكثر من جميع الأناجيل الأخرى، هو إنجيل سان ماتيو.

سؤال: وما هو الأكثر استعصاء على الفهم في رأيكم؟

جواب: أطلب من الكنيسة أن تسامحني، ذلك أن هناك عددا من غير المسلمين يتحدثون عن الإسلام مما يجعلني أسمح لنفسي بأن أعبر أنا أيضا عما يخالجني. لقد كان لي مشكل مع سان جان، فأولا أعتبر أنه ليس حواريا كالآخرين، لأنه لم يكن معاصرا للمسيح. ثم إنه عند قراءة رؤيته لفناء الدنيا - والكثير من الأصدقاء المسيحيين يعتقدون ذلك أيضا - يمكن للمرء أن يتساءل هل هي نهاية العالم على مستوى الرعب والهلع؟ أم أن الخطاب لم يتم استيعابه. والحالة أن كل دين من الأديان يجب أن يفهم على مستوى اللغة.

سؤال: ما هو حكمكم على المذهب الكاثوليكي؟

جواب: أعتقد أن هذا المذهب قد أفلس، لا على صعيد العبادة، لأن هذا الأمر ليس من شأني، ولكن على مستوى التربية. فالمذهب الكاثوليكي لم يتخذ موقفا كامل الصراحة ضد بعض التجاوزات والمبالغات في تنظيم المجتمع.

سؤال: في أية ميادين؟

جواب: خاصة في ميدان حيوي بالنسبة لكل مجتمع، ألا وهو الخلية الأسرية. إني أعلم أن الكنيسة ليست لها سلطة زمنية في البلدان التي تعتمد العلمانية، ولكني أعتبر أنها لم توضح بما فيه الكفاية فحوى روابط الزواج. وذلك عندما قبلت وسمحت بأن يولد أطفال ويعيشون مع أبيهم وأمهم، مع علمها بأنهما ليسا متزوجين، لا أقول إن هذا يتنافى مع الأخلاق، ولكن أقول إنه يفتقر إلى الحس الخلقي. إن الكتب السماوية توصي بالإحسان بالوالدين وتكريمهما. ولا يمكن الإحسان إلى أشخاص لم يتبادلوا القسم ولا تربط بينهم أية رابطة. كيف تريدون للطفل أن يترعرع وينمو في هذه الحالة في غير الشارع؟ إنه بذلك معرض للزلل في أية لحظة. لهذا استعملت لفظ إفلاس. إن الأمر لا يتعلق بالرجوع إلى القرون الوسطى، ولكن بالتذكير بأن ما يمنح القوة الجسدية والنفسية لشعب ما هو علمه بوجود قوة معنوية. وهذا ما عبر عنه «رابلي» تعبيرا بليغا بصيغة أخرى حينما قال: «علم بلا ضمير خراب للنفس».

سؤال: لم لا يمكن اعتبار التخلي عن التعلق بالله تقدما قد يعكس تحرر الإنسان في النهاية مما قد يتولد لديه من خوف؟

جواب: لا أعتقد ذلك. لقد كان الناس يخشون في البداية الرعد والديناصورات فبحثوا عن ملجأ، وأدركوا فيما بعد أن هناك ملاذا بعيدا عن الهراوة والبندقية، ملاذا يسعى كل رجل وكل امرأة في النهاية إلى اللجوء إليه، لذلك فكل من يدعي أنه لم يفعل ذلك يمكن نعته بأنه كذاب.

تعلمون أن الكثير من الناس منافقون. إنهم يشعرون بالسعادة وهم يرددون أنهم يعيشون بدون إله. إنه مجرد تباه. فمن منا لم يرفع عينيه إلى السماء، وهو يجتاز يوما ما ظرفا عصيبا في حياته، طالبا العون والسند، سواء تعلق الأمر بشغيل بسيط أو برئيس دولة. لقد كان السيد بريجنيف يدعي أنه لا يؤمن بالله، ولكن إنسانا في قدرته الإعلان عن حرب نووية ملزم بأن يؤمن بوجود شيء أقوى من مجرد القوة العسكرية.

سؤال: ولكن كيف تفسرون كون هاته المجتمعات الهشة سريعة العطب جذابة جدا؟

جواب: كل هذا لا يقلقني لولا وجود المخاطر المترتبة على وسائل الاتصال. إن المجتمع الغربي يظهر ليس على مستوى إرادته، ولكن على مستوى وسائل إعلامه ومنشوراته جذابا للغاية، أو بالأحرى نافذا مخترقا للحجب.

بطبيعة الحال لا داعي لفرض رقابة قد تكون أسوأ الحلول وتبدو أمرا غير ممكن في آن واحد. واليوم ومع توفر الأقمار الاصطناعية يمكن لكل واحد أن يختار البرنامج الذي يريد.

فلو حافظتم على «فيروسكم» لما اكتسى الأمر أية خطورة بالنسبة إلينا. ومع ذلك ينبغي أن تمدوا الأفراد بوسائل المناعة للدفاع عن النفس. وعلى أية حال فالأمر أقل خطورة بالنسبة لمجتمع إسلامي، لكوننا نظل حريصين في حياتنا اليومية على ممارسة شعائرنا الدينية. علينا أن نتفاهم: إني لا أؤيد إطلاقا المتزمتين، بل أنا مع المسلمين المتفهمين لحقيقة الدين الذين يدركون لماذا هم مسلمون ويتشبثون باقتناع بإسلامهم.

سؤال: ولكن علاوة على هاته المخاطر التي وصفتموها، هناك تهديدات داخلية خاصة بالمغرب قد تفضي إلى تفكك الخلية الأسروية، كالهجرة نحو المدن الكبرى على سبيل المثال.

جواب: لا بكل تأكيد. إن المدن تكبر وتتسع نظرا لكون الخلية الأسروية تتشكل من جديد، ذلك أن الابن يستقدم أبويه للعيش معه، وتصبح العائلة مكونة من عشرة أفراد يعيشون تحت سقف واحد، مما يجعلنا مضطرين إلى بناء المزيد من المساجد. ذلك أن الفائض مما تتسع له المساجد بفعل هجرة الأشخاص القادمين من البادية يجعل بعض المصلين يقيمون صلاة الجمعة في الشارع.

سؤال: صاحب الجلالة. إن الإسلام مخيف في الغرب. فهو يقدّم في غالب الأحيان كدين غزو وتعصب وعدم تسامح.

جواب: إن النظرة إلى الإسلام من خلال أشخاص مشاغبين ملتحين ومرتدين لزي أبيض تعد نظرة سطحية وبدائية للإسلام. وإذا كانت بعض الكتب تشجع مشاعر الخوف هاته، فلأن مؤلفيها هم إما نصابون وإما جهلة.

سؤال: ولكن يوجد إسلام غير متسامح.

جواب: إن الإسلام غير المتسامح لا يمت إلى الإسلام الحقيقي بأية صلة. ذلك أنه حيثما يوجد الإسلام فإن الجاليات الأخرى يمكنها أن تمارس شعائرها الدينية بكل حرية. والأكثر من هذا عليكم أن تتصفحوا الكتب التي ألفت حول الحروب الصليبية، فستكتشفون أن المسيحيين حينما احتلوا القدس بالغوا في حربهم إلى درجة أن خيولهم غرقت في الدماء، إلى حد الرُكب.

أما عندنا نحن المسلمين: فإن الحفاظ على شرفنا يمتزج مع الحفاظ على عقيدتنا. إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر في أي حديث من أحاديثه لفظ القتل بل على العكس من ذلك، كان يحض على الصفح والعفو والرأفة إلا في حالة واحدة؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «اقتلوا من لا غيرة له».

إن إنسانا بدون شرف هو مخلوق منعدم الكرامة، ويفتقد العناصر المكونة للشخصية، ويصبح مرتزقا ينعدم فيه أدنى حس أخلاقي، ويمكن التشكك في جميع تصرفاته.

سؤال: ومع ذلك هناك بعض التجاوزات المقلقة الناجمة عن موجة التطرف. لقد رأينا ذلك في إيران من قبل ونراه اليوم عند جارتكم الجزائر؟

جواب: أولا ليست هناك نزعة تطرف واحدة، بل هناك نزعات. إن التطرف الديني في الجزائر يشبه إلى حد ما التطرف في السودان الذي يختلف عن التطرف الإيراني، أو حتى عن التطرف الذي يظهره المجاهدون الأفغان. فلو

اجتمع المتطرفون فيما بينهم فلا أحد منهم سيكون له نفس التصور الذي للآ خر لتسوية القضايا التي يطرحونها. لا أقول إن هذه الظاهرة ليست مبعث انشغال، ولكن، ما دامت أسبابها ومظاهرها واضحة، فلا ينبغي إعطاؤها حجما أكبر من حجمها. إنها لا تشبه الماركسية التي يلفها نسيج موحد ومتناسق.

سؤال: هل يمكن لنزعة متطرفة مثل هاته أن تتنامى في المغرب؟

جواب: أبدا.

سؤال: لماذا؟

جواب: بادئ ذي بدء، لأنه على مدى مائتي وألف سنة من التاريخ تم التمازج العرقي بشكل تام بين البرابرة المنحدرين من اليمن، وعرب قريش الوافدين من سوريا ومصر وليبيا. فهؤلاء الأشخاص تزاوجوا وكونوا مجتمعا واحدا. إن المغرب بلد وسط، والمغاربة ليسوا شعبا اندفاعيا. ثم إن الأتراك لم يتمكنوا أبدا من إفقادنا شخصيتنا. وهذا عنصر من الأهمية بمكان، فهم توقفوا على حدود وجدة، وساعدناهم على مدى ستمائة سنة آلاف المرات بخوضنا الحروب إلى جانبهم، وبإرسالنا إليهم بواخر محملة بالقمح لدعمهم، وذلك على عهد أسلافي العلويين. ولكن كلما كانوا يحاولون اجتياز الحدود كنا نتصدى لهم على الفور ونردهم على أعقابهم.

سؤال: ولكن كيف يمكنكم التوفيق بين التقاليد ومتطلبات الحداثة التي لا محيد عنها؟

جواب: تعلمون أن التكنولوجيا والعالم المعاصر ليسا على الإطلاق عنصري تخريب. فالسعوديون ليسوا متطرفين ولكنهم إصلاحيون. لقد كان الهاتف ممنوعا في بلدهم، لأنه كان يعتبر جهازا شيطانيا. وفي النهاية حسم الأمر الملك عبد العزيز آل سعود فأعطى التوجيه التالي إلى أحد مساعديه: «ستتصل بي بالهاتف وأنت ترتل القرآن». وأطاع المساعد الأمر وقال عبد العزيز لحاشيته: «هل الشيطان الذي طرده الله من الجنة - لأنه عصى أوامره - كان يقرأ القرآن؟» فأجابوه: «كلا». فرد عليهم ابن سعود قائلا: «إذن عليكم أن تقبلوا هذا الاختراع». إن مثل هذا ما كان يحدث أبدا في المغرب.

سؤال: ما هو التعريف الذي تعطونه للإسلام؟

جواب: أقول إن الإسلام هو قبل كل شيء دين العلم. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أميا وكانت أول آية نزلت عليه هي «إقرأ» التي تكررت ثلاث مرات. وكان يجيب في كل مرة: «ما أنا بقارئ» وتضيف السورة: «إقرأ باسم ربك الذي خلق... الذي علم بالقلم...». إن كلمة «قلم» لها أهمية قصوى في هذه الآية. إنها تعني أن كل شيء لا يرتكز فحسب على ما يتوارث شفويا وعلى الذاكرة فقط، ولكن أيضا على ما يقرأ. ومن يقل القراءة يقل الكتابة والتفكير فيما يكتب، ثم التأمل في ما تم تحريره.

ولهذا فإن الإسلام كما سبق أن قلت هو دين سهل وممتنع في ذات الوقت. وهو ليس مفتوحا في وجه أي كان، ولكنه في متناول جميع أولئك الذين يرغبون في العلم. إن طالب العلم لا بد أن يكون متواضعا. والتواضع خصلة ضرورية لكل من يريد أن يكون مسلما. اسألوا السيد موريس بيجار عن هذا.

الفصل السابع عشر

النزاع العربي-الإسرائيلي

سؤال: متى بدأتم تهتمون بالنزاع الإسرائيلي - العربي؟

جواب: لقد بدأت أعي هذا المشكل سنة 1956. وكانت نقطة الضوء بالنسبة لي هي الحملة الفرنسية البريطانية على قناة السويس.

والواقع أن الاتحاد السوفياتي كان يساند دخول إسرائيل إلى حظيرة الأمم المتحدة رغم المعارضة القوية للعديد من البلدان وكانت بريطانيا على رأسها. وحينما لاحظت بضع سنين بعد ذلك تغيرا في موقف البريطانيين بمساندتهم لإسرائيل إبان حرب السويس، استخلصت أن الكل كان متفقا على أن تظل إسرائيل موجودة وألا تدمر أبدا. وعلاوة على ذلك ظل التعايش بين اليهود والعرب في المغرب منذ قرون احد مقومات هذا البلد. لقد قمت بزيارة للبنان لا أتذكر أكان ذلك في عام 1958 أو 1959. وخلال مأدبة عشاء حضرها مثقفون لبنانيون قلت بكل حسرة: «الخلاصة أن العرب لن يفلحوا أبدا في تسوية هذا المشكل. فأنا لو كنت مكانهم لاعترفت بإسرائيل وأدمجتها في حظيرة جامعة الدول العربية». يا إلهي! - كم تعالت الصيحات على إثر هذا الكلام. لكني واصلت حديثي: «بطبيعة الحال ومهما يكن من أمر، فإنها دولة لا يمكن أن تضمحل». ذلك أن اليهود الذين كانوا يعيشون في تلك الفترة في فلسطين كانوا يتحدثون بالعربية، ويتناولون نفس الطعام الذي كان يأكله العرب الفلسطينيون وازدادوا وترعرعوا في نفس الأحياء، وبالتالي كان المشكل آنذاك أقل حدة.

سؤال: ولكن جميع القادة العرب كانوا يعارضون ذلك؟

جواب: الحقيقة أنه فيما يتعلق بالقضية الإسرائيلية العربية هاته، فإن الذين أساءوا إلى القضية العربية كانوا هم العرب أنفسهم. فهم لو كانوا قد قبلوا التقسيم الأول لعام 1947 لما كنا قد وصلنا أبدا إلى ما وصلنا إليه اليوم.

ولكن بطبيعة الحال كان في تلك الحقبة تدمير إسرائيل ورمي اليهود في البحر يأتيان في مقدمة الشعارات المهيجة للمشاعر السياسية. فكل نظام كان يشعر بالاهتزاز أو يلقى معارضة كان يبتلع على الفور المواد المهيجة للمشاعر المكتوب عليها: «مناهض لإسرائيل». وتعود بي الذاكرة إلى القمة العربية التي انعقدت سنة 1965 بالدار البيضاء بحضور الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية، وجمال عبد الناصر، وعبد الرحمن عارف رئيس العراق، وعبد الله السلال من اليمن ،وأمين الحافظ من سوريا، وإسماعيل الأزهري من السودان، والهواري بومدين الذي كان يمثل الجزائر، وبطبيعة الحال الملك حسين عاهل الأردن. فحينما رأيتهم مترددين طلبت الكلمة. وستجدون بالفعل التقارير مدونة في محاضر الجامعة العربية. وقلت لهم: «اسمعوا - ليس هناك إلا واحد من حلين فإما أن نتفاوض من أجل تعايش سلمي - ولا أخفي عليكم أنني أفضل هذا الخيار، وإما أن نستغل عدم وجود تفوق تكنولوجي كبير لفائدة إسرائيل ونهاجمها. فإذا نحن لم نرد التفاوض من أجل التعايش فلا داعي لأن نضيع وقتنا، فلنبادر إلى الهجوم بجيش قوامه 100 مليون فرد حتى ولو كان مسلحا بالعصي فقط.

سؤال: وماذا كان رد فعلهم؟

جواب: تعلمون أنه لم تكن قد مضت آنذاك على اعتلائي العرش سوى أربع سنوات. وكنت بمثابة ذلك الشخص الذي قد ينسب إليه أنه يقض مضجع الآخرين. لقد أصغوا إلي، ولكنهم لم يأخذوا برأيي.

سؤال : ماذا كانت نظرتكم في تلك الحقبة لدولة إسرائيل؟ هل كنتم تعتبرون - مثلا - كما هو الشأن بالنسبة لعدد كبير من القادة العرب أن الأمر يتعلق بجسم غريب؟

جواب : نعم ولا . لقد كنت أسمع في تلك الفترة عبر أمواج الإذاعة بعض المسؤولين الإسرائيليين يتحدثون لغة عربية في غاية السلاسة . كما كان لبعضهم مثل أبا إيبان ، الذي تقلد منصب وزير الخارجية لفترة طويلة إلمام واسع بقواعد اللغة العربية .

وبخلاف ذلك فحينما كنت أرى إسرائيل مجسدة في السيدة غولدا مايير ، وهي امرأة ربما كانت جديرة بالاحترام ، وكانت أستاذة بالولايات المتحدة الأمريكية ولم تكن تنطق ولو كلمة واحدة باللغة العربية ، كنت شخصيا أغتاظ . لقد زاد هذا الأمرمن صعوبة البحث عن تسوية للمشكل . إن لي الكثير من الأصدقاء اليهود من الفرنسيين والأمريكيين والإنجليز ، لكن لدي اقتناع أنه حينما يضطلع اليهود المنحدرون من العالم العربي بمسؤولية فعلية في مسار المفاوضات فإننا سنقترب بشكل جدي من إقرار السلام . إنهم هم الذين سيتفاوضون بشكل أفضل .

سؤال : هل في رأيكم أن انتماء القادة الإسرائيليين إلى أصل أشكنازي وقدومهم من أوروبا الشرقية يجعلان كل تسوية تفاوضية أكثر عسرا؟

جواب : أجل . خذوا السيد شامير أو السيد بيغين كمثال . فهما كانا شاهدين على المذابح التي تعرض لها اليهود ، ولكن أولئك الذين كانوا يقتلون اليهود لم يكونوا عربا ، بيد أنهم بمجرد وصولهم إلى إسرائيل شرعوا على الفور في استحضار هذه الذكريات التي ظلت لصيقة بأذهانهم إلى حد أنها دفعتهم إلى تطبيقها على العرب اعتقادا منهم أن الوضعين سيان .كل هذا واليهود العرب عاشوا بصفة عامة في وئام مع عرب فلسطين .. وبكل تأكيد دون مآس شبيهة بتلك التي كان الغرب مسرحا لها .

سؤال : غير أن التهديدات المحدقة بإسرائيل منذ قيامها إضافة الى تصريحات بعض الزعماء العرب شديدة اللهجة وغير المستساغة كانت تبرر عدم ثقة الإسرائيليين .

جواب : إن العرب في اعتقادي كانوا ضحايا ما يمثل إحدى عظمى مزاياهم وعيبهم الوحيد في آن واحد ، ألا وهو التفصح في اللغة . فحينما كنتم تسمعون رجلا كالشقيري الذي كان آنذاك زعيما لمنظمة التحرير الفلسطينية يقول : « سنلقي باليهود في البحر ،وسنبقر بطون النساء الحوامل ، وسنخرج الأطفال وندوسهم بأقدامنا » ، لا بد أن تقولوا عن هذا الكلام إنه من قبيل الحماقة والوحشية .

سؤال : كيف عايشتم تصعيد التوتر الذي أدى إلى اندلاع حرب الستة أيام سنة 1967؟

جواب : لقد عبرت حينذاك عن موقفي بصراحة قاسية . ففي خطاب كنت قد ألقيته وأذيع على أمواج الإذاعة وشاشة التلفزة حمّلتُ جمال عبد الناصر كامل المسؤولية . وقلت مخاطبا شعبي : « لقد ظل السيد عبد الناصر ينادي على مدى أسابيع وأسابيع : « ينبغي أن نخرج القبعات الزرق من العقبة . إنني سأهاجم إسرائيل » فماذا سيكون موقفنا نحن المغاربة لو تم تهديدنا من الإسرائيليين بهذا الشكل؟ من المؤكد أنه كان سيكون علينا قبل أن يهاجمونا أن نبادر نحن بمهاجمتهم كما يقول المثل المغربي الدارج « نتغذى بهم قبل أن يتعشوا بنا » .

يا له من خطأ ! ما كان ينبغي تهديد إسرائيل دون مهاجمتها، بل كان يتعين تهديدها في الصباح والهجوم عليها في المساء، أو الالتزام بالصمت، حتى يتم الاستعداد بالشكل المطلوب.

وفيما بعد تحدثت مع عبد الناصر. وهنا سأنقل ما قاله لي بالحرف، لأنني لا أحرف أبدا التاريخ ولا كلام الموتى: « إن من رأى جميع طائراتي وهي تتعرض للقصف في قواعدها كان عليه أن يقول إن الجيش المصري أصيب بجلطة، وانتابته أزمة قلبية ».

سؤال: وهل كنتم تعتقدون أن الحرب ستقع بالفعل؟

جواب: بكل صراحة لا. لم أكن أظن أن إسرائيل ستشن عدوانها. وكنت أقول إنها تعودت على سماع صراخات وتهديدات جارتها المزعجة. لقد كانت تلك الحرب نكبة حقيقية. والأدهى والأمرُ هو دخول الأردن الحرب مما جعلنا نفقد القدس. وهل تعلمون لماذا خاض الملك حسين غمار الحرب؟ لقد خاضها بعدما اتصل به جمال عبد الناصر هاتفيا وقال له: « ماذا تنتظر؟ تعال لتشاركنا النصر ،إننا منتصرون ».

سؤال: ماذا كان شعوركم حينما علمتم أن إسرائيل استولت على القدس؟

جواب: لقد كانت الصدمة عنيفة. فأنا أرسلت قواتي لتحارب في مصر، لكنها اضطرت للتوقف في ليبيا، لأن الحرب وضعت أوزارها. لقد اعترف القذافي بذلك بكثير من الاندفاع والحماسة حين قال لي: « إنكم واحد من العرب الأقحاح، لأنكم أرسلتم مرتين في عامي 1967 و1973 تعزيزات عسكرية لمساندة أشقائكم ».

سؤال: ولكن ماذا قلتم للملك حسين بعد الحرب التي خاضها ضد إسرائيل؟

جواب: لا ينبغي أبدا أن نتحامل على أولئك الذين انخدعوا. ماذا يمكن أن يقال لرجل شاحب الوجه بدأ شعره فجأة يشتعل شيبا. لقد ضاع منه نصف بلده، و ضاعت منه مدينة القدس حيث ثالث الحرمين. إن الخطأ لم يكن خطأه.

سؤال: كيف تلقى العالم العربي هاته الهزيمة؟

جواب: أعتبر شخصيا أننا لم يسبق لنا أن أذللنا أنفسنا بأنفسنا كما حدث لنا سنة 1967. ففي سنة 1948 أمكننا التذرع بأن بعض المتاجرين في الأسلحة باعوا للعرب الأسلحة والذخيرة الفاسدة. وفي عام 1956 كان عذرنا هو دعم فرنسا وأنجلترا لإسرائيل. لكننا نتحمل المسؤولية كاملة في سنة 1967.

سؤال: لقد تميزت سنة 1967 كذلك بطفو القضية الفلسطينية على الساحة.

جواب: كان الواقع الفلسطيني قائما، ولكنه كان غير منسجم. كما كان من بين نظم المنطقة من يعمل لتسخيره والاستحواذ عليه. ولم يكن خطاب قادته خطابا مسؤولا بل كان يتسم بالمقايضة، أكثر مما كان يعكس أسلوب المفاوضة.

لقد التقيت لأول مرة مع القيادة الفلسطينية الجديدة في 1967 - 1968 بأكادير. وكنت أشعر أنني أتخاطب مع مسؤولين يدركون تمام الإدراك أنهم لن يستطيعوا أبدا هزم إسرائيل،وأنه سيفرض عليهم التفاوض معها يوما ما. أضف إلى ذلك أنه كان لا يغيب عن بالهم أن الأعمال الإرهابية لن تمكن أبدا من استرجاع أرض محتلة خاصة إذا كان أصحابها يقيمون خارجها.

وقلت لهم : « اسمعوا . إني حريص على أن أتعاون معكم . ولكنكم لن تفلحوا أبدا في تدمير إسرائيل . لذا عليكم ألا تعيشوا في الأوهام . فلن تسووا مشكلتكم إذا توهمتم ذلك . وستضيعون لقادة الدول العربية وقتهم » . وقد كانوا متفقين مع تحليلي هذا تمام الاتفاق .

سؤال : أليس يعني ذلك أن الحركة الفلسطينية حادت عن خطها؟ ذلك أن بعض الفصائل في بداية السبعينيات لم تكن تريد القضاء على إسرائيل فقط . بل كانت تود إشعال فتيل ثورة عالمية والاطاحة بالأنظمة الملكية في العالم العربي .

جواب : هل تعرفون حركة تحرير ليست مشاغبة؟ وفضلا عن ذلك كان بعض القادة العرب في تلك الفترة يطمحون إلى زعامة العالم العربي متخذين القضية الفلسطينية مطية لتحقيق ذلك . بضربهم على وترها الحساس ، دون أن تكون لهم مع ذلك رغبة في التوصل إلى تسوية تلك القضية . لقد كان العديد من الماكرين يقترفون أفعالا كانت تلصق بالفلسطينيين . وهو ما أدركه القادة الفلسطينيون في النهاية .

ورجوعا إلى سؤالكم . يمكننا عقد مقارنة مع وضعية فرنسا غداة التحرير . فقد كانت توجد بفرنسا عدة قوات منها الحركة الفرنسية للاستقلال . وحركة التحرير الفرنسية . والقوى الأخرى التي كانت قائمة آنذاك . وما كان على دوغول أن يشرك أبدا الشيوعيين في الحكم لولا وجود رجال المقاومة السرية وكل المجموعات المسلحة . وبدون الشيوعيين ما كان لعملية التطهير أن تتم أبدا . وأستدل على ذلك بما جرى خلال مأدبة عشاء ، جمعت بين دوغول وستالين حيث قال الأول للثاني : « إني أود إعادة بناء فرنسا مع جميع الفرنسيين » فأجابه ستالين : « إذن لماذا لم تأخذوا « طوريز » فهو كان عندنا إبان الحرب »؟

ففي كل منظمة يوجد دائما جناح يساري وجناح معتدل . ويمكن للمعتدلين أن يصبحوا متشددين والعكس بالعكس . وهذا ما حدث داخل منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت حركة متعددة الاتجاهات . لقد كانت حركة فتح تمثل نسبة 90٪ ورغم ذلك كان عليها أن تأخذ في الاعتبار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين . ذلك أنه من الصعب حتى في بلد منظم تحقيق حد أدنى من الانسجام الحكومي أو البرلماني . وعليكم أن تتصوروا ماذا يمكن أن يحدث داخل حركة مقاومة يستفيد كل تيار فيها من دعم ايديولوجي ودعم مالي مقدم من لدن بلدان مختلفة . وحتى حركة فتح نفسها كانت تتعاون تعاونا وثيقا مع الاتحاد السوفياتي . لكنها أدركت بسرعة أن موسكو لن تعلن أبدا الحرب ضد إسرائيل لمؤازرة منظمة التحرير الفلسطينية . لقد كان السوفيات يتفادون المواجهة مع الأمريكيين .

سؤال : لكن كانت هناك قضية أيلول الأسود بالأردن؟

جواب : تعلمون أن المواقف كانت تختلف من بلد لآخر . ففي مصر كان جمال عبد الناصر يعتبر القضية الفلسطينية إحدى الركائز التي يستند إليها في معركته . إلا أنه كان يرفض وجود أي فلسطيني على ترابه . لقد قال لهم : « إن كنتم ترغبون في العيش في مصر فسأقيم لكم مخيمات . ولكن إن كنتم تريدون التحرك في الشوارع ونشر ما يبدو لكم مباحا فإني أمنعكم من ذلك . وفي هذه الحالة ابحثوا عن مكان آخر » . إن الأسلوب يعكس شخصية الإنسان .

لقد كانت أغلبية سكان الأردن من الفلسطينيين، وحتى ان لم يكونوا كلهم تابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية فما كان لهم أن يظلوا مكتوفي الأيدي. لذا حدث سوء تفاهم. بل وقعت صراعات جد خطيرة بين الملك حسين والقادة الفلسطينيين.

سؤال: ولكنكم كنتم تدركون التهديدات التي كان يتعرض لها العاهل الاردني والأهمية التي كانت للحركة الفلسطينية في الأردن؟

جواب: هذا أمر أكيد وكنا نتوقعه. لقد كنت على علم بأن الأمور سيئة، وأنها قد تتدهور أكثر. فالبرغماتية تُكتسب فقط مع مرورالوقت ومعرفة الطرف الآخر. إن الوضع يشبه نوعا ما حالة أولئك الذين يتزوجون بتوكيل مفوض، أو عن طريق إعلان عن زواج من لدن وكالة مختصة. وحينما يلتقي الشخص لأول مرة مع المرأة التي سيتزوجها يتساءل ما العمل. فلا يوجد كتاب يتضمن الشروط، أو يوضح ما ينبغي عمله.

سؤال: هل تتذكرون ردود الفعل العنيفة التي خلفها في العالم العربي قمع الملك حسين للفلسطينيين؟

جواب: نعم. كان بومدين آنذاك يقوم بزيارة للمغرب دامت ثماني وأربعين ساعة. لقد كنت مقيما في ملكية خاصة لي وكان هو يقيم بإقامة شقيقي. وكنا نسكن بعيدين عن بعضنا البعض ببضع كيلومترات. وذات مساء، وبينما كنا نتناول في هدوء طعام العشاء. وكان في إمكاننا أن نلعب الشطرنج، أو المونوبولي كصديقين تربط بينهما صداقة عريقة، فجأة رن الهاتف. وكان بورقيبة على الخط. وطلب منا حضور مؤتمر كان سينعقد في القاهرة لدراسة قضية أيلول الأسود. وقال لي: «أعرف أن بومدين موجود عندكم. لهذا أود أن أتحدث معه» وكان جوابي: «اسمعوا. إنه في مقر إقامته ويمكنني أن أطلب منه الاتصال بكم». وبعد أن انقطع الاتصال الهاتفي قلت لبومدين: «ما رأيك»؟ وهنا بدا عليه التردد. لذلك قلت له: «إما أن نذهب إلى هناك لمؤازرة الملك حسين وسيكون ذلك منا موقفا غير عادي، وإما سيُطلب منا تصفية المقاومة الفلسطينية، وهذا أمر غير مقبول على الإطلاق. ومهما يكن فإننا لسنا ملزمين أن نحضر تلك القمة. فلكل منا ممثلون في جامعة الدول العربية». وبعد حوالي عشر دقائق من التفكير رد علي قائلا: «نعم بالفعل، ليس لدينا ما نفعله هناك». إنه قرار ربما لم يكن سيتخذه لو كان بقصر الشعب في الجزائر. إضافة إلى ذلك لم تكن قضية الصحراء قد كدرت جو علاقاتنا.

وخلال مؤتمر القمة بالقاهرة فاه الرئيس عبد الناصر بجملة تحمل في طيها الكثير من التحذير. ففي الوقت الذي أعلن فيه أن طائرة الملك حسين ستنزل بعد لحظات على أرضية المطار ونهض من مكانه ليذهب لاستقبال الملك حسين في نفس اللحظة خاطبه القذافي بقوله: «كيف تتجرأون على الذهاب لاستقبال هذا الشخص؟». فرد عليه عبد الناصر: «لكن هناك قواعد لياقة»، فرد عليه القذافي بقوله أمام جميع قادة الدول الذين كانوا مشدوهين: «لا. إذا ذهبتم لاستقباله عليكم أن تقودوه مباشرة إلى مستشفى الأمراض العقلية». وجلس عبد الناصر ووضع رأسه بين يديه وقال: «أعتقد أننا جميعا في حاجة إلى الذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية». وبعد هذا بيومين وبينما كان يرافق ضيوفه إلى المطار لتوديعهم، ألمت به أزمة قلبية كانت صاعقة.

سؤال: متى استأنفتم الاتصال بالملك حسين بعد أيلول الأسود؟

جواب: لقد كان القائد الفلسطيني أبو إياد الرجل الثاني في أحداث أيلول الأسود... لذلك اعتقله الملك حسين

وحكم عليه بالإعدام. وتدخلت في هذه القضية لدى الملك حسين. فقد اتصلت به هاتفيا.

منذ أن تعارفنا أنا والملك حسين وكلانا يخاطب الآخر بصيغة المفرد، ويكن كل واحد منا للآخر مشاعر مودة ومحبة عميقة. قلت له: «سأوفد إليك مبعوثا» وسألني: «لأي غرض؟» فأجبته: «سترى. ولكن أصغ إليه بإمعان». إنني لا يمكنني أن أطلب من الملك حسين تبرئة أبو إياد. لقد كان هذا الأمر مستحيلا. كما أنني لم أستعمل مع الملك حسين حججا سياسية. ولدى استقباله لمبعوثي الخاص توجه إليه المبعوث بالقول: «صاحب الجلالة إن ملفكم غير قابل بتاتا للطعن. إن لكم الحق في شنق أبو إياد في أية لحظة. بيد أن صاحب الجلالة الحسن الثاني يعتقد أن عليكم أن تنظروا إلى المشكل من زاوية أخرى. لقد كان جدكم وجد جلالته رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة في الصفح. وهذه المبادرة تنم عن سماحة أصيلة، وفرصة سانحة لتؤكدوا أنكم من سلالة رسول الله».

وهكذا أفرج عنه الملك حسين. وشاءت الأقدار أن يلتقيا مرات عديدة بعد ذلك. كما كان أبو إياد يربط علاقات وطيدة ومطبوعة بالإخلاص مع مصالح المخابرات الفرنسية.

سؤال: في عام 1970 كنتم أول رئيس دولة عربية يجتمع مع رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ناحوم غولدمان الذي كان مقربا من السلطات الإسرائيلية. لماذا؟

جواب: لأنه لم تتبادر قط إلى ذهني فكرة رفض لقاء شخص ما لمجرد كونه يهوديا. ولا غرو في ذلك، لأن هذا الموقف نابع بكل تأكيد من صميم التقاليد المغربية المتجذرة، ومن تاريخ المغرب، حيث أن يهود المغرب وعربه عاشوا على الدوام في كنف وئام تام. فهم جميعهم ينتمون إلى نفس البلد. وبعد أن اقترح علي هذا اللقاء قلت: «لا أرى مانعا في ذلك». لاسيما وأنا أحب أن أتسلى بين الفينة والأخرى بالكلمات المتقاطعة. إنها رياضة ذهنية ممتازة.

سؤال: ماذا تقصدون؟

جواب: كنت أدرك أننا سنتبادل أفكارا ونبحث قضايا، ولكننا لن نتمكن من الإلمام بالمواضيع التي سنتطرق إليها من جميع الجوانب، حتى ولو اتسم لقاؤنا بالتوفيق والنجاح. فهذا لن يغير على الفور من مجرى الأمور. والحقيقة أنني تقابلت مع شخص وجدته متفتحا جدا وفي منتهى الرزانة والتعقل، يختلف تماما عن الشخص الذي كنت أتوقع لقاءه. لقد اجتمعت مع أحكم الحكماء، ولو أنه لم يكن ملتحيا. فأبان عن الكثير من التبصر. وكان على جانب كبير من الإنصاف. ولم يستهل حديثه معي بالتشكي، بل شرعنا على الفور في الحديث عن آفاق المستقبل.

سؤال: كيف تفسرون هذا التمازج العفوي - وهي خاصية ينفرد بها المغرب - الذي أدى إلى هذا التعايش بين اليهود والعرب منذ قرون عديدة؟

جواب: لم أفكر في ذلك أبدا، وهذا هو الغريب في الأمر. إني لم أشعر أبدا بوقوع أدنى نزاع، ولم أحس في وقت ما لا باندفاع ولا بنفور. وأعتبر أنه من الطبيعي ومن باب الإنصاف أن يأتي يهودي وعربي لمقابلتي ويقول كل منهما لي: «إننا نريد أن تصغي إلينا وتسوي خلافاتنا». وبالطبع سأصغي إليهما معا وبنفس الاهتمام، وازعي في ذلك هو تلمس طريق الصواب أو لنقل البحث عن دراسة الجدوى، وإن كان مصطلح دراسة الجدوى

اقتصاديا فيمكن تطبيقه في المجال السياسي.

سؤال: كيف تلقيتم نبأ تولي أنور السادات السلطة في مصر؟

جواب: بابتهاج. لقد كان مخاطبي منذ 1955. وكلما كنت أزور مصر، كان يستقبلني ويرافقني في تنقلاتي. ونسجت بيننا روابط صداقة خالصة. لم تكن للسادات ملكة الخطابة التي كان يتميز بها جمال عبد الناصر، غير أنه حينما كان يتناول الكلمة في مؤتمر من المؤتمرات كان الصمت يخيم على القاعة وينصت إليه الحضور حتى في حالة عدم استيعاب الحضور ما كان يقوله دائما. وأذكر على سبيل المثال ما حدث سنة 1969 خلال انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي، وهو أول اجتماع للعالم الإسلامي منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك أن مشادة كلامية وقعت بين أنور السادات وشاه إيران. وكان السادات قد تطرق إلى العلاقات التي كانت تربط إيران مع إسرائيل على شكل قنصليات اقتصادية وتجارية. ورد عليه الشاه الذي كان رجلا حساسا وصعب المراس بجفاء ولهجة قاسية. وأدرك السادات حالا أنه ذهب إلى حد بعيد (...). فأخذ الكلمة من جديد، وأثار الحديث عن أعمال والد الشاه وأعمال الشاه نفسه لصالح القضية العربية. وختم تدخله مستشهدا ببيتين من الشعر الفارسي نطقهما باللغة الفارسية. وحينما التقيت بالشاه فيما بعد توجهت إليه بالسؤال التالي: «ماذا كان يا صديقي العزيز يود السادات قوله في البيتين من الشعر الفارسي؟» فكان جوابه كما يلي: «اسمعوا. إن الأمر في غاية البساطة، فإما أنا فارسي ولم أفهم لغتي، أو أن ما نطق به السادات لم يكن لغة فارسية».

وعلى أية حال لقد تصرف السادات بلباقة، حيث أن تلك المشادة العابرة والعنيفة طواها النسيان بعد خمس دقائق.

الفصل الثامن عشر

الاتصالات من أجل السلام

سؤال: هل كانت حرب 1973 حربا لا مفر منها؟

جواب: لقد أرسلت قبل اندلاع المعارك بأزيد من ستة أشهر تجريدة إلى الجولان وضعتها تحت إمرة القيادة السورية. وسئلت فيما بعد أكنت أحس بأن الحرب على الأبواب فكنت أجيب «لا إطلاقا». ولكن لم يكن هناك بدٌ من ذلك. لقد كان الإسرائيليون أكثر من مطمئنين، وفي المقابل، كان العرب وخاصة بلدان المواجهة، مصرين أشد ما يكون الإصرار ليبرهنوا على أنهم قادرون على ضرب إسرائيل. لقد كان الإغراء كبيرا بينما لم أكن أرى الأمور كذلك. لقد خاطبت الضباط المشرفين على التجريدة المغربية بقولي: «إني أمنعكم من أن تبعثوا إلي بأي خبر كان، حتى ولو وُضعتم في حالة استنفار». ولقد طبقوا أوامري بالحرف. فقد كنت لا أود في حالة تسرب الخبر إلى الخارج أن تنسب إلينا مسؤولية ذلك، أو يقال إنني أرسلت قواتي لكي أعطي لوجودها طابعا سياسيا قد يمكنني أن أحصل بفضله بعد ذلك على مقابل مادي.

سؤال: هل كان الرئيس السادات قد أبلغكم نواياه؟

جواب: لا. وحينما التقينا فيما بعد شكَرْتُهُ على كونه لم يبلغني من نواياه أي شيء.

سؤال: متى علمتم بنشوب الحرب؟

جواب: لقد كان الشهر شهر رمضان، واستيقظنا جميعنا على نبأ عبور القوات المصرية قناة السويس.

سؤال: كيف كنتم تتابعون وقائع الحرب؟

جواب: لقد كنت أتابع ماجرياتها عن كثب، ساعة فساعة. علاوة على أنني كنت أتصل كل صباح على الساعة الخامسة بالسادات لأستفسره عن أحوال قواتي. وكان أحيانا يتضايق بعض الشيء، لأنني كنت أوقظه بهاته الطريقة. لاسيما أنني لم أكن الوحيد الذي كان يطلبه بالهاتف. لكن كنت ألمس أنه سعيد بأن يظهر للعالم أن العرب قادرون على القيام بأعمال في المستوى.

سؤال: هل كنتم تعتقدون أن هذه الحرب كانت ستخاض إلى النهاية، وأنه سيطول بالتالي أمدها؟

جواب: أبداً. لأن ذلك يتطلب نفساً طويلا، فضلا عن أن الحرب كانت تدور رحاها على جبهتين، وأن العرب - شأنهم في ذلك شأن الإسرائيليين - لم يكونوا قادرين على الصمود لمدة طويلة. فحينما وقع ذلك الهجوم الإسرائيلي على «الدفرسوار» حيث فوجئت القوات المصرية من الخلف وتمت محاصرتها، كان علي أن أجمع ستة آلاف رجل في ظرف أربعة أيام لإرسالهم إلى عين المكان.

سؤال: في أية ظروف؟

جواب: لقد هبط ربابنة طائراتنا ليلا بمدرجات بدون إشارات ضوئية. وفي لحظة من اللحظات اتصلت هاتفيا ببومدين وقلت له: «أعرني طائراتكم التابعة للخطوط الجوية الجزائرية». واستجاب بومدين لطلبي على الفور، لكن مع الأسف لم يكن الأسطول الجزائري - بخلاف الأسطول المغربي - جزائريا مائة في المائة. وكان معظم الربابنة آنذاك من الفرنسيين، ورفضوا الإقلاع، إذ كانت القوانين الدولية تعطيهم الحق في رفض التحليق في أجواء بلد يوجد في حالة حرب. وكان بومدين يجهل هاته الوضعية. وحينما علم بها اعتبرها إهانة جارحة. واستدعى على الفور سفير فرنسا وقال له: «إن الربابنة الفرنسيين يشتغلون بمقتضى عقد، فإما أن يقوموا بما نأمرهم القيام به،

وإما سأطرد الجميع وسأضع حدا لأية مساعدة تقنية ».

سؤال: مباشرة بعد الحرب باشر الامريكيون نشاطا دبلوماسيا مكثفا في المنطقة؟

جواب: لقد كانت علاقاتي على الدوام ممتازة مع الرئيس نيكسون ومع السيد كيسنجر. فكلما كنت أزور الولايات المتحدة إلا وكان الرئيس نيكسون يدعوني لتناول العشاء معه. وبعد حرب 1973 شكل المغرب المحطة الأولى في جولة السيد كيسنجر. تلك الجولة التي شملت بلدان منطقة الشرق الأوسط. وحينما وصل إلى المغرب خاطبني بقوله: «هذه زيارتي الأولى لهذه المنطقة التي أجهل عنها الشيء الكثير. وأود التعرف على تحليلكم لمختلف المكونات العربية». وقد مكث كيسنجير بين ظهرانينا ثماني وأربعين ساعة.

سؤال: وماذا فسرتم له؟

جواب: لقد شرحت له أن في العالم العربي أناسا يقولون إنهم يريدون الحرب ولكنهم لن يخوضوها أبدا. كما أن هناك آخرين لا يقولون إنهم لا يريدونها وهم أيضا لن يخوضوها. وهناك أخيرا آخرون هم مضطرون لخوضها من أجل البقاء. وكل هذا يترتب عنه وضع معقد إلى حد كبير.

وبقيت على اتصال دائم بالسيد كيسنجر الذي كان سنة 1975 بمناسبة المسيرة الخضراء أول مبعوث استقبلته. لقد كان الرئيس الأمريكي يريد أن يعرف ماذا كان سيحدث بيننا وبين الإسبان.

سؤال: هل كان الأمريكيون في تلك الحقبة يعطون الانطباع بأنهم يرغبون في التحرك بسرعة والتعجيل بإيجاد تسوية للمشكل؟

جواب: أود أن ألفت انتباهكم إلى أن السيد كيسنجر ليس رجل خطة دبلوماسية واحدة، بل كان صاحب دبلوماسيات عديدة، مما جعله يحظى بالكثير من التقدير في العالم. وبالنسبة لملف الشرق الأوسط تحدث كيسنجر عن دبلوماسية الخطوة خطوة، ولكنه حينما كان الأمر يتعلق بتطبيع العلاقات مع الصين فإنه خطا خطوة واحدة لكن عملاقة.

والواقع أن سياسة الخطوة خطوة لم تشكل إلا منهجية كانت ترمي أساسا إلى تمكين إسرائيل من أن تستفيق من صدمتها وأن تسترجع أنفاسها... كما أنها لم تكن تهدف إلى تحقيق سلام أو حتى إجراء مفاوضات.

سؤال: هل كان ذلك منكم مجرد تخمين من خلال ما كان يقوم به؟

جواب: كلا. لقد استنتجته. وكان موقفه مع ذلك مطبوعا بنوع من الرزانة والفطنة، لأن السلام ليس عملية يمكن القيام بها في حدة الأزمة. لقد كان الهدف الأساسي هو التوصل إلى فصل القوات والتمكن من إقامة توازن جديد. وفي أذهان الأمريكيين كان هذا دائما لصالح إسرائيل، وهذه بالطبع هي الوضعية التي ما تزال سائدة حاليا.

سؤال: ومع ذلك تعرض كيسنجر لانتقادات شديدة من طرف القادة الإسرائيليين؟

جواب: لم يكن لديّ هذا الإحساس. وإن كانت هناك انتقادات فأعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون توزيعا للأدوار.

سؤال: متى بدأتم تقيمون اتصالات مع القادة الإسرائيليين؟

جواب: إنني لم أبحث عن هذه الاتصالات أبدا وهم الذين قدموا إلى هنا.

سؤال: ولماذا اعتبرتم أنه من المفيد قبول طلبهم؟

جواب: خلال القمة التي انعقدت في الجزائر كان القذافي يرتدي قفازات بيضا، لكي لا تتلطخ يده حينما أصافحه. لأن يدي - في رأيه - تدنست بعدما صافحتُ شيمون بيريز. وفي آخر المساء، قبل مع ذلك أن يخلع القفازات ليصافحني. فقلت له ورددت مرارا وتكرارا لكافة قادة الدول العربية - وأظن أنهم كلهم متفقون معي الآن -: «أية مدرسة للسياسة الدولية تمنع الحوار؟». وقلت للقذافي: «هل تستطيع أن تذكر لي سابقة واحدة في التاريخ الدولي والعربي ثبتَ فيها أن زعيما أو مفكرا رفض التحاور حتى في حالة الحرب. لو أتيتم عن ذلك بمثال واحد لشاطرتكم رأيكم».

سؤال: هل تعتبرون أن مصالح الاستخبارات ذات فائدة كبرى لتمرير خطابات بالغة الأهمية؟ وهل لعبت المخابرات الإسرائيلية دورا في هذه الاتصالات؟

جواب: لم يكن ذلك ضروريا. فاليهود المغاربة المقيمون في إسرائيل يزورون المغرب مراراً، وبالتالي فإن الرسائل تصل دون أن تكون بالضرورة مرموزة. إنها ربما أأمن الطرق وأكثرها سرية لتمرير الرسائل.

سؤال: هل كان قرار لقاء موشي ديان مسبوقا بمفاوضات عديدة؟

جواب: كلا. إنها من ضمن الأشياء التي ينبغي أن تتقرر على عجل. فإما أن نقبل وإما أن نرفض. بيْد أن الأمر تطلب حوالي أربعة أيام لتسوية جميع المشاكل المتعلقة بالأمن والنقل والجانب اللوجستي وأخيرا الوصول إلى المغرب.

سؤال: كيف بدأ اللقاء؟

جواب: أولا لم يكن ديان يضع عصابته على عينه، ولكن كان يغطي رأسه بشعر مستعار. وقد استقبلته بأحد «الشاليهات» بيفرن كنت أقيم به عندما كنت أعزب ووليا للعهد. وبمجرد ما جلسنا قلت في قرارة نفسي إنه يتعين علي أن أطرح عليه السؤال الذي سأتمكن من خلاله من جس نبضه والكشف عن عقليته. فما أن أخذ مكانه حتى وجهت له هذا السؤال: «أيها الجنرال. ما هو موقفكم من الجولان؟». وبعد أن فكر قليلا أجابني «الجولان سورية» إذ ذاك قلت له: «طيب. الآن يمكننا أن نتحادث».

سؤال: ولو كان قد صرح أنها جزء لا يتجزأ من التراب الإسرائيلي؟

جواب: لكنا قد تحادثنا في العموميات والقضايا الجيوسياسية وسلوك اليهود المغاربة في إسرائيل، ولتوقف الحديث عند هذا الحد. لقد كان هذا السؤال بالنسبة لي بمثابة اختبار لمعرفة نواياه، فلم يكن لنا وقت نضيعه لا أنا ولا هو.

سؤال: وهل دخلتم خلال لقائكم في ذلك المساء في صلب الموضوع؟

جواب: لقد تحدثنا كثيرا. وكان في اعتقاده أن موضوعا واحدا يحرم تناوله، ألا وهو الحديث عن منظمة التحرير الفلسطينية. وقد قال لي في هذا الصدد: «لا داعي للحديث عن منظمة التحرير الفلسطينية». وعندما كنا نتحدث عن الجولان قال لي بالحرف: «إن هذه الأراضي حيوية بالنسبة لأمن إسرائيل. وإذا نحن أقرنا السلام مع

السوريين فلابد مع ذلك من بعض الوقت حتى تعود الثقة وترابط قوات وقبعات زرق في المنطقة، لنعود بعد ذلك إلى الحدود القديمة. أما فيما يخص السكان المقيمين هناك فإما أن تعتبرهم دمشق مواطنين سوريين يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها مواطنوهم وعليهم نفس الواجبات، وإما أن ترفضهم، وفي هذه الحالة يتم التنصيص في المعاهدة على مقتضيات تكفل حقوقهم».

وعندما عاد رابين لتقلد السلطة في عام 1992 أدهش الكثيرين بتصريحه في موضوع الجولان عندما تحدث عن فترة انتقالية تكون فيها أرض الجولان في وضعية تشبه الإيجار. إن رابين لم يعارض أبدا في ملكيتها من لدن سورية. وبالتالي في مشروعية السيادة السورية عليها.

وعندما سمعت كلامه هذا قلت في قرارة نفسي: «طيب، إنها بالتحديد نفس المدرسة».

سؤال: ما هو الانطباع الذي خرجتم به بعد لقائكم مع ديان؟

جواب: لقد ترك لدي الانطباع بأنه رجل عملي وواقعي. وبما أن ديان مزداد على ما أعتقد ببلدة نحيلان في فلسطين فقد قلت له: «في هاته الحالة يتعين عليكم التحدث باللغة العربية». ورد علي بقوله: «إنني لم أتحدث بالعربية منذ مدة طويلة». ولكنني ألححت عليه أن يتحدث معي باللغة العربية. وهكذا تحادثنا بالعربية نصف وربما ثلاثة أرباع المدة الزمنية التي استغرقها لقاؤنا. وكانت لغته أحيانا ركيكة بفعل النسيان، غير أن هذه الرابطة التي جمعت بيننا أسهمت في خلق جو من الثقة. وإضافة إلى ما سبق فقد كان ديان يقطن بنفس الحي الذي كان يقطنه أحد أقطاب منظمة التحرير الفلسطينية، ألا وهو السيد خالد الحسن الذي أعرفه حق المعرفة. لقد قدم لي كل منهما ـ بطبيعة الحال كل على حدة ـ نفس الوصف لمدينته وحيه. ومن يدري ربما لعبا معا هناك وهما طفلان.

سؤال: ماذا كان رد فعلكم إزاء رفضه التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية؟

جواب: لقد ذكرته بثلاث سوابق: أولا لقد كان يقال عن والدي إنه لن يعود أبدا إلى عرشه. ولكن الفرنسيين تفاوضوا معه في النهاية بشأن استقلال المغرب. وثانيا ذكرته بحالة جبهة التحرير الجزائرية عندما كانت فرنسا ترفض التفاوض معها. وأخيرا مثال الفيتكونغ حيث جلس الأمريكيون مع الفيتكونغيين في النهاية حول نفس الطاولة. وأجابني قائلا: «أنا متفق معكم، ولكن الأمر هنا يختلف». وعقبت عليه بقولي: «طيب، سنتحدث في الموضوع مرة أخرى.. أكيد أن التاريخ ليس من نوع العلوم الدقيقة، وأن الاستدلال بالمقارنة ليس باستدلال علمي، غير أن هناك أمثلة يجب أخذ العبرة منها.

سؤال: ما هي نظرتكم في تلك الفترة للحركة الفلسطينية؟

جواب: لقد تم الاعتراف خلال مؤتمر القمة العربي الذي انعقد بالرباط عام 1974 بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. لقد كان علي أن أواجه بهذه المناسبة الكثير من سوء التفاهم الذي ليس له مبرر ولا أساس، مما شوش على علاقاتي مع الملك حسين. ولم تمر الأيام الثلاثة التي استغرقها المؤتمر بدون متاعب. لقد اعتقد الملك حسين أنني كنت منحازا إلى الفلسطينيين ضد الوحدة الترابية للمملكة الأردنية الهاشمية وضد سلطتها. وكانت هذه التهمة لا تستند إلى أي أساس. وطال الحديث بيني وبين الملك حسين حول هذا الموضوع. وكان يشعر في واقع الأمر أنني قد انتزعت منه ما لم يكن يود التخلي عنه. لذلك خاطبته قائلا:

أعتبر أن عليك أن تتفهم الواقع. إن الشعب الفلسطيني وممثليه يتطلعون إلى أن يتم اعتبارهم ككيان. ولا يمكنك أن تمنعهم من المطالبة بهذا الكيان والإعلان عن قيامه. ولذلك ستجد نفسك في وضع لا تحسد عليه». وأضفت قائلا: «ستكون كل مرة مضطرا للدفاع، لما فيه مصلحتهم، عن طروحات إن كانت معقولة فإنهم سيظلون يعتبرونها غير مرضية. إنك ستجد نفسك في وضع حرج، لذا عليك أن تتركهم يعبرون عن مواقفهم بأنفسهم. ومع مرور الوقت إن هم احتاجوك فسيلجأون إليك. وإن كان العكس، فمن الأفضل أن تبتعد من الآن». ثم قلت له: «إنهم يتناولون المشكل بصورة تكتسي أحيانا نوعا من الخطورة، ومن منطلق نضالي ربما قد لا يكون واقعيا، ليس حيال إسرائيل ولكن حيال أولئك الذين يساندونها»... لذلك لا أفهم لماذا ستتكفل بتسديد فاتورات ديون ليست مستحقة عليك».

وفي الأخير اقتنع بهذا المنطق، إلا أن أعضاء الوفد المرافقين له ظلوا أكثر تحفظا.

لقد كنت مصرا على أن يبتعد عن التورط أكثر في المشكل، لأن الأردن - شئنا أم أبينا - يشكل ممرا للسلام لا محيد عنه. وربما كانت الجرافات في تلك الفترة ستدوس الجميع. ولكن عهد التخوف من اجتياح الجرافات ولّى الآن. ومسار السلام شق طريقه، وسيمر بالضرورة من الأردن. وقد أدرك الملك حسين هذا الأمر. ولم يعد يبدي أدنى تحفظ فيما يخص هذا المكتسب.

سؤال: عماذا تمخض لقاؤكم مع موشي ديان؟

جواب: لقد ذهب كل واحد منا إلى حال سبيله، وتركنا خلفنا بابا للحوار لا هو منفتح ولا هو منغلق. إنه يشبه الكأس التي يمكن أن توصف بأنها نصف مملوءة أو نصف فارغة. وعلى أية حال لم نفترق على أساس أن كل شيء مرفوض لا من طرفه ولا من طرفي. وكلانا كان يحس بأن لقاءنا سيفضي إلى نتيجة. وذات لحظة، باح لي بما يلي: «يتوجب أن نعمل على استتباب السلم وإنهاء هذا الوضع». ثم أضاف: «إن شبابنا وأنا هنا أفكر في ابني، ليسوا مختلفين عن الآخرين. إنهم يطمحون إلى أن يحيوا حياة هادئة، وأن يكسبوا المال. إنهم يسافرون ويرون كيف يعيش الآخرون. فكيف تريدون أن يقبلوا الاستمرار في العيش في «الكيبوتزات» كما عشت أنا من قبل. إن على إسرائيل أن تدرك هذا.» لقد كان لديه إحساس بأن هذا الحافز القوي سيختفي مع مرور الزمن.

في تلك الحقبة كان التوتر على أشده بين الإسرائيليين والسوريين. غير أن ديان قال لي: «إن مشكلتنا الشائكة والمتشعبة قائمة مع مصر. ولأن القادة المصريين أقل عنفا. فمعهم سنبدأ المحادثات». ولم يكن لدي أي مبرر لتفضيل بلد على آخر مادامت تراوده فكرة إعطاء انطلاقة لمسلسل السلام.

وهنا بالذات قال لي: «إني أود أن أربط اتصالا مع المصريين».

سؤال: وهيأتم له ظروف مد جسور هذا الاتصال.

جواب: أجل.

سؤال: وماذا كان رد فعل الرئيس السادات؟

جواب: كان وجيزا. وسألني قائلا: «هل ديان هو الذي سيأتي؟» وأجبته بقولي: «هو نفسه». فكان رده: «إذن سأبعث موفدا».

سؤال: هل تمت بالمغرب جميع اللقاءات التي جمعت بين ديان ومســـؤول مصري؟

جواب: نعم. لقد جرى اللقاء الأول في يفرن في حين تم اللقاء الثاني بالرباط.

سؤال: في أي جو تم اللقاءان: هل في جو مشوب بعدم الثقة والتخوف؟

جواب: في البداية توقفت الأنفاس وخيم صمت رهيب. ولكن لا ينبغي أن نغفل أن كل طرف كان ينعت الطرف الآخر بوصف العدو، وأن عددا كبيرا من القتلى سقطوا منذ سنة 1948.

وبعد ذلك شعرت بأنهما مرتاحان. وكان كل طرف يترقب أن يعرض عليه الطرف الآخر شروطا لا يمكن قبولها. ثم شرعا في الحديث وشملت المحادثات المعارك الماضية، وعبور قناة السويس، وسيناء، ومختلف المناورات العسكرية لهذا الطرف ضد الطرف الآخر. لقد تناول حديثهما كل شيء بما في ذلك هوية الربابنة الذين لقوا مصرعهم. وحينما لاحظت أن اللقاء أخذ هذا المنحى تركتهما يواصلان حديثهما على انفراد.

سؤال: في أية لحظة في نظركم نضجت عند السادات فكرة التوجه إلى القدس والدخول في مفاوضات مباشرة؟

جواب: أود أن أؤكد بمنتهى الحزم والصدق أن الرئيس السادات لم يبلغ أي أحد عزمه على التوجه إلى القدس. وسأذهب أبعد من ذلك. فهو لو كان قد أطلعني على ذلك لربما كنت طلبت منه أن يرجئ قراره. وهذا لم يمنعني من اعتبار مبادرته تنم عن الكثير من الشجاعة والإقدام. وكنت في تصريحاتي على ما أعتقد الوحيد الذي سانده علنا. وبموقفي هذا كنت أراهن على العنصر الإبداعي للإسرائيليين وقدرتهم على اغتنام الفرصة. ولكن العبقرية الإسرائيلية كانت في ذلك اليوم عديمة الوجود في القدس. ويكفي كدليل على ذلك الإنصات إلى خطاب السادات ثم رد بيغين. ومع ذلك كنت أراهن على هذا الرد أكثرمنه على مبادرة السادات المتميزة.

سؤال: ما مرد عدم قدرة بيغين على أن يكون على موعد مع التاريخ؟

جواب: أعتقد أن هذا الأمر ينبغي تفسيره من الناحية السيكولوجية.

فقد كان أمام السادات شهر أو شهران، أي أنه كان أمامه متسع من الوقت لكي يحضر بشكل جيد لهذه الزيارة ويعيد كتابة الخطاب الذي سيلقيه أمام الكنيست. لقد كان عنصر المفاجأة في صالحه. ولم يتوفر للإسرائيليين الوقت الكافي للرد. إذ أخذوا على غرة، ذلك أن السادات لم يخبرهم قبل التوجه إلى القدس إلا بأربع وعشرين ساعة. أعتقد أنه لو كانت أمام بيغين أيام إضافية لكان تدخله مختلفا.

سؤال: كيف علمتم بالزيارة؟

جواب: عن طريق الإذاعة. وكنت إذ ذاك في مراكش، وقلت في قرارة نفسي: «يا لها من جرأة!» إن السادات سيكون رابحا إذا ما استطاع أن يقيم حوارا، ولكنه سيكون ظافرا أيضا إن ظل الإسرائيليون صامتين.

سؤال: كم مرة التقيتم بالسادات بعد زيارته للقدس؟

جواب: لم أره إلا مرة بعد عودته من كامب ديفيد.

سؤال: لقد كانت المفاوضات عسيرة وكان التشدد الإسرائيلي قويا.

جواب: بالفعل، لكن الرئيس كارتر ظهر هو الآخر متشددا مثل الإسرائيليين على الصعيد التاكتيكي ربما يكون

الفلسطينيون تأسفوا اليوم على أنهم لم يقبلوا في تلك الفترة مبدأ الحكم الذاتي الذي كانت تنص عليه المعاهدة. وأتذكر أنني كنت قد قمت بزيارة رسمية للولايات المتحدة قبل انطلاق مفاوضات كامب ديفيد بأيام قليلة. وبعد تناول العشاء بالبيت الأبيض تطرقنا إلى القضية الفلسطينية الإسرائيلية. فقال لي الرئيس كارتر وكنت مقتنعا أنه سيفي بوعده: «لو سلمتموني غدا اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بالقرارين 242 و 338 فإنني لن أترككم تغادرون الولايات المتحدة قبل أن أستقبل هنا عند مدخل البيت الأبيض القادة الفلسطينيين». غير أنه كان يتعين الانتظار بضع سنين لكي يعترف الفلسطينيون بالقرارين.

سؤال: متى التقيتم بالسيد رابين؟

جواب: كان ذلك سنة 1976. وكانت له نفس الرؤى التي كانت لديان. ولهذا السبب كنت أرفض دائما استقبال السيد شامير.

سؤال: هل رغب هو في ذلك؟

جواب: مرات عديدة

سؤال: ولماذا كنتم ترفضون مقابلته؟

جواب: إنني كنت أعلم أنه سيحاول الاستفادة قدر المستطاع من هذا اللقاء في مجال السياسة الداخلية، خاصة لدى اليهود المغاربة المقيمين في إسرائيل. ولكنه لن يقدم أي شيء لفائدة السلام. وقد أبلغته ذلك قائلا: «السيد الوزير الأول. إن كنتم ستأتون حاملين معكم ملفا جديا فمرحبا بكم. وإن لم يكن الأمر كذلك فأنتم تعلمون أن التنقل لمجرد السياحة محظور علي وعليكم».

سؤال: ولكن حزب العمل أظهر في الماضي تشددا مثل حزب الليكود؟

جواب: شتان ما بين الحزبين! فبيريز أو رابين كلاهما عضو في الأممية الاشتراكية التي تعد بمثابة مجلس دولي يشكل خلية للتفكير. وأحيانا حتى بمثابة رقيب على الضمائر. فهناك أشخاص يمكن أن يقولوا لهم: «إنكم مخطئون». في حين لم يكن الليكود تربطه أية رابطة مع العالم الخارجي.

سؤال: إلا أن عددا من قادة منظمة التحرير الفلسطينية والزعماء العرب كانوا يعتبرون أنه كان من الأسهل التفاوض مع الليكود رغم تصلبه الظاهري أكثر منه مع حزب العمل؟

جواب: ولكن ليس مع شامير. ذلك أن الخطأ ليس خطأه. وسأفسر لكم لماذا. إنه ينتمي إلى جيل الرواد والمؤسسين مثل بيغين أو غولدا مايير. لقد كانوا جميعهم من نفس الجيل. فلا ينبغي والحالة هاته أن تنتظر من شامير أن يكون أول واحد من هذا الجيل يقدم تنازلا. فحتى داخل الليكود نفسه هناك شباب ربما كانوا على استعداد للتحاور. ولكن الوزير الأول كان يسكنه في العمق هاجس الجزائر الفرنسية. «إنني أقبل أن يصرح شخص آخر بأن الجزائر ستكون مستقلة. أما أنا فلا أريد أن أفوه بذلك حتى ولو كنت أعتقد ذلك». إنها قضية نفسية. لقد كان أسير ماضيه أي ماضي الرواد. هل شاهدتم فيلم «إكزودوس». لقد كان بالفعل إكزودوس. وإكزودوس هذا لا يتفاوض.

سؤال: ولكن بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل أصبح موقف الرئيس السادات ضعيفا. لقد تم طرده من

الجامعة العربية و...

جواب: لا. أبدا إن طرد مصر من حظيرة الجامعة العربية كان في واقع الأمر قرارا غريبا وغير صائب. فلم يكن أي رئيس دولة من ضمن الذين حضروا قمة بغداد يريد طرد مصر. وكنت قد قلت للسادات: «عليك أن تذهب لتشرح أمام نظرائك موقفك وتقول لهم: «لقد حررت الآن جزءا من أرض بلدي. وأود أن تدلوني على طريقة أخرى غير هاته لتحقيق ذلك». لكنه رفض. والواقع أن المسؤولين بالجامعة العربية كانوا يكنون له مشاعر ود رقيقة. كانوا يقولون فيما بينهم لا داعي للإبراق إليه أو الاتصال به هاتفيا حتى لا يعتقد أننا نملي عليه دعوة حضور. بل يجب إيفاد بعثة يكون على رأسها رئيس دولة عربية لاستدعائه للحضور». ومع الأسف. وهنا تكمن الغرابة. لم يتوصلوا إلى اتفاق حول من سيرأس الوفد. وتوجه هذا الأخير إلى القاهرة دون أن يكون السادات على علم بوصوله للقاهرة. إضافة إلى أن أعضاء الوفد لم يتصلوا هاتفيا برئاسة الجمهورية إلا لإخبار المسؤولين المصريين بأنهم سيهبطون بعد أقل من ساعة بالمطار. وعندما علم السادات بالخبر كان رده:« بما أنني وضعت أمام الأمر الواقع فعليكم أن تعودوا من حيث أتيتم». وعادت الطائرة إلى بغداد ومن ثم اتخذ قرار الطرد. إن الأمر يتعلق في الواقع بتحويل وجهة التاريخ. فلو كان السادات قد قدم إلى بغداد ليشرح موقفه لما طردت مصر. ولكان مسلسل السلام وصل إلى محطته النهائية. وبسبب هذه الواقعة ضيعنا ثمانية أعوام.

سؤال: هل كان من الممكن السير بسرعة نحو تحقيق السلام؟

جواب: بطبيعة الحال. لقد اعترف السادات بإسرائيل.وكان بوده أن يخاطب نظراءه ويقول لهم: «لقد تبادلت التمثيل الديبلوماسي مع إسرائيل على مستوى السفراء. وأنا الآن بمثابة صندوق بريدكم ورسولكم الرسمي». والحقيقة أن السلام يمكن أن يكون معديا أكثر من عدوى الجنون أو التطرف. وقد عطل هذا الحادث المفاجئ بكل تأكيد مسيرة السلام سنين عديدة.

سؤال: هل كانت غلطة العالم العربي؟

جواب: قد أقول بالأحرى إنه القدر.

سؤال: لكن اغتيال السادات الذي جاء بعد تصفية عبد الله جد الملك حسين يبين أن تهديدا يحدق باستمرار بجميع القادة الذين كانوا يتفاوضون مع إسرائيل؟

جواب: لا يمكن عقد مقارنة. عليكم بالرجوع إلى الأشرطة الوثائقية المتصلة بعودة السادات إلى القاهرة بعد كامب ديفيد.

لقد كانت الجماهير في حالة هيجان وخصصت له استقبالا رائعا كأنه إمبراطور روماني عاد ظافرا. وكانت مصالح الأمن عاجزة عن مواجهة أمواج الجماهير. وكان من الممكن قتله في ذلك الحين بكامل السهولة.ولموت السادات تفسير آخر. ذلك أنه لا ينبغي علينا أن ننسى أن السادات كان إنسانا ورعا جدا. وكان منتميا في البداية إلى حركة الإخوان المسلمين.وقد شارك إلى جانب عبد الناصر في تصفيتهم. ولذلك اعتبروا على الدوام أنه غدر بهم بعد أن كان واحدا منهم. وبالتالي كان لهم معه حساب قديم كانت تجب تصفيته.

سؤال: في عام 1982 كانت الحركة الفلسطينية على مقربة من إبادتها خلال حرب لبنان.

جواب: بالفعل. من المؤكد أنه لو كان قد تم القبض على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ومساعديه أو تصفيتهم لكانت المنظمة قد تلقت ضربة قاسية.

سؤال: ما الذي كان قد أدى بالحركة الفلسطينية إلى الانحراف نحو التطرف؟

جواب: إن منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن أن تعيش إلا في كنف البلدان العربية. فالفلسطينيون كانت تنقصهم الأراضي والأموال. ولم يكن بإمكانهم أن يتصرفوا بمفردهم حتى وإن وقع لهم ما هو أسوأ. لقد كان العالم العربي يجتاز على الأرجح ظرفا عصيبا. ولكن ذلك لم يغير مجرى الأحداث. لاسيما وأن هذا العالم العربي أصبح في الأخير واقعيا.

سؤال: ما هي الظروف التي انعقد فيها سنة 1982 مؤتمر قمة فاس؟

جواب: كان من المفروض أن ينعقد سنة 1981. وقد كان جميع رؤساء الدول والوفود حاضرين ما عدا الرئيس حافظ الأسد الذي أبلغني ساعات قبل افتتاح المؤتمر أنه تعرض لنزلة برد. وأنه يتعذر عليه المجيء. مع العلم أن سوريا - إذا تركنا لبنان جانبا - هي الدولة الوحيدة التي يوجد جزء من أراضيها تحت الاحتلال. وبالتالي كان حضورها ضروريا لمناقشة مشروع مخطط تسوية للنزاع الإسرائيلي العربي. وبعد أن جمعت ضيوفي قلت لهم: «بما أن الرئيس السوري لم يأت فلم يعد هناك من مبرر لعقد القمة. إني أعلن عن إلغائها، وأعتذر. ربما كانت هذه الطريقة غير مهذبة. ولكن لا أود أن يرتبط اسم فاس بفشل مؤتمر قمة. ولنضرب موعدا بعد سنة في نفس الفترة».

لم يسبق أن أعلن عن إغلاق مؤتمر قبل افتتاحه. وهذه هي المرة الأولى التي حدث فيها ذلك. وكم كنت أود أن أتوفر على صورة فوتوغرافية تبرز مدى ذهول الصحفيين وأنا أعلن إليهم: «أيها السادة. إن المؤتمر أرجئ إلى السنة المقبلة». وبالفعل التقينا جميعا في سنة 1982 وحضر الرئيس حافظ الأسد هذه المرة.

سؤال: الرئيس صدام حسين أيضا...

جواب: نعم. ولكن كان بينهما جفاء تام. فتوجهت إليهما بالخطاب بصفتي رئيس المؤتمر: «كفى من الحديث باستعمال الاستعارة والمجاز. فليس بإخفاء الغبار تحت البساط يمكنكما الاعتقاد بأن القاعة نظيفة. أفرغا ما في قلبيكما وقولا كل شيء أمامنا». وألقى صدام حسين خطابا استغرق أربع ساعات كان بمثابة قراءة صك اتهام لسورية وأخذ الأسد الكلمة بعد ذلك وتحدث ساعة زيادة على ما استغرقه من وقت حديث صدام. فنبهته إلى أنه أطال في تدخله. فرد علي بقوله: «لقد تحدث صدام قبلي طيلة أربع ساعات. وبما أنكم طلبتم مني أن أقول كل شيء إذن فأعطوني المزيد من الوقت لأكمل كلمتي». وتابع الحديث.

وفي اليوم الموالي أقمت مأدبة غداء تحت خيمة حضرها الملك فهد الذي كان آنذاك وليا للعهد، والملك حسين والشيخ جابر أمير دولة الكويت، وصدام حسين، و حافظ الأسد، وأنا.

وبينما كنا نتناول غداءنا في جو لطيف وهادئ إذا بصدام يلتفت نحو الأسد ويباغته بقوله في نبرة تنم عن بشاشة: «آه! يا صديقي كم مرة حاولت الاطاحة بك!». ورد عليه الأسد بنفس اللباقة: «إني أعلم ذلك، ولكنك تجهل أنني عملت كل ما في وسعي أنا كذلك لإزاحتك».

وكان حوارهما من نوع الحوار «الشيكسبيري».

وفي النهاية قهقه الاثنان، وهذا لا يعني أنهما كفا عن محاولاتهما.

سؤال: ما هو الهدف الذي كان متوخى من قمة فاس؟

جواب: رغم أن مصر كانت مطرودة من الجامعة العربية فهي كانت حاضرة معنويا. وأعطى مثالها الدليل على أنه يمكن استعادة التراب المحتل عن طريق التفاوض. لقد كان حصول مصر على أرضها سابقة مغرية للغاية بالنسبة لجميع أولئك الذين كانوا يقتنون أسلحة كانت لا تصلح لأي شيء. وحينما قدم للمؤتمر مخطط السلام الذي أعده الأمير فهد لم يكن هناك أدنى اعتراض. والتزم به الجميع حتى العراق الذي لم يكن يعترف أبدا بالقرارين 242 و 338.

سؤال: حتى الرئيس الأسد؟

جواب: لقد قال لنا: «إني مرتاب، ولكن لا أريد أن أخرج عن الإجماع. فأنا معكم». إذن كان العرب قد اعترفوا تقريبا سنة 1982 بالإسرائيليين.

سؤال: هل كان الرئيس السوري يؤمن حقا بمباشرة المفاوضات بين إسرائيل وبلده؟

جواب: أعتقد أنه من منطلق موقف محسوب بدقة لا يبدو الرئيس الأسد أبدا متفائلا. فهو رجل واقعي لا يوصد الأبواب. وهو في تصوره يقف على خط التعارض مع العدميين المنكرين لكل شيء. وهو رجل صبور جدا يجمع بين ذكاء التاكتيكي ونظرة الإستراتيجي. وقد كان يؤكد لي دائما: «لا ينبغي أن ينفد صبري، فالمسألة مسألة وقت، به سأتمكن من التوصل إلى محادثات جدية مع إسرائيل».

سؤال: إذا كان مخطط فاس يشكل تقدما حقيقيا فكيف تفسرون نظرة التشكك التي أبداها الإسرائيليون إزاءه؟

جواب: إنهم لم يقولوا أي شيء بشكل مباشر. ولكن حينما زرت واشنطن لكي أعرض تفاصيله وجزئياته لم ألمس لدى الأمريكيين قبله ذلك الحماس الذي كنت آمل أن أجده لديهم. ويحق القول إن لا أحد في تلك الفترة كان قد صمم على السير نحو السلام. وكان مخطط فاس في رأيي بمثابة قاعة انتظار مريحة، إذ كان يتضمن جميع العناصر التي تساعد على الدخول في صلب الموضوع على الأقل بما جاء فيه من اعتراف ضمني بوجود إسرائيل والتلويح بحقها في العيش في سلم وأمان داخل حدودها. وكانت المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك.

سؤال: لكن كان هناك أحد العراقيل الذي له أهميته والذي ما يزال يلقي بظلاله، ألا وهو أحد بنود ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي ينص على تدمير دولة إسرائيل؟

جواب: فعلا إن الاسرائيليين يعتبرون أن عرفات لا يمكنه الاكتفاء بالتأكيد على أن هذا البند أصبح متجاوزا، ولكن يتعين عليه إلغاؤه نهائيا من الميثاق.

سؤال: وهل هذا رأيكم؟

جواب: أجل. لقد نصحته مرارا بذلك. وكان جوابه واضحا تمام الوضوح: «بطبيعة الحال سنفعل ذلك في أول فرصة تتاح لنا».

وأود كذلك الإشارة إلى نقطة هامة، ذلك أنه حينما كنت في واشنطن سلمت لوزير الخارجية آنذاك السيد جورج شولتز بحضور السيد كلارك رئيس مجلس الأمن القومي والكولونيل المشهور «نورث» وثيقة من أربع إلى خمس صفحات حررت بالانجليزية من طرف منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أكدت المركزية الفلسطينية في هاته الوثيقة استعدادها لمباشرة المفاوضات من أجل إقامة «كونفدرالية إسرائيلية فلسطينية أردنية». وأعتقد أن الوثيقة ما تزال بالبيت الأبيض. وكنت أتوقع أن يكون لهذه الوثيقة وقع قنبلة لدى الإدارة الأمريكية. ولكن شيئا من هذا لم يكن.

سؤال: ماذا كان رد فعل رونالد ريغان؟

جواب: لقد أجريت معه حديثا مطولا في البيت الأبيض. وكان السيد بوش يجلس إلى يمينه، بينما كان السيد شولتز إلى يساره. وانطلق حديثنا بتلاوة الرئيس مضمون ورقة حررت بكثير من اللطف واللباقة. كانت في آن واحد خطاب ترحيب ورفضا للعرض الذي بلغته إياه. فطلبت الكلمة فيما بعد، وتحدثت ساعة كاملة، ودحضت جميع حججه الواحدة تلو الأخرى. وبقدر ما كنت أواصل حديثي بقدر ما كان يعرب عن اقتناعه شيئا فشيئا بالعديد من أدلتي. عند ذلك أدركت أن معارضته كانت تمس الشكل أكثر مما كانت تمس الجوهر.

سؤال: هل فوجئتم بكون الوزير الأول الإسرائيلي السيد رابين اتجه بمجرد تقلده السلطة من جديد نحو السوريين لمباشرة الحوار معهم. وهل توقعتم أن يكون رد هؤلاء إيجابيا؟

جواب: إن اسرائيل وسوريا تشكلان العمود الفقري للنزاع. فسوريا عنصر لا محيد عنه على الصعيد الدبلوماسي. وإيجاد تسوية مع سوريا يعني تسوية 50 بالمائة! وربما ثلثي المشكل الفلسطيني. وقد استوعبت الدبلوماسية الإسرائيلية الأمور جيدا بطرق باب سوريا باعتبارها حجر الزاوية. فمن السهل التطلع إلى الأعلى لأن الهبوط يقتضي الحيطة والحذر، ولكنه أهون من الصعود الذي يتطلب جهدا مضنيا.

سؤال: هل تعتقدون أن المسلسل الذي انطلق لا رجعة فيه مهما تكن التقلبات؟

جواب: نعم. إن ماء النهر لا يعود أبدا إلى منبعه. والآن وقد انطلق مسلسل السلام فسيصبح أمل تحقيقه هاجسا مستقرا في الأذهان، ولن يكون قط مجرد حديث مناسبة عابرة.

سؤال: ماذا تقصدون بالتحديد؟

جواب: لم يعد من الممكن التفكير مستقبلا إلا من منطلق مبدأ السلام. وكل من يود التشكيك في هذا الانفتاح متعدد الأطراف - سواء أكان من الجانب العربي أو من الجانب الإسرائيلي - سيجد نفسه على الفور في عزلة على الصعيد السياسي والفكري.

سؤال: هل أسهم النزاع الإيراني العراقي ثم حرب الخليج في نضج العقليات في وجهة السلام؟

جواب: يمكن أن نطبق على الانتصار العراقي مقولة بيروس الذي أسر لأمه: «انتصار آخر مثل هذا ونهلك». بالإضافة إلى ذلك فقد ترسخ الاقتناع لدى جميع بلدان المنطقة بعد حرب الخليج بالعمل بالمبدأ الذي نلقنه للأطفال القائل: إنه لا ينبغي اللعب بالنار وعود الثقاب، لأنه إذا اندلعت النار فقد تكون كاسحة وتأتي على الأخضر واليابس.

سؤال: على سبيل المثال كان سقوط صواريخ سكود على تل أبيب صدمة قوية؟

جواب: أعتقد ذلك. لأن الأم أو الزوجة الإسرائيلية التي تعيش في تل أبيب لم يسبق لها أن سمعت أبدا منذ عام 1948 صفارات الإنذار. وهذا الأمر من الأهمية بمكان من الناحية النفسية. لقد أدرك السكان أن ما لم يكن يخطر على البال قبل بضع سنين أصبح حقيقة. وهذا الشعور بانعدام الأمن والطمأنينة هو الذي حدا بهؤلاء وأولئك إلى الشروع في مفاوضات سلام.

سؤال: ومع ذلك توجد هناك نقطة فيما يخص تسوية النزاع الإسرائيلي العربي يخشى أن تكون بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. ويتعلق الأمر بالقدس؟

جواب: أعتقد أنه بقدر ما يعتبر مشكل الأراضي المحتلة مشكلا سياسيا بقدر ما يكتسي مشكل القدس طابعا حضاريا. وعلينا عربا وإسرائيليين أن نبرهن للعالم أنا ناضجون بالرغم عما يميز كلا منا من خصوصيات ثقافية وقيم أخلاقية ودينية.

سؤال: ماذا تقترحون كمسلسل؟

جواب: في هذا الظرف أقترح الالتزام بالصمت. إذ يتعين أولا أن ندع الحريق المهول ينطفئ لننكب فيما بعد على اقتحام المشكل بصراحة وبتضافر قوانا المشتركة المتمثلة في عقيدتينا وفي إيماننا وفي التقائنا على توحيد الله.

سؤال: هل يمكن أن تظل القدس عاصمة لإسرائيل؟

جواب: هل تريدون معرفة وجهة نظري الشخصية؟

سؤال: نعم

جواب: لقد شرحت لكم من قبل أن العرب يستعملون لفظ القدس الشريف. الأمر الذي يعني أن مدينة القدس مدينة مقدسة بالنسبة إلينا. إن العرب لا يطالبون باسترجاع القدس بكاملها كما كان الحال قبل حرب 1967، ولكن فقط بالأماكن الإسلامية المقدسة. إنهم لا يريدون لا حائط المبكى ولا معابد اليهود ولا كنيسة القيامة. إنهم يطالبون فقط بأماكنهم المقدسة. كالمسجد الأقصى الذي صلى فيه سيدنا محمد صلوات الله عليه. أما الباقي فتلك قضية المسيحيين واليهود.

سؤال: إن المشكل لو طرح بهذه الطريقة لبدت تسويته سهلة.

جواب: يقال إن الشيطان إذا أراد أن يضل إنسانا يكتفي بتحريضه على القيام بالعمل الأحسن ليكبده المشقة حتى لا يقوم بالعمل الحسن. ولهذا يقال إن الشيء إذا تجاوز حده، جانس ضده. ويضرب العلماء الروحانيون المثل لذلك بأن تسول المسلم الذي يؤدي صلواته الخمس نفسه بأن خمس صلوات في اليوم غير كافية. وتصبح تحثه على الإرهاق في العبادة والانقطاع للصلاة. ثم تقول له نفسه: إنه لحسن أن تصوم شهرا كاملا في السنة كما تفعل لحد الآن. ولكن عليك أن تواصل الصوم بدون انقطاع وفي النهاية يضيق الإنسان ذرعا إلى درجة أنه ينتهي إلى أن يكف كلية عن الصلاة والصوم والعبادات. ولهذا يتعين العمل دائما على أخذ الأمور ببساطة. وإلا سقط المرء مرة أخرى في رجس الشيطان.

سؤال : هل تعتقدون أن المشكل الفلسطيني سهل أيضا؟

جواب : ينقص الفلسطينيين ما نتوفر عليه أنا وأنت. ألا وهو ورقة التعريف الوطنية. إنهم يقولون جميعهم لقد سئمنا من الاستمرار في وضع من لا وطن ولا هوية له. ولا أحد يمكنه أن يقول إنهم ليسوا على صواب. وكما تعلمون فإنه يستحيل الحكم على موقف الفلسطينيين وفق نواميس بلد له قوانينه ومؤسساته. إن منظمة التحرير الفلسطينية حركة تحرير متنقلة تجتمع تارة في هذا البلد وتارة أخرى في بلد آخر. ولكن عرفات يظل إنسانا عمليا وواقعيا يترصد كل ما من شأنه أن يعيد له جزءا من الأرض.

الفصل التاسع عشر

نهايات الأسئلة

سؤال: أي نشاط كنتم تفضلون ممارسته لو لم تكونوا ملكا؟

جواب: مؤرخ. فحينما أحرزت شهادة الباكالوريا ذهبت عند والدي لأفسر له أنني تحدوني الرغبة في دراسة التاريخ. فأجابني قائلا: «لا. لا داعي لذلك. عليك أن تدرس الحقوق. فأنت ستجد دائما مهندسا ليبني القناطر. ومؤرخا ليكتب التاريخ. ولكن القانون وحده سيمكنك من أن تدافع عن نفسك وعن حقوق شعبك». والله وحده يعلم أن التاريخ أثبت أنه كان على صواب.

سؤال: هل كنتم ستفضلون نشاط التدريس أو نشاط البحث؟

جواب: لو كانت لي آنذاك مداخيل مالية لكنت فضلت العمل في المجال التاريخي كباحث. ولو لم تكن لي إمكانات مالية لكنت قد مارست مهنة التدريس.

سؤال: هل كنتم ستكونون في عملكم طموحين وذوي سلطة؟

جواب: نعم. ولكن فقط في حدود مجال ما كان سيكون لي من سلطة. أو في نطاق المادة الدراسية التي كنت سألقنها. إذ لو تجاوزت بسلطتي الحد، لتعرضت لتلقي إنذار ممن هم أعلى مني. وربما إذا لم ينفع الإنذار وتماديت، فقد ينتهي بي ذلك إلى معاقبتي بالسجن.

سؤال: أكان عالم الأعمال يغريكم؟

جواب: لا. إطلاقا.

سؤال: بصفتكم مؤرخا هل كنتم ستهتمون بتاريخ فرنسا؟

جواب: بالفعل. لأنه بغض النظر عن عهد الحروب الصليبية فغالبا ما يوجد في تاريخي المغرب وفرنسا نقط التقاء. ولاسيما على عهد الدولة العلوية، أي من بداية عهد لويس الثالث عشر حسب التاريخ الفرنسي.

سؤال: هل كنتم تودون دراسة تاريخ النظام الملكي في فرنسا في تلك الفترة؟

جواب: بالتأكيد. وربما كان سيكون لي نفس الاتجاه الذي كان لجدي مولاي إسماعيل الذي كان معاصرا للويس الرابع عشر. لقد كانا يتوليان السلطة في نفس الحقبة تقريبا. ودام عهد حكميهما نفس المدة. لقد قال مولاي إسماعيل ذات يوم مخاطبا جلساءه: «يتعين علي أن أجد حليفا لي في أوروبا». وأخذ يستعرض مختلف الأنظمة الأوروبية القائمة. وكانت البداية من انجلترا حيث قال: «لا. إن بلدا لا يحكم فيه الملك ويمكن أن تعتلي فيه امرأة العرش لا يهمني في شيء.». كما استبعد أيضا إسبانيا وكنا مع ذلك على اتصال معها ودي أحيانا ومطبوع بالنزاعات أحيانا أخرى. لقد استبعدها لأنه كان يرى أن ملكية خاضعة لسلطة الكنيسة لا تترك للملك حرية ممارسة الحكم. وتوقف في الختام عند فرنسا فقال عنها: «إني أود أن أربط علاقات مع لويس الرابع عشر، لأنه يحكم بلاده فعلا». وأخذ يعدد الأسباب الموضوعية التي جعلته يختار ويفضل إقامة حلف فرنسي مغربي إلى حد أنه طلب يد الأميرة «دوكونتي».

سؤال: أبشكل رسمي؟

جواب: نعم. لقد رد عليه الفرنسيون بقولهم: «طلبكم هذا غير ممكن تلبيته. فأنتم تأخذون بنظام تعدد الزوجات. وستضيع الأميرة المسكينة وسط مجموعة النساء».

وأمام هذه البراهين قال سفير المغرب في فرنسا ابن عائشة للويس الرابع عشر تحديدا : «يا جلالة الملك لقد جئنا نطلب من جلالتكم يد الأميرة لأنها تتوفر فيها الخصال والصفات التي تفتقدها النساء الأخريات». وكان يتعين البحث عن إيجاد مخرج لبق من الوضعية التي خلقها طلب الزواج هذا.

إن التاريخ في رأيي يُصنع أحيانا بـ «لوْ». فقد كنت يوما أتحادث مع السيد موريس دريون وقلت له : «لو أن لويس الرابع عشر كان قد قبل هذا الزواج لكنتم وجدتمونا خلال الثورة الفرنسية في جنوب أو شمال فرنسا أو حتى في منطقة الفلاندر نحارب من أجل إعادة إقرار النظام الملكي».

سؤال : لماذا نعتم فاليري جيسكار ديستان بـ «الصاحب»؟

جواب : لأنه إنسان جعلني أشعر بالارتياح إليه منذ أن وطئت قدماه التراب المغربي. لقد كان هو الأول الذي بادر بزيارتي. وأنتم تعلمون أن فارق السن بيننا لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة أعوام. وهو يتميز بحب الاطلاع، ويطرح سيلا من الأسئلة التي تقتضي دائما أجوبة متنوعة، مما يجعل الحديث معه يأخذ وجهة جدية. وبما أننا قائدا دولتين، ومن نفس الجيل، وأن كلمة «صاحب» توجد في قاموس اللغة الفرنسية، فلا شيء كان يمنع من استخدامها.

سؤال : هل كان هو الرئيس الذي كنتم تتفاهمون معه أكثر؟

جواب : نعم. لقد كنا نتصل ببعضنا البعض بكثرة، ونتبادل الرسائل. وأعتقد أنني كنت رئيس الدولة الوحيد أو أحد القلائل الذين اتصلوا به يوم غادر قصر الإيليزيه.

سؤال : كيف كان حاله إذ ذاك؟

جواب : كان حزينا وبالغ التأثر، وتحمل الصدمة بكل شجاعة، لكنه كان لا يبدي أي شيء من شأنه أن يجعل مخاطبه يشعر بما يعانيه.

سؤال : كيف تقبلتم الانتقادات التي وجهت إليه وبالأخص في قضية الألماس؟

جواب : في رأيي أنه كان ينبغي عليه ألا يرد عليها. افترضوا لو حدث نفس الشيء للجنرال دوغول. أتصور أننا كنا نراه يصرخ في مخاطبيه : «طيب وماذا بعد؟». ثم ينصرف عنهم ضاربا في وجههم الأبواب. هل تتصورون أن يكون أي رئيس دولة على استعداد لبيع بلده من أجل أثمن هدية في العالم؟ إنه شيء سخيف. لقد كانت قضية الألماس لا أخلاقية. لاسيما وأننا نشعر على الفور من خلال الحديث مع الشخص المعني هل هو طماع جشع أم لا.

سؤال : أين يتجلى في نظركم هذا الجشع؟

جواب : أولا في حب الذات المفرط وفي طريقة حب التملك. وليس جيسكار في نظري لا دنيئا ولا جشعا.

سؤال : كيف تلقيتم عام 1982 انتخاب فرانسوا ميتران ووصول الاشتراكيين إلى السلطة؟

جواب : يمكن أن أقول إني تلقيت ذلك بكثير من التخوف. وكان من اللازم انتظار بعض الوقت ليتضح أن هناك الحزب الاشتراكي من جهة، والحكم الاشتراكي من جهة أخرى. لقد كنت قلقا لأن البلاغات التي كانت تحرر بمقر الحزب الاشتراكي بزنقة «سولفيرينو» كانت تحمل في طياتها فيما يخص السياسة المغربية نزوعا إلى التدخل في

شؤوننا الداخلية والتطاول على قضايانا.

ومباشرة بعد سنة 1981 كانت ما تزال هناك بعض نقط الخلاف، ذلك أن بعض المسؤولين وخاصة السيد «جوسبان» تجاهلوا في تصريحاتهم أو مواقفهم أن زنقة سولفيرينو أصبحت تحت مراقبة قصر الإيليزيه. وكان عليهم أن يبدأوا حملتهم. وبكل بساطة أتأسف لكونها استهدفت المغرب.

وبعد ذلك أخذ الرئيس الفرنسي بزمام الأمور بشكل واضح. وسأكون غير منصف وفاقد الذاكرة إن لم أعبر له عن امتناني .ففيما يخص المغرب حرص على الأقل على إظهار استمرارية الدولة .إذ في قضية الصحراء، مثلا أخذ الرئيس الفرنسي بعين الاعتبار أولا مصلحة فرنسا. وفي الحين لاحظ أن مصلحتها تتفق مع مصلحة المغرب، واستخلص أن مصالح البلدين متطابقة، وبالتالي يتعين أن لا تغير فرنسا موقفها واتجاهها.

سؤال: من هم المبعوثون الأوائل الذين أوفدهم الرئيس ميتران لديكم؟

جواب: في البداية أوفد لدي الجنرال بويس الذي قام بمهمته على الوجه الأمثل. وأعتقد أن الرئيس كان يريد أن يكوِن فكرة عما كان يجري على الصعيد العسكري في الصحراء. وفيما بعد اتفقنا مع الايليزيه علماً أن هذا لا يكفي. وبعدها استقبلت السيد «بريغوفوا» الذي كان يشغل آنذاك منصب الكاتب العام لدى رئاسة الجمهورية؛ واكتشفت أنه يتميز ببساطة جذابة ورائعة، وأنه يعتمد أسلوب الصراحة والوضوح في التعبير عن آرائه. وكان رسولا أمينا ولكن لم يكن يقتصر على القيام بدور المبعوث المبلغ للخطاب. بل كان يحرص على أن يأخذ في الحديث ويعطي.

سؤال: ماذا كان موضوع المباحثات؟

جواب: لقد كان المبعوثون يأتون في الغالب إما لرفع لبس أو إزالة سوء تفاهم.

سؤال: ما هي مظاهر اللبس التي كان ينبغي رفعها بين فرنسا والمغرب؟

جواب: كان هناك لبس في التأويل فقط.

سؤال: حول ماذا؟

جواب: من الصعب أن أحدثكم عن ذلك.

سؤال: كيف جرى لقاؤكم الأول مع السيد فرانسوا ميتران؟

جواب: لقد كان ذلك خلال زيارة رسمية. وكان لنا صديق مشترك ألا وهو السيد شابان دلماس. وحينما كنت وليا للعهد كنا نخرج في غالب الأحيان نحن الثلاثة ونذهب لتناول العشاء في مطعم مكسيم أو مطعم لاسير. وكنا نقضي لحظات ممتعة. لقد كان فرانسوا ميتران جليسا حسن المعاشرة، حريصا على الاعتناء بشخصه.

سؤال: وهل تغير بعدما أصبح رئيسا للدولة؟

جواب: لقد وجدته هو نفسه ذا النظرة الساخرة التي لا تفارقه، الممزوجة بابتسامة لا تعدو الشفتين. لقد كان يعطي الانطباع بالخصوص بأنه رجل محنك، وذو اطلاع واسع، وبالأخص في مجال التاريخ. وذات لحظة قال لي: «تصوروا لو أن نجل الملك لويس - فليب - لم يهلك حينما هاج الفرسان اللذان كانا يجران عربته وانفلت لجامهما لكنا ربما ما نزال نعيش نوعا من استمرارية النظام». لقد كان هذا الكلام تقريبا بمثابة قدح في حق النظام

الجمهوري.

إن الرئيس الفرنسي معني جدا بكل ما يمكن من تلافي تمزق في نسيج التاريخ. وقد أسرّ إليّ بقوله «إن الاستمرارية ميزة يتميز بها عنا الملوك».

سؤال: كيف تقبلتم احتفالات الذكرى المائوية الثانية للثورة؟

جواب: قلت في قرارة نفسي إنه كان ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أيضا فترات التاريخ التي سبقت الثورة. ذلك أن النظام الجمهوري لم يأت هكذا فجأة. وبتنظيم هاته الاحتفالات فإن فرنسا كانت تعطي الانطباع وكأن تاريخها أكثر حداثة من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

سؤال: لقد كان أول تدبير اتخذته الحكومة الاشتراكية في صالح الجزائر خاصة فيما يخص ارتفاع أسعار البترول.

جواب: ينبغي إنصاف ميتران. فهو لم يكن أول رئيس يقوم بذلك. فقد كان بومبيدو وجيسكار يشعران بنوع من الشعور بالذنب إزاء الجزائر. وأؤكد من جديد أننا لم تكن لنا أبدا أية مشاكل مع ميتران وحكومته. بل إننا كنا نجدهم أحيانا أكثر استعدادا للاستجابة من خصومهم السياسيين.

سؤال: بخصوص أية ملفات؟

جواب: على المستوى المالي. أو حينما كنا في حاجة إلى قمح خلال فترات الجفاف القاسية. ذلك أن السيد بريغوفوا لم يتردد في مواجهة القلق الذي أبداه شركاؤه الأوروبيون، والذي كان له ما يبرره، بحيث أنه نقب في المخازن الأوروبية عما يزودنا به من الحبوب التي كم كنا في حاجة إليها.

كما أننا تمكنا على صعيد المديونية العسكرية من اقتناء الكثير من الأسلحة. وتم قبول إعادة جدولة بعض الديون التي علينا. والواقع أن الجانب الفرنسي أبان مرات عديدة عن حسن نيته.

سؤال: ولكن بالموازاة مع ذلك كثرت الانتقادات الموجهة إليكم، فمتى بدأ هذا التحول؟

جواب: منذ اللحظة التي أخذت جمعية «فرانس لبيرتي» تتدخل في شؤوننا.

سؤال: هل قابلتم دانييل ميتران؟

جواب: أجل. لقد جاءت في زيارة خاصة للمغرب. وفي ختامها، طلبتُ من أم الأمراء أن تتصل بها لتبلغها بأنها ستكون مسرورة باستقبالها في حفلة شاي.

وفي نهاية هذه المقابلة الودية التحقت بهما، فطلبت من السيدة ميتران أن نتقابل على انفراد. وحينما استقبلتها قلت لها ما يلي: «إني أعلم سيدتي أن والديكم كانا مثلكم وطنيين متحمسين». فنظرت إلي مندهشة متطلعة إلى معرفة قصدي، وواصلت كلامي قائلا: «ما يزال هناك قدماء محاربين فرنسيين شاركوا في الحرب العالمية الأولى يعيشون برئة واحدة بسبب الغازات. وقد كافحوا من أجل الحفاظ على منطقة الألزاس واللورين. عليكم سيدتي أن تطلبوا مني ما تريدونه فلن أرفضه لكم. إنكم حرم رئيس دولة صديق. ولكن أرجوكم فيما يخص الملفات المغربية التي تهتمون بها - وخاصة ملف السرفاتي - أن تستكملوا معلوماتكم أولا. وستدركون أن هذا الشخص متورط في قضية تعتبر في نظري مقدسة. إن الصحراء، بالنسبة لي هي بمثابة الألزاس واللورين

بالنسبة إليكم» .وكنت أخاطبها وأنا أحدق النظر فيها . فردت علي بالإيجاب قائلة : «نعم يا جلالة الملك» . إذن . يمكن القول إنه بعد حديثنا هذا لم تعد تجهل حقيقة قضية الصحراء، أو لا تعي ما لهذه القضية من حساسية في نفوس المغاربة .

سؤال : وهل هدأت التهجمات بعد هذا الحديث؟

جواب : لا أبدا . لم يتغير أي شيء .

سؤال : إن الرأي العام الأجنبي ربما اندهش، هو الآخر، لطول مدة اعتقال أبراهام السرفاتي .

جواب : لقد قلت على الدوام إن حقوق الإنسان في المغرب تقف عند قضية مغربية الصحراء . وكل شخص يدعي أن الصحراء ليست مغربية . لا يمكنه أن يتمتع بحقوق الإنسان . ذلك أن موقفه هو موقف خيانة وتفريط في الأرض .

سؤال : كيف كان رد فعلكم إزاء كتاب «صديقنا الملك»؟

جواب : لقد اتسم رد فعلي بالجلد . فما هو النظام الذي ليست له عيوبه ولا يتعرض لأي انتقاد؟ ولو كنت أردت أن أزيد الطين بلة لكان بإمكاني، أنا أيضا، أن أدلي بتصريحات تفضح ما كان يجري في فرنسا . إذ لم تكن تنقصني المعطيات . ولكنني اعتبرت أنه ليس من حقي أن أعكر جو علاقات عريقة عرفت حينا فترات صفاء، واجتازت أحيانا فترات عصيبة .

سؤال : هل كنتم ستفشون أمورا من شأنها أن تثير القلق؟

جواب : إنني لست عييَّ اللسان .

سؤال : هل هذا خطاب مررتموه للمسؤولين الفرنسيين؟

جواب : بالفعل . وأعيد تمريره الآن كتابة في حالة ما إذا....

سؤال : في حالة ما إذا ... ماذا تعنون؟

جواب : هذا كل ما لدي أن أقوله . إن الأمر يتعلق بوضع عجلة من عجلات الإغاثة أضيفها إلى عجلات مركبة العلاقات الفرنسية المغربية . واليوم والحمد لله فإن وضع العلاقات المغربية الفرنسية يخيم عليه الهدوء .

سؤال : هناك مع ذلك شيء غير مفهوم . فبعد خيانة أوفقير . لماذا ذلك التحامل على عائلته وأبنائه الذين لم تكن لهم مسؤولية فيما ارتكبه هو؟

جواب : سأبدأ بالشطر الأخير من سؤالكم . هل تعلمون أن هذه العائلة هي اليوم بدون شك العائلة الأكثر تعاسة بالمغرب . إذا ذهب أفرادها إلى فندق وكشفوا عن هويتهم يُردُّ عليهم بأنه لا توجد غرفة شاغرة . إنه لا أحد في المغرب يقبل أن يجالسهم أو يسلم عليهم . فأبناء أوفقير أصبحوا أيتاما . ليسوا أيتام أمهم . ولكن أيتام مواطنيهم . ولو أني لم أضعهم في مأمن لكان تم على الفور رجمهم حتى الموت .

سؤال : لماذا لم تتركوهم يغادرون المغرب إلى كندا كما كان ذلك منتظرا؟

جواب : أرجأت ذلك إلى أن يسووا مشاكلهم المتعلقة بالميراث . إذ لا تنسوا أن هناك زوجة ثانية لأوفقير ولها هي أيضا أولادها .

سؤال : وهل هذا هو السبب الوحيد؟

جواب : إنه السبب الوحيد . لأنني أنا الذي اقترحت مغادرتهم للمغرب . وقد قال لي أصدقاء كنديون على أعلى مستوى : « إنكم لم ترفقوا بنا بإيفادهم إلينا » . وبمجرد ما يسوون مشاكلهم يتعين عليهم الذهاب للعيش في مكان آخر .

سؤال : لماذا سجنتموهم لسنوات في ظروف قاسية إن لم تكن مرعبة؟

جواب : مرعبة ، لا . قاسية ، نعم . لقد أنطت هذه المهمة بشخص لا يمكن أن أكشف لكم عن اسمه لأنه التحق بالرفيق الأعلى . ولم يكترث بهم تماما . ولقد شعرت بحزن عميق لما جرى .

سؤال : ورغم ما هو مخول لكم من سلطة ، جهلتم ظروف اعتقالهم طيلة ثماني عشرة سنة .

جواب : كنت أعتبر أن الملف قد طوي . إذ مادام لم يتم إطلاعي على أن الأمور لا تسير على ما يرام ، فذلك يعني بالنسبة لي أن الأمر يجري بشكل عادي .

سؤال : هل كنتم تعرفون مكان وجودهم؟

جواب : كنت أعرف أنهم تحت الإقامة المحروسة . كما كنت أعتقد أن ذلك يتم في ظروف عادية . وبمجرد ما اكتشفت الحقيقة أمرت على الفور بتغيير الأمور .

سؤال : لماذا وجود معتقل كمعتقل تازمامرت الذي أغلقتموه مؤخرا؟

جواب : جميع الأشخاص الذين كانوا معتقلين بتازمامرت تمت إدانتهم من طرف العدالة . لم أكن أريد أبدا أن أضع من حاولوا قتل الملك في سجن يمكنهم فيه الاتصال بمعتقلي الحق العام . فطرحت السؤال على المعنيين الذين أخبروني أنه يوجد سجن عسكري قديم يسمى سجن تازمامرت ، فتم إيداعهم فيه . وبكل صراحة ما كنت أظن أن ظروف هذا السجن هي ما كانت عليه . لأنني على أية حال لا يمكنني أن أراقب مصلحة التموين في المعتقلات . إنني أعرف أن رؤساءكم في إطار مبادرات دعائية انتخابية يظهرون وهم يصافحون سجناء . وأنا لا يمكنني شخصيا أن أفعل مثل ذلك . كما أن ديني لا يلزمني ، كما يفعل ذلك القساوسة ، أن أذهب لغسل أرجل أتعس المعتقلين . إنه ليس هناك ما يلزمني بالذهاب لزيارة السجون وتفقدها .

سؤال : ومتى بدأت شهادات عن ظروف الحياة في هذا المعتقل تتسرب إلى الخارج؟

جواب : لقد طرحت السؤال على من يعنيهم الأمر فقيل لي : « لا ، إن ما يقال مبالغ فيه » . ويتعين القول إن المصدر الذي كان يسرب هذه المعلومات إلى الخارج كان في نظري موضع شبهة ، باعتبار أن الأمر كان يتعلق بالسرفاتي . لقد كانت جميع أقواله عارية من الصحة تماما .

سؤال : وفيم فكرتم لما اكتشفتم حقيقة ذلك؟

جواب : فكرت أنه يتعين وضع حد لهذا الأمر . لكن كنت أعتبر أنه من الواجب أن يعاقبوا . وإلا لما كنا نتحدث هنا اليوم . فلو تحقق لأوفقير ما كان يسعى إليه لوجدنا 26 مليون مغربي يبكون ، وليس فقط 70 عائلة . وهذا ما لا يفكر فيه . فلو نجح أوفقير أنذاك في تنصيب وصاية على العرش لتفكك المغرب ، ولدخل دوامة حرب أهلية . لقد كانت لدي شجاعة اكتشاف أخطائي وإصلاحها .

ولعلمكم، فإني أملك ما يكفي من الاعتداد بالنفس كي لا أتطلع دائما ومهما كلفني ذلك، إلى الظهور بشكل جميل وطيب.

سؤال :كيف تنظرون إلى المستقبل الجيوسياسي في منطقتكم؟

جواب: قبل ستة أشهر كنت أتحدث مع صديقي رولان دوما والسيد دوميشيليس وزير الشؤون الخارجية الإيطالي وقلت لهما: يتعين بكل تأكيد أن نبرهن على أن البحر الأبيض المتوسط يمكن أن يصبح منطقة تضامن وتوازن، تماما كبحيرة طبرية التي تتعايش حولها الديانات الثلاث وأبناء سيدنا إبراهيم الموحدون وتترابط جميعها بروابط تاريخية لبناء معبر رائع لولوج القرن المقبل.

سؤال: بأية وسائل سيحققون ذلك؟

جواب: بعبقريتهم، وبالإمكانات التي حباهم الله بها.

فهرس الفصول

فهرس الأعلام والأماكن

الأعلام

الاماكن

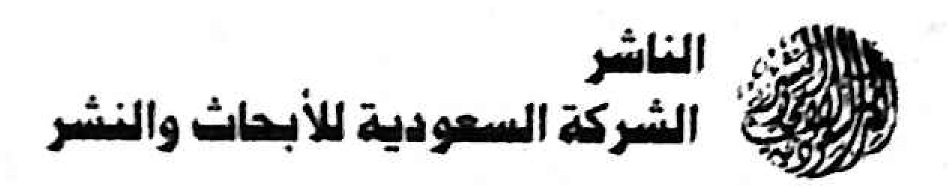
نادراً ما يتحدث زعيم بهذا الوضوح والصراحة اللذين في هذا الكتاب. أما الأكثر ندرة فهو ذلك الشمول في ثنايا كتاب يعتبر غير عادي في زمن غير عادي لرجل غير عادي.

والملك الحسن الثاني في هذه الحوارات يجول بالقارئ في المغرب حيث محمد الخامس. والاستقلال. والدستور. وابن بركة. وأوفقير.. الى الجزائر حيث بن بلة. وبومدين. والشاذلي بن جديد.. الى فرنسا دوغول. وديستان. وميتران.. الى مشرق فيصل. وفهد. وعبد الناصر. والأسد. والحسين. وعرفات.. إلى غرب نيكسون. وبوش. وكيندي وقبلهم روزفلت. وتشرشيل.

كتاب مشوق وممتع ومفيد ويوثق في ذات الوقت للحقيقة والتاريخ. ويجيب على تساؤلات تقربنا أكثر من شخصية الملك الحسن الثاني. وتعرفنا على جوانب يكشف عنها لأول مرة.

نظرة واقعية ذات بعد عالمي. تأخذ القارئ. أيا كان توجهه. مع فلسفة تجول في رحاب الكون.

ريع الكتاب مخصص لرعاية الطفولة في المغرب


الناشر
الشركة السعودية للأبحاث والنشر